حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI
دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

أثر القرآن
في سلوك المجتمع المسلم

بقلم

الدكتور عبد القدُّوس بن أسامة السَّامرائي

إدارة البحوث

هذا الكتاب مُحَكَّم علمياً

التدقيق اللغوي

سـيد اطهـدي أحمد

شروق محمد سلمان

إخراج فني

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

ISBN 978-9948-8592-9-1

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+

الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبـي

mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

أثر القرآن
في سلوك المجتمع المسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحيـة

الحمـد لله رب العالمـين، والصَّـلاة والسَّـلام على سـيدنا محمـد وعلى آله وصحبه ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فيـسر « **دائرة الشـؤون الإسـلامية والعمـل الخيري بدبـي - إدارة البحوث** » أن تقدِّم إصدارَها الجديد « **أثر القرآن في سـلوك المجتمع المسـلم** » لجمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفـة.

وهـو كتاب جمع صفحات مشـرقة في تعامل الأمة المسـلمة مع القرآن الكريم، وأظهر في جوانب عديدة أثر فهمها الصحيح لتعاليمه، ولاسيما على سلوك الفرد والأُسرة اللَّذين بهما يتكوّن المجتمع المسلم.

وهو مساهمة نافعة في سلسلة ما حرّره السّلف يرحمهم الله، وإسهام في إحياء جذوة التمسّـك بكتـاب الله تعالى، والتعريـف بمنهج الأوائل، وكيف كانـت حياتهـم السَّـابقة حياة قرآنية، تشـهد ذوقـاً وجدانياً ، ومعرفـة بمعاني القرآن الكريم، وتأثراً سلوكياً في التعامل الـحسّي والمعنوي معه.

وهـو نافع لأبناء الجيل المسـلم، لاسـيما في بعثهم على فهـم مراد الله تعالى، وتربيـة الـرّوح، وتنقيـة البَدَن،وانتقاء المنهـج الحق في السـلوك، والتعرّف على بعض آثار أبناء المجتمع المسـلم من السَّابقين، وكيف كان أثر القرآن في سلوك أفراد الأمّة وقادتها وأعيانها ، من حيث انتفاعهم بتوجيهاته التربوية، وتعاملهم

معه على أساس الفهم العميق لآياته، وصحيح سنّة رسول الله ﷺ، وإمضاء أحكامهما على النّفس والمجتمع؛ ليكون لهما الدور الفاعل في إصلاح المنظومة الإنسانية، وسائر الشؤون الحياتية.

وهذه الصفحات المشرقة تُعد طاقة إيمانية وفكرية؛ تبعث أجيال الأمّة على مواصلة المسيرة على المنهج الحق الذي عليه أهل القرآن، وتدعو إلى تحكيمه في حياتهم، وسائر شؤونهم؛ لتظهر بركته فيهم، ويتجلّى أثره عليهم، وتفيد الأرواح والأبدان والأسر والمجتمعات من نوره.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقدم عظيم الشكر والدعاء لأسرة آل مكتوم حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل سخاء، وفي مقدمتها **صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد بن سعيد آل مكتوم**، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي الذي يشيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وينهض بطُلابه.

راجين من العلي القدير أن ينفع الأمة بهذا العمل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطاء من أجل خدمة الإسلام وأهله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصَلَّى الله على النَّبيِّ الأميِّ الخاتم سيدنا محمَّـد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور سيف بن راشد الجابري

مدير إدارة البحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ما لمع نورٌ واختفى، وأشهد أنّ سيّدنا محمداً عبده ورسوله، سيّد الشُّرَفا ، وحسبي الله الملك القُدُّوس وكفى.

أما بعد:

فالقرآن الكريم دستور لحياة الأمة الإسلامية كلّها، والمصدر الأول للهداية في توجيه هذه الأمّة إلى حياة أساسها العدل وحبّ الخير وفعله، وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه (ت٣٢هـ): « **إنّ هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم، وهو النور النيّر، والشفاء النافع، والعصمة لمن تمسّك به، والنجاة لمن تبعه، لا يعوجّ فيقوّم، ولا يزيغ فيُسْتعتب، ولا تنقضي عجائبه** »[1] .

وبالهدي القرآني بنى المسلمون حضارتهم الشامخة، التي امتدَّ نفعُها إلى البشرية قاطبة، وبه تجسّد كيانهم بين الأمم؛ فهو سَداد حياتهم، وشهود حضارتهم، وقوّة شوكتهم، وإليه مفزعُهم في المُلمّات كلّها. ومن المعلوم أنَّ أولى

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه: ١/ ٤٣، برقم (٧)، وجاء في مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٢٥، برقم (٣٠٠٠٨)، والدارمي في سُننه: ٢/ ٥٢٣، برقم (٣٣١٥)، وفي المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٤١، برقم (٢٠٤٠)، وفي السنن الصغرى ١/ ٥٤١، برقم (٩٨٣).

ما صُرفت فيه نفائس الأيام، وأعلى ما خُصّ بمزيد الاهتمام: الاشتغال بالعلوم الشرعيـة المتلقّاة عن خـير البريّة، ولا يرتاب عاقلٌ في أنّ مدارَها على كتاب الله المقتفى وسُـنَّةِ رسـوله المصطفى ﷺ، وأنّ باقي العلوم إمَّا آلات لفهمهما وهي الضّالة المطلوبة، أو أجنبية عنها وهي الضارّة المغلوبة كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله.

ولمّا كان القرآن العزيز أشرفَ العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم .

وعليـه: فإنَّ العلـم بكتاب الله عزَّ وجلَّ، والعمـل في خدمته من أرفع الأعـمال، وإنّ الله عزَّ وجلَّ لا يمنح هـذا الفضل - أعني فضل فهم كتـابه وتفهيـمـه- إلا مَـنْ أراده لذلـك كـما قـال مجاهد رحمـة الله عليـه: « **أحَبُّ الخلـق إلى الله أعلمُهم بما أنـزل** » ؛ لما عليه مآل عالمِهِ من الإيمان، واليقين بموعـود الله تعالى، وما يتذوّقه من مواطنة الجنَّات، وهو يتفيأ ظلال آيـات كتـاب الله الوارفات، ولما فيه من الالتحاق بزمرة سـيد السـادات ومنهجه وسلوكه ﷺ.

ولما تقدّم وغيره جاءت صفحات هذا الكتاب مشرقة بشُـعُعٍ تُظهر فهم السَّـابقين في الأمّـة رحمهم الله تعالى للقرآن الكريـم، وتعاملهم معه ومع أهله، وكيف حوّلوا الفهم والتعامل إلى منظومة متكاملة في العلم والأخلاق والعمل، وشـملت هذه الصفحات إشراقات مهمة في بابها، ونافعة لـمَنْ وعاها، وتدبّر آثارها، وأحسن الإفادة منها، ولاسيما في التعامل مع القرآن الكريم، وما يلحق

به من المعارف ، وحثّ السلف على تعلم القرآن، وإكرامهم لأهله، وإفاضتهم بجملة من الفوائد ، والتجارب التي وقفوا عليها أثناء العناية والرعاية والعيش في ظلال كتاب الله تعالى .

والـذي ينفعنـا في مثـل هذه الصفحات هـو تذكير أنفسـنا والأمة بعظيم المسـؤولية تجـاه القرآن الكريم، ومحاولـة بعث الهمّة في أجيـال الأمة المتلاحقة المتجـددة التـي هـي بأمس الحاجـة إلى النظـر في صفحـات آبائهـا وصنائعهم الخالدة، وإلى كل عبارة وإشـارة ترشـدهم إلى خيري الدنيا والآخرة، وتبعثهم عـلى حثّ الخطى بيقـين وقناعة وثبات، وتنطلق بهم بلا ريب في طريق الدعوة إلى الله تعالى ودينه الحق، وتصبرهم على مشاق نشره، والدفاع عنه وعن رموزه ومقدّسـاته ، ولتمـضي الأمة اليـوم في تقديم كل غالٍ ونفيس في سـبيل ذلك ، ولتقـف على مناهج السَّـابقين في التعامل مع القرآن العظيـم، وتطّلع على نتاج فهمهـم لآياته الكريمـة، وتتعرّف على الكيفيّة التي اسـتطاعوا بها ومن خلالها الوصـول إلى مـا وصلـوا إليه ؛ مـن الصّدق في عهـد الله ورسـوله، والمصالحة والصَّـلاح والإصـلاح في ضوء هـدى القرآن الكريـم قراءة، وفهـماً، وتفهيماً، وعمـلاً بالأحكام، وأثراً في الأرواح والقلوب والأجسـاد، والفرد والمجتمع، والبناء والحضارة.

وقُسّمت صفحات هذا الكتاب إلى **ثلاثة محاور**:

الأول: إشراقات في تعامل الأمة مع القرآن الكريم.

والثاني : أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن الكريم في السّلوك العام.

والثالث: شعع في أثر تعاليم القرآن في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع.

وكل واحد من هذه المحاور اندرجت تحته عدة فقرات تعالج موضوعه، وقد تعزّز هذا الجهد كلّه بناءً على النَّظر والتأمل في الفكرة، والرجوع إلى المصادر المهمَّة التي تتعلّق بالقرآن الكريم، تفسيراً ولغة، وما جاء في سِيَر رجال الأمة السَّابقين، وصفحات تاريخهم المشرق في ظلال تمسّكهم بالمنهج الحق يرحمهم الله تعالى.

والأمل أن تكون هذه الصفحات مساهمة نافعة في سلسلة ما كُتب في هذا الموضوع، وعسى أن تُسهم في إحياء الجذوة، والتعريف بمنهج الأولين رحمة الله عليهم، وكيف كانت مراحلهم السَّابقة مراحل حياة قرآنية، وتذوق وجداني لمعاني القرآن الكريم، وجمال بديعي في التعامل الحسّي والمعنوي معه، وأن تَنْفَع أشعتها الجيل فهماً، وتربية، ومنهجاً، ويُنْتَفع من خلالها في التعرف على بعض آثارهم ولطائفهم مع القرآن، ولتحفظ وتُذكِّر بمكانة السَّابقين الأولين من أهل القرآن، وكيف كان تعامل قادة الأمة وأعيانها مع القرآن وأهله، وكيف كان أثر القرآن فيهم وفي سلوكهم؛ لنكون معاً في طريق معرفة الله تعالى، والوصول إلى مرضاته جلّ جلاله.

هذا.. وإنّ كلّ شعاع من أشعّة أولئك الصّادقين ليستحق أن يُستضاء به، ويستفيد منه جيل اليوم، وأن تُتتبّع أقوالهم، وحِكَمهم، ومناهجهم في التعامل مع القرآن، وتُجمع وتُدرس لتظهر آلية فهمهم لكتاب الله وما جاء به، وتنتفع الأُمة بتوجيهاتهم التربوية القائمة على أساسي الفهم العميق

لكتاب الله تعالى، وصحيح سنّة رسوله ﷺ؛ والاتباع الحقيقي بتفعيل أحكامهما على النّفس والمجتمع، وليتعرّف الجيل على حقائق معانيهما، وإرشاداتهما الشاملة لسائر الخليقة، وتُقعّد على الواقع، ويكون لها دورها الفاعل في إصلاح المنظومة الإنسانية والاجتماعية والفكرية وسائر الشؤون الحياتية، وبهذا كلّه تتضح معالم الأثر القرآني في سلوك الأمة.

ولا شك أنّ من غايات تحرير هذه الصفحات تعريف الأمة وأجيالها بالفهم الوسطي المعتدل للدِّين من خلال تزكية الرّوح، وتنقية البدن، والجمع بين العلم والعمل، والسَّعي في تحقيق التوازن بين عيش الدنيا وطلب عيش الآخرة، لاسيما والأمّة اليوم تعيش مرحلة من مراحل الجفاف الرّوحي، وتعاني من تفشّي ظاهرة ضعف الارتباط الإيماني بين أبنائها، وداخل منظومتها، والذي انعكس سلباً على سلوكها الحياتي.

وأخيراً أُذكِّر نفسي والقراء والسَّائرين في طريق معرفة الله تعالى من طلاب العلم والدعاة والكتّاب والمعلّمين والمربّين بما قاله الإمام الفقيه أبو صالح حمدون بن أحمد القصّار النَّيْسَابُوري (ت٢٧١هـ) رحمة الله عليه، لمّا قيل له: مَا بَالُ كلامِ السّلَف أنْفَع من كلامنا ؟!، فقال: « **لأنَّهُم تكلَّموا لعزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن؛ ونحن نتكلَّمُ لِعِزِّ النَّفْسِ، وطَلَبِ الدنيا، وقبُول الخَلْق** »؛ فهذه تذكرة تجعلنا بحق إذا تكلَّمنا نذكر أنّ الله تعالى معنا يسمع ويرى وهو السميع العليم، وإذا نظرنا إلى الغاية

العظمى من الخلق والإيجاد نذكر نعمة مَنْ له الخلق والأمر، فتبارك الله ربّ العالمين سبحانه، وأنّه لم يخلقنا إلا للعبادة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١)، ثمّ تكرّم علينا فاستعمرنا في الأرض: ﴿.. هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾(٢)، واستخلفنا عليها، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

فلنطلب النجاة منه به وإليه تعالى، والرّضا منه وعنه بفضله سبحانه، والعزّ لديننا العظيم الذي هو صلتنا به جلَّ جلاله. ولنحرص على تجديد الإخلاص مع السَّعي الدؤوب في أن تُشرق صفحات سلوكنا في ضوء المنهج القرآني في سفر أبناء الجيل القادم، وأن نتفاعل مع القرآن في الفكر والأخلاق والسلوك.

وفي سلاف مداد هذا التقديم: أبتهل إلى الله تعالى أن يحفظ قلوبنا وأرواحنا وأبداننا وجوارحنا، وأن يمتعنا بها، ويجعلها الوارث منا. وأن يلهمنا الصواب والسداد في أمورنا كلها.ويكتب لنا الإخلاص والقبول. وأن يبعثنا على تجديد التوكل عليه سبحانه تعالى في جميع أمورنا، ونبرأ فيها إليه من حولنا وقوَّتنا،

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٢) سورة هود، الآية ٦١.

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٦٥.

ونسأله أن يعيننا عليها، وعلى كلّ خير، ويوفّقنا لصالح الأعمال، ويتفضّل علينا بقبولها، ويجعلنا ممن سمت أخلاقهم فكانت تُنْسب للقرآن وأهله وخاصّته، وممن ظهر أثره فيهم وفي مجتمعاتهم.

وصلى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الأكرمين، ومَنْ تبعه بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د. عبد القُدُّوس بن أسامة الحُسَيْنيّ السَّامرائي الكليدار

دبي / الإمارات العربية المتحدة

المحـور الأول

إشراقات في تعامل الأمة

مع القرآن الكـريم

المحـور الأول

إشراقات في تعامل الأمة مع القرآن الكـريـم

من حيث:

أ) التمسك بكتاب الله تعالى والتزامه قراءة وتعهّداً .

ب) انبثاق المدارس لتعليم القرآن الكريم ، وحُسن تفهيمه .

ت) تنوّع المناهج في فهم القرآن والتعامل معه .

ث) تهيئة الأجيال وتأهيلها للتعامل مع القرآن الكريم .

***

لا شـك أن مـن أعظـم نعـم الله تعـالى علينا هـي نعمة الإسـلام، ونعمة القرآن ، ونعمة سـيدنا محمد ﷺ ؛ فالإسـلام أخرجنا الله تعالى به من الظلمات إلى النـور؛ والقرآن الكريـم علّمنا الله تعالى به كيف نوحّـده، وكيف نفهم عنه تعاليمه السامية، وكيف نجمع بين عزّي الدنيا والآخرة، وهو المصدر المقروء؛ وسيدنا محمد ﷺ رسول الله ونبيّه الخاتم هو الذات المجسّدة لصلاحية التعاليم الـواردة في القـرآن الكريـم، وهو القـرآن العملي؛ فهو ﷺ الجامـع بين المنظور والمحسـوس، وهو واسطة الهداية الموحى إليه من الله عزّ وجلّ، والمجسّد لنور القرآن الكريم بسـلوكه وهديه ﷺ ، ومرجع الشفاء لما في الصدور وبركته [1]،

(١) وقد جاءت الآثار تبيّن بركة ذاته ﷺ كنبي ورسول، حتى على جسده الشريف؛ منها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠٤ ، برقم(٢٤٧٧٢) ، بسنده إلى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ كان يقرأ على نفسه المعوذات وينفث، قالت أم المؤمنين عائشة: فلما اشتكى ﷺ جعلت أقرأ عليه وأمسحه بكفه رجاء بركة يده ».

وهو نور القرآن الساعي بـه، ومشكاته في الخلائق بأمر الله عزَّ وجلَّ ، وباعتبار جمعـه بين المنظور والمحسـوس في شـخصه ﷺ، وكونه الشـمس المنيرة في بث روح الوحـي ولفظـه في الأمة، وبعثها عـلى النهوض بالحـسّ والمعنى ؛ نلحظ انتشـار شعع شمسه في سـائر العصور وتأثيرها على الأجيال منذ مبعثه ﷺ إلى أن يـرث الله الأرض ومَـنْ عليها ؛ كما نلحظ أن ثلّـة الصادقين في الأمة تحتفظ ببركات إرثه، وتقتبس لنفسـها وللأجيال اللاحقة بركبها شيئاً من شعع نوره، ويظهـر أثر ذلك من خلال سـلوك الأمة وعلمائها وصالحيهـا في التعامل العام مـع غيرها أو الخاص فيما بين أبنائها ، ويمكننا أن نتعرّف على ذلك من خلال: **حثِّ السـابقين على تعلّم القرآن، وإكرامهم لأهلـه، وتدبّرهم لآياته، والعيش في ظِلالـه، ومباشرتهـم الدعـوة إلى الله تعـالى عـلى ضوئه، وعملهـم بأحكامه، وإظهارهم لقيمه الإيمانية والتربوية والعلمية الحضارية.**

فـكان ﷺ كـما حـدَّث الإمـام الجـدّ عـلي بـن أبي طالـب رضي الله عنـه: « **لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنابة** »[1].

وكان السّـابقون رحمـة الله عليهـم عـلى أثـره ، ومـن أشـدّ الناس تمسّـكاً بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ ، وفي الوقت نفسه من أشدّهم على المُدَّعين، وكان فهمهم ينبع من عظمة هذا الدين، واختيار الله تعالى لهم في حمل رسـالته إلى النّاس كافة، وتحمّل أعباء تأسـيس دولة الإسـلام الخاتم؛ فرسـول الله ﷺ إنّما أُرسـل إلى الناس كافة بشـيراً ونذيـراً وداعياً إلى الله بإذنـه وسراجاً منيراً ،

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده ١/ ٤٣٦، برقم (٥٩٧). وهذا ما عليه جمهور العلماء. ينظر شرح الزرقاني ١/ ٣٥٦ .

ولا شك أن الصّالحين من أمته، والرّاسخين بما جاء به عن الله تعالى من تعاليم وقيم إيمانية وخُلُقيّة إنّما هم شُعع عنه ﷺ إلى سائر الخليقة، ويمكنك أن تلحظ هـذا المعنى من خلال قوله تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..﴾ (١)، وبهـذا الفضـل لأُمّة الرّسـول الخاتم ﷺ، وكونها الحكم على الناس، ولاسـيما في إرساله تعالى للرّسـل، وإنزالـه الكتب وما فيها من الهداية والنور والحكمة ، والشـهادة على سـائر الأمـم الأخـرى في إقامة حجج الله تعـالى عليهم إلى يـوم القيامة ؛ تظهر مكانتها الحقيقية بين الأُمم، وهو فضل سارٍ فيها إلى يوم الدين.

ولا شـك أنّ تحكيم أمة الرسـالة الخاتمة ، وجَرأتهـا في البلاغ والمراقبة هـو سـيرٌ في قضـاء الله، وتمكـينٌ لسـنته، وأنَّ إقامـة مـا أراده الله تعالى من الحجـج والبراهـين على غيرها إنما سـيكونُ من خلالهـا ، وأنّ معرفة ذلك كلّه ، يرجع إلى فهم صحيح وعميق للقرآن الكريم – رسالة الله الخالدة –، ووضـوح قواعده ؛ فهو الميثاق الذي أضاء للبشرية طريقها ، والحَكَم على سائر أقوالها وأفعالها، والقاضي بما لها وما عليها .

ولا شـك أنّ أعـرف النـاس بالله تعـالى أعرفهم بمضامـين كلامه، وأهل المعرفـة بالله سـبحانه هم أهـل القـرآن، وهم أهل لمحبـة الله تعـالى، والتقرّب إليـه، والقرب منه، بما فهموه من كلام الله تعالى، وأيقنته قلوبهم من الحق؛ فقد جـاء عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه، أنّـه كان يقول:« **مَنْ كان يحبّ أن يعلـم أنَّه يُحِبُّ الله عزَّ وجلَّ فليعرِض نَفْسَـه على القـرآن، فإنَّما القرآن كلام الله**

(١) سورة البقرة ، من الآية ١٤٣.

عزَّ وجلَّ، فمَنْ أحبَّ القرآن فهو يُحِبّ الله عزَّ وجلَّ... لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله ﷺ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله »[1]، وبهذا يبيّن رضي الله عنه أن أهم شيء في منهج الحياة أن تعرض عملك على شرع الله تعالى، وتجعل القرآن حَكَماً على أقوالك وأفعالك وأحوالك وميزاناً في الحق والخير؛ ليسلم لك دينك، وتسلم نفسك، ويسلم منك الناس، وتنجو وأهلك من عذاب الله تعالى وعقابه ووعيده.

وقد جاء في الأثر عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أنّه قال : إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكَرهاً [2]. وسُئل رويم بن أحمد (ت٣٠٣هـ) رحمه الله تعالى عن أوّل فرض فرضه الله عزّ وجلّ على خلقه، فقال:« المعرفة، لقوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3].

وأهل القرآن – أهل المعرفة – هم أولى الناس بالتسليم لله تعالى، والرّضا

---

(١) أخرجه ابن سمعون في أماليه ١/ ٣٨، برقم(١٧١) .

(٢) ينظر تفسير الطبري ٢٢/ ٤٤٤. وفي روح المعاني للآلوسي ١٥/ ٥٠ : أنّ ابن عباس رضي الله عنهما قال: إلا ليعرفون .وفي الأسباب والمسببات ، ووسائل الإعانة على الطاعات جاء في طبقات السلمي، ص ٧٠: « أنّ أبا يزيد البسطامي يرحمه الله سُئل: بماذا يُستعان على العبادة ؟ قال: بالله ! إن كنتَ تَعرِفُه ».

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦. والظاهر أنّه قد أفاد من ابن عباس رضي الله عنهما هذه المقولة، وقال رويم أيضاً: ما نجا مَنْ نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سورة الزمر، الآية ٦١.

عنـه، يقول الفضيل بـن عياض رحمة الله عليه: « أحق النـاس بالرضا عن الله، أهل المعرفة بالله عزّ وجل »[1].

ويقـول أبو بكر الحسـين بن علي ابن يزدانيار يرحمـه الله في بيانه لمعنى هذه المعرفـة: « المعرفةُ صحَّة العلـم بالله، واليقينُ بالنظر بعين القلب إلى ما عند الله تعالى، مما وعده وادَّخره.. المعرفةُ تحققُ القلب بوحدانية الله تعالى »[2].

ويقـول أبو الحسـين محمد بن سـعد الورّاق النيسـابوري رحمـة الله عليه: « أنفـعُ العلـم العلمُ بأمـر الله ونهْيه، ووعـده ووعيده، وثوابـه وعقابه. وأعلى العلوم العلمُ بالله وصفاته وأسـمائه »، ولاشـك أنّ كتاب الله تعالى فيه جوامع هذه العلوم، وأنّ الوقوف على معانيه وفهم حكمته من الأعمال التي تنتهي إلى أرقى الفهوم، وأن كلّ علم متعلق به من حيث التوضيح والبيان، وكان مرجع ثمرته القرآن، وكذلك تراث المسـلمين ونتاجهم المنضبط وما يُعدّ ثمرة لمعرفة القرآن وما فيه؛ فإنّ نتيجته المعرفة التي بها تتحقق السعادة والنجاح والفلاح.

وعـلى المسـلم أن يخضع للحـق، وينقاد له، ويقبَله مـن كل طريق صحيح وصل به إليه، وكذلك ممّن سمعه منه إذا كان فيه ما يوصل إلى معرفة الله تعالى. وكان وفق شروط النقل والسماع المعتبرة عند أمّة الإسلام الخاتمة.

---

(١) طبقات السلمي ، ص ١٠ .

(٢) المصدر السـابق ، ص ٤٠٩ . وقد جاء في الأثر – كما في الرسـالة ، ص ٢٦٧ – : أن الإمام الجـد جعفر الصادق رحمة الله عليه سُـئل: مـا بالنا ندعو فلا يُسـتجاب لنا ؟! فقال: « لأنّكـم تدعـون مَنْ لا تعرفونه » ؛ وهو بذلك يحثّهم عـلى معرفة الله تعالى ، وتحقيق وحدانيته وحُسن التوكل عليه في القلب ،وظهور آثار ذلك في السلوك والعمل.

والملاحظ من سِير الأوّلين رضي الله عنهم أنهم جعلوا انطلاقتهم في طريق معرفة الله تعالى قائمة على المعرفة بأصول الدين المعتمدة، المبيِّنة لأحكام الله تعالى، والمبنيّة على رسالته الخالدة – القرآن الكريم– ؛ فتعاملوا مع القرآن منهجاً للحياة؛ منه العلم، وإليه المحتكم في القول والعمل، وبه السمو، وفيه الرّقي إلى الدرجات العليا التي استحثّ الله تعالى عباده على الرغبة فيها، وطلبها والتسابق في نيلها ، ومن ذلك ما جاء في سيرة أبي الدرداء، عويمر الأنصاري (ت٣٢هـ) رضي الله عنه[1]، وحرصه على إتقان التعليم لآيات القرآن الكريم، والتزامه التدقيق، وتقسيمه المعلمين إلى مجموعات منتظمة، وحلْقات منظّمة في التلقي؛ فكان رضي الله عنه إذا صلى الغداة في جامع دمشق – إذ كان قاضياً فيها – اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كلّ عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك. وقد أوعز إلى أحد طلابه وهو مسلم بن مِشكَم ، بأن يعدّ له مَنْ يقرأ عنده القرآن في حلْقاته، يقول مسلم : « فعددتهم ألفاً وست مئة ونيفاً، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، فإذا أحكم الرجل منهم تحوّل إلى أبي الدرداء رضي الله عنه ».

وفي طبيعة ما كانوا عليه من مناهج التلقي للقرآن ، والتفقه في آياته، والتعامل مع ألفاظه ومعانيه وأحكامه ولطائفه، يقول أبو عبد الرحمن السُّلمي (ت٧٤ هـ) رحمة الله عليه: « إنّا أخذنا القرآن عن قوم – كعثمان وعلي

(١) تنظر طبقات ابن سعد ٣/ ٣٩١-٣٩٣ ، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥-٣٥٣ ، ومعرفة القراء الكبار للذهبي ١/ ٤٠-٤٢، برقم (٧) ، والاستيعاب ٣/ ١٥-١٨ .

وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين- أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يُجاوزوهنّ إلى العشر الأُخر، حتى يعلموا ما فيهنّ، فكنّا نتعلّم القرآن والعمل بـه، وإنّه سـيرث القـرآن بعدنا قوم يشربونـه شرب الماء لا يُجـاوز تراقيهم، بل لا يُجاوز هاهنا، ووضع يده على حلقه».

وكان أبو عبد الرحمن رحمه الله في عهده قد فضّل تعليم النّاس القرآن خمس آيـات خمس آيـات؛ فانظر يا رعاك الله إلى الفارق في الكمّ والنوع والأسـلوب والمنهج، وتغيّره مع اختلاف الزّمان، واتساع الأمصار، وقلّة الإدراك الشائعة في الناس، وإلى دقّة التحري في الأساتذة، وعظيم حرصهم على إتقان تلامذتهم فهم النّص الكريم، وتمكّنهم من تطبيقه، والعمل بمقتضاه، وإن طالت مرحلة تعلّمه وتعليمه، فالمهم عندهم أن لا يكون الجيل ممن يشرب لفظ القرآن كشرب الماء وليس لهم منه إلا اللفظ وضبطه، دون المعنى والعمل والأثر والسلوك.

وكذلك يظهر سلوك السَّابقين في التعامل مع القرآن وأثره فيهم من خلال تكـرار مراجعته، ومعاودة قراءته على المختصّـين بالإقراء ومعرفة المعاني، وأنّ ذلـك من سـنّة الأوّلين في الأمة؛ فمنذ عهد نزول القـرآن الكريم ابتدأ جبريل عليه السلام بعرضه على رسول الله الخاتم سيدنا محمد ﷺ، حتى تبادلا عرضه عـلى بعضهما بعضاً أكثر من مرّة في سـنة وفاته ﷺ، ودرجـت آلية التعامل مع القرآن بمثل هذا الأسـلوب سنّة في الأمة لإتقانه وتثبيت معانيه، ودرج الناس عـلى ذلـك منذ عهـد الصحابة إلى يومنا، وسـتبقى هذه السُّـنَّة إلى أن يرث الله الأرض ومَـن عليها، تصديقاً لما قاله الحق تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

ومـن الإشراقـات التاريخية في تعامـل الأمة مع القرآن، وسـعي رجالها في طلب أثره، ومعايشـة آثاره، والاسـتنارة بأنواره ما جاء في سـيرة الإمام المقرئ المفسِّر مجاهـد بن جـبر (ت١٠٣هـ) رحمـة الله عليه ، أنّـه قرأ القـرآن على ابن عبـاس رضي الله عنـه ثلاثـين مـرّة. ومما صحّ عنـه أنّه قال : « عرضـت القرآن على ابن عباس ، ثلاث عرضات، أقِفه عند كل آية، أسـأله فيم نزلت؟ وكيف كانـت ؟ »[1]، ولّـما صَدَق ابـن جبر في تلقيه القرآن وعلومه، وصبر على شـدّة ذلـك؛ شـهدت الأمّة له بأنـه رحمـة الله عليـه كان ممن يـريـد بعلمه وجه الله تعالى ، فليُتنبّه إلى الغاية من القراءة التي نبّه إليها السَّـلف في سـلوكهم، إذ لابد من معرفة أسـباب نـزول الآية ، والأحـكام المتعلّقة بها، مع تعلّـم كيفية قراءة آيـات القـرآن الكريـم وضبطها، واختيار مَـنْ يؤخذ ذلك عنه مـن أهل العلم والخبرة ، دون أهـل الادعـاء والمنّ والغلّ والشهرة.

ولا شـكّ أن أهـل القـرآن هـم أهـل الإخـلاص لله تعـالى، والمعرفـة بالضرورات وعلاجات المراحل الحياتية والإيمانية التي يعيشونها، ويعيشها أبنـاء الأمـة، وهـم أصحـاب الإقدام عـلى نفع أنفسـهم والنـاس بخيرات

---

(١) وقد وفّق بين الروايتين الشيخ الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨، (المفسرون مـن التابعين) ، حيث قـال: « ولا تعارض بين هاتـين الروايتين ، فالإخبار بالقليـل لا ينـافي الإخبـار بالكثير، ويُحتمـل أنّ عرضه القرآن على ابـن عباس ثلاثين مرّة كان طلباً لضبطه، وتجويده وحُسن أدائه. وأمّا عرضه إيّاه ثلاث مرّات فكان طلباً لتفسيره، ومعرفة أسراره، وحِكَمِه وأحكامه، كما يدّل عليه قوله: أقف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أُنزلت؟ وكيف أُنزلت؟ ».

القرآن ومعارفه ، والانتفاع ممن تظهر عليهم بركات العلم وأنواره في سائر الأمصار ، يقول الحسن البصري (ت ١١٠هـ) رحمة الله عليه: « إن مَنْ كان قبلكم رآها – أي آيات القرآن الكريم– رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار »[١].

وكذلك فإنّهم جعلوا هدي الرّسول الخاتم ﷺ منار هديهم، فهو الذي يصحّح مسار فهمهم لأوامر الله جلّ شأنه، ويوضّح متطلبات طاعته عزّ وجل؛ ممتثلين لقول الحق جلّ جلاله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[٢]، وموقنين بآثار قوله تبارك اسمه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٣].

يقول أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجيّ (ت٣٤٨هـ) يرحمه الله تعالى: « كان النّاس – في الجاهلية – يتّبعون ما تستحسنه عقولُهم وطبائعهم، فجاء النبي ﷺ فردَّهم إلى الشريعة والاتباع؛ فالعقل الصحيح، هو الذي يستحسِن محاسن الشريعة، ويستقبح ما تستقبحه »[٤]. واعتمد السّلف

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ١/ ٣٨ ، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي).

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٣) سورة النساء، الآية ١٧٠ .

(٤) طبقات السّلمي، ص ٤٣٣، وتنظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٦ .

رحمهم الله تعالى على هذين الأصليْن - الكتاب والسنة- مع التعقل والتفكّر في خوض غمار الحياة، والحرص على تخطّي صعابها، وعبور اختبارها بكل نجاح، واستنبطوا ما يليق بفهم الكتاب والسنة ليؤسسوا القواعد التي تبيّن للناس على اختلاف مداركهم، وتنوّع ألوانهم ورسومهم وانتماءاتهم ما المراد بشريعة الله تعالى، وكيف يصل العبد إلى ربه، وصول المتقرّب المتبتّل المنيب، وكان الإمام الحسين ابن عبد الله بن بكر الصُّبَيْحِيّ يرحمه الله تعالى، يُسأل عن أصول الدين، فيجيب: « إثبات صِدْق الافتقار إلى الله تعالى، وحُسْن الاقتداء برسول الله ﷺ. أمّا فروعه فأربعة أشياء: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود »[1].

واتسعت دائرة الفهم لكتاب الله تعالى ومضامينه لتشمل علوماً كثيرة، ومعارف عديدة، كلّها لو أمعن الناظر فيها والمتأمل بأُسُسِها لأعادها إلى كتاب الله تعالى وهدي رسوله ﷺ، ونتاج فهمها مما تناقله العلماء، وتوصل إلى فهمه الإدراك السليم، وهذه السّعة، وهذا التيسير مبني على أساس ما رخّصه الله تعالى للأمة الخاتمة؛ فهو سبحانه الذي يسّر القرآن للفهم والتلاوة والاستنباط، وبهذا الفتح والتيسير استطاع عقلاء الأمة أن يفقهوا دروس الوحي المتلاحقة في بناء مجتمعهم الحضاري، وكما قال مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) رحمة الله عليه: « لولا أنّ اللهَ تعالى يسَّره ما استطاع أحدٌ

(١) طبقات السّلمي، ص ٣٣٠ ، وطبقات ابن الملقن ١/ ٥٦، (فصل في طبقات أخرى).

أن يتكلَّم بكلام الرحمن »[1]، وهذا التيسير يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[3]، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[4].

ولو تأمل المتأمل بأحوال السَّابقين الأولين رضي الله عنهم في ضوء هذا الفهم لوقف على حقيقة ما وقفوا عليه: السعي من أجل معرفة الله تعالى والاكتفاء به ؛ يقول محمد بن الفضل البلخي (ت ٣١٩ هـ) رحمه الله ؛ بعد قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[5]: « مَنْ عرَفَ الله اكتفى به »[6].

وتتضح إشراقات تعامل الأمة مع القرآن من خلال:

---

(١) مقدمة فضائل القرآن وتلاوته، للرازي ، ص ٤٥ ، وأشار محققه الدكتور عامر حسن صبري أنّه رواه ابن أبي حاتم في التفسير عن ابن عباس، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٦٧٦ ، وذكره البيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٣٩٩ . هذا.. وباعتبار أن مقاتل أبدى في ذلك رأياً فرأيه هنا صحيح، لاسيما وأنّه لم يرفعه كحديث مروي ؛ لما لأهل العلم من ملاحظات على رواياته.ينظر سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٠٢، والتهذيب ١٠/ ٢٧٩ .

(٢) سورة القمر، الآية ١٧ .

(٣) سورة مريم، الآية ٩٧ .

(٤) سورة الدخان، الآية ٥٨ .

(٥) سورة فصّلت، الآية ٥٣ .

(٦) طبقات السلمي، ٢١٥ ، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٢-٢٣٣ ، وصفة الصفوة ٤/ ١٣٨ ، وشذرات الذهب ٢/ ٢٨٢ ، ومرآة الجنان ٢/ ٢٧٨ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٢٥-٥٢٤ .

أ) التمسك بكتاب الله تعالى ، والتزامه قراءة وتعهّداً، مع استحضار كامل هيبته، واستثارة الخشوع في كوامن الذات المتعاملة مع ألفاظه ومعانيه:

كان قِـوام منهج السّـابقين في صدر هذه الأُمّة الالتـزام بكتاب الله تعالى، والحـثّ على التمسّـك بـه، والرَّاحـة مع الله تعـالى؛ يقول أبو الحسـين علي ابن هنـد، يرحمه الله: « المُتَمَسِّـكُ بكتاب الله عز وجـل هو الملاحظ للحق على دوام الأوقات، والمتمسِّكُ بكتاب الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ من أمور دينه ودنياه، بل يجري – في أوقاته – على المشاهدة، لا على الغفلة؛ يأخذ الأشياء من معدنها، ويضعها في معدنها.. ». وقال: « اسـتَرِحْ مع الله، ولا تسـتَرِحْ عن الله ؛ فإنَّ مَنْ اسـتراح مع الله نجا، ومَنْ اسـتراح عن الله هلكَ، والاسـتراحة مـع الله تُروِّح القلب بذكره، والاستراحة عن الله مُداومةُ الغفلة » [1].

والأئمـة السـابقون يرحمهم الله تعـالى إنما هم على أثـر النبي الخاتم ﷺ في تـلاوة وفهـم ما أنزلـه الله تعالى عليـه ﷺ، وتزكية أنفسـهم والنـاس في ضوء منهجـه ﷺ، وتعليمهم آيات الله تعالى وحُكمها وحكمتها في ضوء هديه ﷺ،

(١) طبقـات السـلمي ، ص ٣٩٩. وحليـة الأوليـاء ١٠/ ٣٦٢ . وقد بيّن الإمام السـيوطي (ت ٩١١ هـ) رحمة الله عليـه في كتابه الإتقان، كيفية التعامل مـع آيات القرآن الكريم بالتدبّر، والتفكر في المبنى والمعنى، ووسائل تحصيل ذلك أثناء التلاوة، فقال: « وتسنّ القـراءة بالتدبر والتفهـم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهـم، به تنشرح الصدور وتستنير القلوب..، وصفة ذلك أن يشغل- القارئ – قلبه بالتفكير في معنى ما يتلفظ به فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان قصر عنـه فيـما مضى اعتذر واسـتغفر، وإذا مرَّ بآية رحمة اسـتبشر وسـأل، أو عذاب أشـفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب ».

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[1]، ولا شك أن فضل الله تعالى ونعمه لا تعدّ ولا تحصى، يمنح مَنْ شاء ما يشاء متى شاء؛ فسبحان الله رب العرش العظيم ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٞ ﴾[2]، وتتضح عظمة وسعة مكارمه تبارك اسمه فيقول: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3]، ويقول: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[4]، وفي تحقيق عفوه عزّ وجلّ المدبّج برحمته وابتغاء فضله، يقول الحق تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥١.

(٢) سورة النور، الآية ١٠.

(٣) سورة النور، الآية ١٤.

(٤) سورة النور، الآية ٢١.

(٥) سورة المزّمل، الآية ٢٠.

وجاء في الأثر عن أبي موسى الأشعري (ت٥٠ هـ، وقيل بعدها) رضي الله عنه، أنّه كان يعامل نفسه بهذا الميزان، فيقول في رعايته للصلة بينه وبين الله تعالى من خلال النظر والتدبّر في القرآن الكريم: « إني لأستحي ألّا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة »[1]، وهو بلا شك يعني النظر في القرآن، نظر القراءة والتدبّر والتفكّر، ومحاسبة النفس على ضوء ما جاء فيه؛ مع أنّ الله تعالى قد أكرمه بدعاء النبي ﷺ له بالمغفرة وعلو الدرجة والمكانة في الأمة، وأن يُدخله مدخلاً كريماً، وثنائه ﷺ عليه، وإعجابه بما سمع من قراءته .

ومما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: « أديموا النظر في المصحف »[2].

ومما سجّلته صفحات التاريخ المشرق لهذه الأمة في التعامل مع القرآن الكريم كثرة المشتغلين بالقرآن تعلّماً وتعليماً، وتوضيحاً لمعانيه، وإظهاراً لفضائله، وحِكَمِه ؛ فمن هؤلاء الإمام القارئ العابد يحيى بن وثّاب الأسدي (ت١٠٣ هـ) رحمة الله عليه[3]، إذ كان يفهم كتاب الله تعالى حق فهمه، ويعيش في ظلال آياته ومعانيه وأحكامه، ويحوّل فهمه وإجادة استنطاقه لمعانيه إلى منظومة متكاملة في التعامل مع النَّفس والخَلْق؛ فمما جاء في الأثر في تعامله

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي ١/ ٢٨، ومن حرمته ألا يخلي يوماً من أيامه من النظر في المصحف مرة. وقد روى البخاري في الصحيح في المغازي برقم (٤٠٦٨) دعاء النبي ﷺ له بذلك كله .

(٢) رواه الفريابي في فضائل القرآن ، ص ٢٢٩، باب النظر في المصحف، برقم (١٥٠)، وابن أبي شيبة في فضائل القرآن ١٠/ ٥٣٠، برقم (١٠٢٢٥).

(٣) ينظر طبقات ابن سعد ٦/ ٢٩٩، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٦٢- ٦٥، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٣٧٩-٣٨٢، ومرآة الجنان ١/ ٢١٤، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٠ .

مع نفسه، وإعماله لآثار القرآن الكريم فيها ، وتصحيح قربه من ربّه، أنّه من أحسن الناس قراءة لكتاب الله تعالى، وكان يتعلّم آية آية، وإذا قرأ في الصلاة لم يحسّ أحد في المسجد حركة ، كأن ليس بالمسجد أحد، وإذا قضى الصلاة مكث ما شاء الله، تُعرف فيه آثار الصلاة والصلة بالله تعالى؛ إذ لا يمكنه أن يتخلّص من حال ما تلبّس به أثناء الصلاة من الخشوع والانفعال في مواقف ذكر العذاب وأسبابه ومظاهر نزوله، والعقاب واستحقاقه، والرهبة وأسبابها وآثارها، وقرب لقائه تعالى والشوق إليه، وخوف الخاتمة، وحُسن الظن بالله الرحمن الرحيم .

أمّا سلوكه العام فقد كان لا يقبل الذلّ لنفسه ، لكونه من حملة القرآن ورعاة أهله، ومن أهل الإيمان ودعاة الإسلام، وهو ما يعلّمه للأجيال من بعده؛ فما ينبغي للمؤمن أن يُذلّ نفْسه فيتحمّل من البلاء ما لا يُطيق، وقد جاء في الأثر: « أنّ الحجاج أمير العراق ، لّما رأى انتشار غير العرب في بلاد العرب، وظهور الخطأ في ألفاظ العامّة ، أصدر أمراً : أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي ، وكان ابن وثّاب مولى لبني سعد مع كونه تابعياً جليل القدر ثقة، وليس في الكوفة أقرأ منه، فقال له قومه : اعتزل !، وباشر يحيى برفع مظلمته إلى الحجاج ، فقال الحجاج : مَنْ هذا ؟، قالوا : يحيى بن وثّاب، قال: ما لَهُ ؟، قالوا: أمرتَ أن لا يؤم الناس إلا عربي، فنحّاه قومه!، فقال : ليس عن مثل هذا نهيت – لما يعرف من فضله وعلمه وشغله بالقرآن– ؛ فأعاده ، وصلى بالناس يحيى ليوم واحد ، ثمّ قال لقومه: اطلبوا إماماً غيري!، إنّما أردتُ أن لا تستذلوني ، فإذا صار الأمر إليّ ، فأنا لا أؤمّكم ! » وليس أبلغ من هذا الموقف، ولا أعظم من هذه الصفحات عزاً يسطّرها التاريخ لتبيّن سلوكهم رحمة الله عليهم، وهم

يحفظون العزّة لأهل القرآن، ويعلمونها للأجيال اللاحقة بركبهم ، وإن تعددت أعراقهم، واختلفت مراحلهم الزمنية، وتنوّعت مستوياتهم الاجتماعية؛ فإنما أعملوا ثقتهم بالله تعالى ، وعلموا أن الناس تحتاج إلى سياسة تناسب عقولهم وعصورهم ومكانتهم، ولا شك أن الرشيد من اقتفى أثر أولئك القادة ، وبادر ليكون على هديهم في العزّة والثقة بالنفس بعد الثقة بالله عزّ وجل وحُسن الاتباع لرسوله ﷺ، وأن يتعلّم أنّ القرآن وحملته لفظاً ومعنى فوق المقاييس مهما تنكّر الناس لهم أو اختلّ نظام التعامل معهم ، ولاشك أنّ السّعيد مَنْ حرص على ختم حياته بالحُسنى ، وضَبَط سلوكه العام والخاص على ما كانوا عليه من الهدى والالتزام بتعاليم الشريعة، وأن هذه السمات لازمت الأجيال المتفاعلة مع القرآن الكريم، وستبقى في هدير دائم وإن اختلفت طبقاتها، وتعددت مسمياتها، وتحوّلت بعض مفاهيم حياتها في عصرنا ، أو تنوّعت مناهجها في التعامل مع القرآن، وسبلها في الإفادة منه ومن أثره فيها، وآثارها الظاهرة على المجتمع والأمة، ولكنها من حيث العموم مثّلت سمة الجيل الملازم للأئمة ؛ المحيط بما كانوا عليه رحمة الله عليهم، وصفحاتهم ستبقى صفحات مشرقة في تاريخ الأمة.

ولشدّة حرص السابقين على الانتفاع والنفع كانوا لا يترددون في السؤال عن العلم، والسعي الحثيث في البحث عن المعرفة، وعن أسرع الطرق قربة لله عزّ وجلّ، وأوثقها صلة به تعالى؛ فقد سُئل أبو عمرو الزجاجيّ رحمه الله: كيف الطريق إلى الله تعالى؟، فقال للسائل المتشوّق : « أَبْشِرْ!

فشوقُك إليه أزعجك لطلب دليل يدلُّك عليه »[1]، فهم بلا شك يعالجون الوجدان وتبعاته كعلاج السلوك الظاهر وآثاره على الأبدان ؛ لما معهم من فضل كرامة علم القرآن وفهمه ونوره.

وفي التمسك بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، والعلم والعمل بهما، وحُسن الأدب، والصبر على المحن والأثرة؛ اكتملت هوية السابقين يرحمهم الله تعالى، وتزوّدوا بعُدّة مواجهة العالم النافر من الحق، وتمكّنوا من نشر الدين، والظهور بأسمى رتب الفضيلة والقيادة الناجحة للمنظومة البشرية على مدى عقود، وتغنّت الأجيال بهم، وتفاعلت مع آثارهم، وجعلتها مناهج نظرية وتجريبية، وقواعد تأصيلية لتحقيق الفلاح ، وسبلاً قويمة في الوصول إلى مرضاة الله تعالى ونعيم قربه، ولا شك أنّ بها تتجدد الشخصية المسلمة في كل عصر ومصر، ويتنوّر سبيلها في الوصول إلى معرفة الله تعالى، يقول محمد بن الفضل البلخي (ت٣١٩هـ) رحمة الله عليه: « العلوم ثلاثة: علمٌ بالله، وعلمٌ من الله، وعلمٌ مع الله ؛ فالعلم بالله تعالى، معرفة صفاته ونُعوته ؛ والعلم من الله تعالى، علم الظاهر والباطن، والحلال والحرام، والأمر والنهي في الأحكام؛ والعلم مع الله تعالى، علم الخوف والرجاء، والمحبّة والشوق »[2].

---

(١) طبقات السلمي ، ص ٤٣٣، وتنظر سيرته في حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٦، والمنتظم ٦/ ٣٩١ .

(٢) طبقات السلمي ، ص ٢١٥، وينظر المنتظم ٦/ ٢٣٩، ونتائج الأفكار القدسية ١/ ١٥٥-١٥٧ .

ب) انبثاق المدارس لتعليم القرآن الكريم ، وحُسن تفهيمه :

لاشك أنّ من آثار القرآن الكريم في تنظيم سلوك الأمة انبعاث هذه الإشراقات، وورودها في تاريخ تعامل الأمة مع رسالة الله الخاتمة – القرآن الكريم– إذ توسَّع نفوذ الأُمّة بعد عهد النبوة ميدانياً وحضارياً وفكرياً، وشملت هذه التوسعة أسلوبها في التعامل مع القرآن الكريم وفهمه ، بناءً على متطلّبات أبنائها، وتطور مراحل بنائها، ومستجدات واقعها في التعايش مع غيرها ؛ فسلكت مناهج عدّة في فهم النصوص القرآنية الكريمة لم تَحِدْ في أصلها عن المنهج النبوي في التعامل مع النصوص؛ من حيث الفهم والتقريب للمعنى، وجمع الآيات ذات الموضوع الواحد في دائرة فهم واحد، وكذا في التعامل معها في ضوء مناسبتها، وفتح الآفاق أمام تجدد حلّها لمشكلات تشابه ما عالجته في عصرها، وهذه الاجتهادات هي في غالبها مستندة على تلك المرحلة ؛ مرحلة التنزيل، وظهور التحليل لِما أشكل على بعض الأولين، كالذي تولاه رسول الإسلام الخاتم ﷺ بالشرح والتوضيح.

ودرجت الأمة على معرفة مناهج الفهم والتفسير، وبيان معاني آيات القرآن الكريم، من خلال فقهها بالمسيرة الحافلة في التقديم والإنجاز لعلمائها، ولا سيما علماء الشريعة ؛ وابتدأ ذلك منذ الفهم الأول للصحابة في عصر النبي ﷺ إلى أن استقرّت المفاهيم في انبثاق المناهج المحررة أو المقررة، وتأسيس المدارس، أو ظهور آثارهما في العالمين العربي والإسلامي[1]، **ومن هذه المدارس**

---

(١) ينظر الإتقان ، للسيوطي٢/ ١٢٢٧–١٢٣٥، والتفسير والمفسرون، للذهبي ١/ ١٠١–١١٥ . وتعريف الدارسين بمناهج المفسرين، للخالدي، ص٣٥– ٤٧ .

ذات الفهم المتميّز:

- **مدرسة التفسير بمكة المكرّمة**، والتي تأسست على يد ابن عباس رضي الله عنهما ، وتبعه تلاميذه: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وطاووس ابن كيسان، وعطاء بن أبي رباح، وجابر الأزدي وغيرهم ، رحمة الله عليهم أجمعين.

- **ومدرسة المدينة النبوية المنوَّرة**، وقد أسَّسها الصحابي الجليل أُبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه، ولحقه فيها أبو العالية رفيع الرياحي، ومحمد القرظي، وسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم وغيرهم ، رحمة الله عليهم أجمعين.

- **ومدرسة الكوفة** ؛ وقد أسسها الصحابي المفسِّر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولحقه في إقامة دعائمها علقمة النخعي، ومسروق الأجدع، وابن حُبيش، وأبو عبد الرحمن ابن حبيب السلمي، والأسود النخعي، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة السدوسي، وعبيد السلماني وغيرهم، رحمة الله عليهم أجمعين[1].

---

(١) ينظر التفسير والمفسرون، للذهبي ١/ ١١٨-١٢٧ . وتعريف الدارسين بمناهج المفسرين، للخالدي، ص٣٧ .

ت) تنوّع المناهج في فهم القرآن والتعامل معه:

اتسمتْ مراحل التأسيس بالإيجاز في إبداء معاني الآيات أو تفسير بعض مفرداتها ، في ضوء الحاجة إلى ذلك، فنهج السّابقون أسلوب التفسير بالمأثور المُعتمِد على تفسير الصحابة المستمد من أقوال الرسول الخاتم ﷺ وأفعاله وأحواله في فهم النصوص، وتطبيقها عملياً، ثم ما جاء عن صحابته رضي الله عنهم وتلامذتهم من التابعين، ثم ما أُثر في لغة العرب وأشعارهم مما يشرح بعض الاستعمالات في تعبير النص القرآني الكريم، ثم بما يتوصّل إليه – بعد معرفة المأثور وبيان ما في لغة العرب – من استنباطات وتأويلات مقبولة وفق المعايير العامة لدى المفسرين، وعلى هذا تطوّرت المدارس في الفهم، والتعامل مع الآثار، ولم تترك سبيل المؤسسين السابقين في فهم القرآن واستظهاره، وتعليم معانيه؛ بل كان الهدي في العلاقة مع النص القرآني فهماً وتدبّراً وتطبيقاً: أن يرجع المفسِّر إلى القرآن الكريم في بيانه لمعنى الآية؛ فإن وجد بغيته بالآيات الأخرى من خلال موضوعها ومعناها استند واكتفى، وإلا عاد إلى السنّة النبوية الصحيحة فإنّها الشارحة للقرآن، والموضّحة له؛ فقد قال ﷺ: « **ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثلَه معه** »[1].

ثم يلجأ إلى أقوال الصحابة – إن لم يقف على حديث معتمد من السنة الشريفة ينفعه في بابه – ؛ فإنّهم أدرى بالمعاني لِمَا شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولِمَا لهم من الفهم التّام والعلم الصحيح بالمعاني

(١) أخرجه أبو داود في سننه (برقم ٤٦٠٤)، وغيره، وهو صحيح.

القرآنية، فيعتمد على ما صحّ منها وما كان موافقاً لظاهر القرآن؛ فإن لم يتمكّن من بُغيته تحوّل إلى صحيح ما جاء عن التابعين؛ لأنّهم تتلمذوا على كبار الصحابة في التفسير.

ويستند إلى اللغة العربية لمعرفة بلاغة النصوص، ومعاني الكلمات، والاشتقاقات والتصريفات ليُحْسِن فهم القرآن وتفسيره، وكما قال الإمام مالك (ت١٧٩هـ) رحمة الله عليه: « لا أُوتى برجل غيرِ عالمٍ بلغة العرب يُفَسِّر كتاب الله، إلا جعلْتُهُ نَكالاً »[1].

ومع العلم بما تقدّم، والتطبيق له، واستحضارهما يمكن للفرد أن يُعمِل عقله وفكره الاستنباطي في فهم النصوص، والوصول إلى أقرب معنى يراد بها، أو يتضح له منها، وهذا ما انتهجته الأُمّة في التعامل مع القرآن الكريم، وما جاء في هذا الكتاب من صفحات مشرقة، وكلمات منوّرة من أقوال رجالها وتعاملهم ومناهجهم، وإرشاداتهم، وحثّهم الأجيال المسلمة على التربية للأرواح، والتزكية للنفوس، والمراقبة للأعمال والأقوال والأحوال، وتوعيتهم بالمعرفة المبنيّة على الفهم والتطبيق الصحيح لكتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ؛ فيه من كل ما تقدّم التنبيه عليه من مناهجهم ومدارسهم في التعامل مع النص القرآني الكريم ، قراءة وفهماً وعملاً[2].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٢٥، برقم (٢٢٨٧)، فصل في ترك التفسير بالظن، وذكره السيوطي في الإتقان ٤/ ٢٠٩، برقم (٦٣٠٣) ، فصل في أمهات مآخذ التفسير.

(٢) تنظر مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق عدنان زرزور، ص ٩٣-٩٥. هذا.. ومما تجدر الإشارة إليه هنا : أن الإمام السيوطي في الإتقان ٢/ ١٢١٢ تحدّث =

وممّـا لا شـك فيه أن دين الإسـلام أتاح لجميع أهل العلم من المسـلمين وغيرهـم حرية الحركـة الذهنية، والتأملية، والاسـتنباطية، بناءً على توجيهات القـرآن الكريـم ودعواتـه إلى التفكّر والتدبّـر والنظر، وكذلك على مـا أُثر عنه ﷺ من الإقرار لمحاولات الأجيال الأولى من المسلمين في فهم مراد الله تعالى، واجتهاداتهم في تلك المرحلة، ثم على الذخيرة اللغوية، ثمّ على الآثار السلوكية الخُلُقيّة المسـتفادة من منهج سـيِّد البريّة ﷺ في التعامل مع الحق والخلق؛ وبهذا كلّـه تطـوّر البناء، وعَظُـم وتوسّـع معتمداً على الأصـول والثوابـت في العلم والأخلاق والتربية والسـلوك، والتي تستند في تأسيس بنيانها على هدي سيدنا محمد ﷺ، وبما حظيت به من العناية والرعاية والاسـتنباط من أئمة المسـلمين علمائهـم وقادتهم وأمرائهم من بعـده، واحتضنها جمهور الأمة من المسـلمين؛ والمؤمنـين بالقبـول والامتثال، وتنافسـت أجيـال الأمـة في تحقيـق مضامينها،

= عن صفات المفسر وآدابه ، وسمّاها علم الموهبة ، وعرّفه بأنّه علم يورثه الله لمن عملَ بما عَلِم، وقال: (لعلك تستشكل علمَ الموهبة ، وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان! وليـس الأمـر كما ظننـتَ من الإشـكال، وطريقُ تحصيلـه ارتكاب الأسـباب الموجبة له، والعمـل والزهـد. قال في البرهان: اعلم أنّه لا يحصُـل للناظر في فهم معاني الوحي ، ولا تظهر له أسرارهُ، وفي قلبه بدعةٌ أو كِبْـرٌ أو هوى، أو حبّ الدنـيا، أو هو مُصرٌّ على ذنْب، أو غـير متحقـق بالإيـمان، أو ضعيف التحقيـق، أو يعتمد على قول مفـسّر ليس عنده علم، أو راجعٌ إلى معقوله، وهذه كلّها حجبٌ وموانع بعضها آكد من بعض! ، وأضاف السـيوطي – بعـد نقلـه لمقولة الزركـشي في البرهان– قلـت: وفي هذا المعنـى قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (١٤٦) سـورة الأعـراف . قـال سفيان بن عيينة : المعنى: أنزع عنهم فَهْمَ القرآن) .

وتسارعت إلى إنجازها، والإفادة منها في شتى مراحل حياتهم، والتزود من معارفها لآخرتهم .

ث) تهيئة الأجيال وتأهيلها للتعامل مع القرآن الكريم :

نهَجَ علماء الأُمّة رحمة الله عليهم في تهذيب النفوس، وتحقيق معرفة الله تعالى، منهجَ العلم اليقيني بكتاب الله سبحانه ومضامينه، وسنة رسوله ﷺ وشخصه، والفقه في الدين، وبكل ما يوصل إلى الكينونة من أهله، ثم حوّلوا هذا الفهم والعلم إلى تطبيق وعمل بمنهج واضح وسلوك قويم، قال رجل للإمام أبي جعفر القارئ ، يزيد بن القعقاع المدني (ت ١٢٧هـ) رحمة الله عليه، وكان الرجل فقيهاً في دينه: هنيئاً لك ما أتاك من القرآن ، فقال أبو جعفر: « ذاك إذا أحللتُ حلاله، وحرّمتُ حرامه، وعملتُ بما فيه »[1].

فلينظر المسلم في هذه الكلمات المشرقة، كيف تُعلّم المنهج الحقّ في التعامل مع القرآن، وأنّ الإنسان، ولا سيما المسلم إنّما يهنأ بما يُرزق من العمل إذا وافق أوامر الله تعالى، وتجنّب في أسبابه وحيثياته وآثاره ما يغضب الله تعالى عليه، وكذلك إذا جعل مراقبة الله تعالى حاضرة في كل حركة من حركاته بل وحتى في سكونه ، وحوّل هذه المراقبة إلى منهج يلتزم به في سائر معاملاته وعباداته .

وممّا جاء في الأثر أن ابن القعقاع رحمه الله قد أُمر أن يقف خلف القراء في

---

(١) مشاهير علماء الأمصار ص ٧٦، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٧٢-٧٦، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٢-٣٨٤، وشذرات الذهب ١/ ١٧٦ .

رمضان يُلقّنهم، وقد قال فيه مالك ابن أنس (ت ١٧٩ هـ) رحمة الله عليه : كان أبـو جعفر رجـلاً صالحاً يُفتي الناس بالمدينة، وإذا مرَّ سـائل وهو يصلي بالليل دعاه، فيسـتتر منـه، ثمّ يُلقي إليه إزاره. وهذه كلّها من آثار قول الحق سـبحانه وتعـالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [١]، ولم يقف الأمر عند هذا السـلوك، بل كان من منهجه رحمـه الله تعليم الأجيـال اللذّة في مناجاة الله تعالى ، والاسـتلذاذ بخطابه، فقد كان يقرأ القرآن بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه يحزّنها شبَه الرّثاء [٢].

وظهـرت كرامـة القرآن والعيش في ظلال آياتـه ومعانيه في واقع حياة أبي جعفر القارئ رحمة الله عليه وفي وفاته؛ فقد قال شيبة – زوج ابنته – عند وفاته: ألا أُريكـم منه عجباً ، قالوا : بلى ، فكشـف عن صـدره، فإذا دوّارة بيضاء مثل اللبن؛ فقال أبو حازم وأصحابه: هذا والله نور القرآن . قال سليمان بن مسلم : فقالت لي أم ولده بعدما مات : صار ذلك البياض غرّة بين عينيه .

وروى نافـع المـدني، قال: لـمّا غُسّـل أبـو جعفر المدني القـارئ ، نظروا ما بـين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف، فما شـكَّ مَنْ حـضَرَهُ أنّه نور القرآن، رحمـة الله عليـه . وهذا من جلي أثر القرآن الكريـم على القلب والأبدان بعد أن تنعّمـت به الأرواح وفاضت أنواره على الملأ والأوطان، وتناقلته الأجيال على اختلاف المكان والزمان.

وفي ضرورة تعلّم العلم قبل الإقدام على العمل، وسـلوك سـبيل السّابقين

---

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٢) وهذا النوع من القراءة درج عليه أهل العراق إلى يومنا هذا .

في تعاملهم مع القرآن وأصول الشريعة ؛ وحرصهم على التعلّم ، ثم انطلاقهم نحو تطبيق ما تعلموه، وبذل الجهد في الأداء والأداء المتميّز على بصيرة ؛ ليكون ذلك أصدق في حالهم، وأنفع في واقعهم ومَنْ حولهم، ولتتفتق الأذهان بمعاني ما كانوا عليه من الحقائق والطرائق في فهم القرآن وخدمة الإسلام، وليُنتفع بما سجّله التاريخ من صفحات مضيئة في سيرة أولئك الرّجال ، والسَّادة القادة الدعاة ؛ يقول السّريّ (ت٢٥٣هـ) رحمة الله عليه، واصفاً السبيل الصحيح في الوصول إلى النجاة والنجاح في ذلك: « إذا ابتدأ الإنسان بالنُّسُك ثم كتب الحديث فَتَرَ، وإذا ابتدأ بكَتْبِ الحديث، ثم تنسَّكَ نَفَذَ »[1].

وقد قال أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني(ت٣٣٧هـ)، لابنه إسحاق رحمهما الله تعالى: « يابني! تعلَّم العلمَ لآداب الظاهر، واستعمل الورعَ لآداب الباطن، وإيَّاك أن يشغلك عن الله شاغل، فقَلَّ مَنْ أعرض عنه، فأقبلَ عليه! »[2].

ثم إن فهمهم لمراد الله تعالى، والتزامهم منهج رسوله ﷺ في إنفاذ ما

---

(١) طبقات السّلمي، ص ٥٥ . وانظر حلية الأولياء ١٠/ ١١٦-١٢٦، وتاريخ بغداد ٩/ ١٨٧-١٨٩، برقم (٤٧٦٩)، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٥، برقم(٦٥)، وشذرات الذهب ٢/ ١٢٧ . وروى البيهقي في شُعب الإيمان ٢/ ٣٠٣، برقم(١٨٧٣) أن السّري رحمه الله قال: (من تعبّد و كتب خشيتُ عليه و مَن كتبَ ثمّ تعبّد رجوتُ له) .

(٢) طبقات السّلمي، ص ٤٠٢- ٤٠٥ . وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٣٦١، الانساب : ١٠/ ١١٠، المنتظم: ٦/ ٣٩٠ - ٣٩١، وسير أعلام النبلاء١٥/ ٣٩٢، برقم (٢١٦)، العبر: ٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥، الوافي بالوفيات: ٦/ ٢٠، مرآة الجنان: ٢/ ٣٢٥، البداية والنهاية: ١١/ ٢٣٤، طبقات الاولياء: ٢١ - ٢٣ ، وشذرات الذهب ٢/ ٣٤٤.

أراده الرَّب سبحانه ؛ لَيُعطي الأجيال تبريراً وتنويراً لحالة الصلاح التي كانت سائدة في مجتمعات الأوائل، وبياناً لأسباب النهوض الحضاري العام في تلك المراحل، الذي شمل منظومة الأمة وأبناءها وأمصارها، وهو في الوقت نفسه يمنح الجيل الحاضر واللاحق الثقة في الاعتماد على منهجهم، لاسيما في عبور الأزمات النفسية، والأُسرية، والمجتمعية، والأممية، والقِيميّة، والحضارية التنافسية، ويقرّب تحقيق الازدهار، أو السّير في طريق تحقيقه، على أن كثيراً من المنظّرين والمربِّيْن يرون تحقيق هذا بعيد المنال بالنسبة لمجتمعاتنا وأبنائنا، بل يراه بعضهم مستحيلاً، لا يمكن تحصّله في أيامنا، بالمقارنة بيننا وبين السابقين، وأحوالهم وأفعالهم مع الله والخلْق، وما كانوا عليه من صدق الظاهر وسلامة الباطن، وما نحن عليه من حال التأخّر الروحي، والانشغال المعيشي، لاسيما بما تكفّل الله تعالى به للمسلمين وأمة العرب، من الرّزق والتيسير والتدبير !، أو من خلال المقارنة بالأمم الأخرى وما توصّلت إليه؛ من الحضارة والرُّقي، والتقدّم في نواحي الحياة العلمية والعملية، وتمكّنها من سبل استخدام الطاقات البشرية والطبيعية من أجل الإنسانية، أو من أجل المصالح الذاتية والمؤسساتية والدولية والإقليمية، فلم يبق أمام أبناء هذا الجيل من خلال التدقيق في المعادلات الكونية، ودورة الأيام، وتداول السنن من سبيل لتصحيح مسارهم، والوصول إلى غلبة كفّتهم ، ومواجهة عوالم التخلّف والضياع؛ إلا العمل على رجاحة الجوانب الإيمانية، والعودة إلى منهج المؤمنين السّابقين، الذين نهض بهم الإيمان إلى العلم والعمل؛ فوصلوا إلى قمة الدنيا، ولذة مباركة الله تعالى لهم ورعايته، وعنايته، ومعيّته، وتأييده، ورضوانه، وتحقيق مكاسب الآخرة والثواب على سعيها ، وذلك هو الفوز المبين.

والأمـة وأجيالهـا اليـوم بحاجـة عظيمـة إلى مَنْ يأخـذ بيدهـا إلى الطريق الصحيح؛ طريق العلم والعمل والأخلاق والإخلاص؛ طريق الأمل والعمل المبني على اليقين بموعود الله تعالى، بعد أن تفرّعت الطرق، وكثُرت العناوين، وأُثقلـت الأمـة بالدعـاوى العريضـة، والأضاليـل والأباطيـل، التـي منها ما هـو منحـرف السـلوك، وما هو أعمى الفـؤاد؛ بين تفريط ولـين يصل إلى حد السـيلان، وإفراط في النفور والتنفير يصل بأهله إلى ما هو جاف بلقع، وكلّها من مظاهر اقتراب الزمان،وزيادتها بزيادة الهرج والمرج، وكثرة البدع، وتحكيم الآراء والأهواء، وتحكّمها بمصير الأمة ومستقبل أبنائها، وتفشي ثقافة البدع، والتهاون بكل ما هو عظيم في الرّتبة والحكم أو الوقوع بما أسـماه أهل الضلال بالفـوضى الخلاقـة، وقد سـئـل أبـو حفص النيسـابوري رحمـه الله تـعالى: ما البِـدْعَـةُ ؟، فقـال: « التعـدي في الأحـكام، والتهاون بالسُّـنَن، واتبـاع الآراء والأهـواء، وتـرك الاقتداء والاتِّـبـاع »، وهو القائل: « المعـاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت »(1).

***

---

(1) طبقـات السّـلمي، ص ١١٥-١٢٢. وانظـر حليـة الأوليـاء ١٠/ ٢٢٩-٢٣٠، وصفـة الصفـوة ٤/ ٩٨-٩٩، وسـيـر أعلام النـبـلاء ١٢/ ٥١٠، برقـم (١٩٠)، ومرآة الجنان ٢/ ١٧٩، وشذرات الذهب ٢/ ١٥٠.

المحور الثاني

أثر الفهم الصحيح

لتعاليم القرآن الكريم

في السّلوك العام

المحور الثاني

أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن الكريم

في السّلوك العام

من حيث:

أ- الالتزام بما جاء عن النبي ﷺ ، واعتبار الكتاب والسُّنّة المرجع الرئيس في الحياة.

ب- تقديم النصيحة لأهل القرآن الكريم وعموم المسلمين .

ت- الاستقامة، وموافقة الظاهر للباطن، وحفظ الأدب مع الخَلْق .

ث- ملازمة الأُسس الصحيحة التي عليها قِوام العبادات والمعاملات.

ج- الاستعانة بالصبر على طريق المعرفة وفهم القرآن الكريم.

***

يتضح من خلال سِير السَّلف الصالح رحمة الله عليهم، ووعيهم في فهم دين الله تعالى، وتعاملهم مع روح عصرهم، وتوجيهم الأجيال على أساس الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، والمنهج السليم في التعامل مع آياته؛ أن التاريخ سجّل دروساً كثيرة في سِيَرهم، وعِبَراً عظيمة تجسِّد واقع حال السّابقين المهديين في التعامل مع النّفس والخلق وعبادة الله تعالى، وصولاً إلى

اليقين بدينه عزّ وجلّ ، وهدي رسوله ﷺ، وبلوغ المعرفة بالله عزَّ وجلَّ التي تجعل الإنسان في رقابة دائمة، ولاسيما في توجهاته الفكرية، وسلوكه القلبي والذهني والعملي.

ولاشك أن تزكية الأرواح والأبدان واستقامتهما تحتاج إلى فهم صحيح لمراد الله تعالى وسلوك رسوله ﷺ،وأن التعمّق في دراسة أحوال وسلوك النبي الكريم تمنح المسلم طاقات إيمانية ، وتبعثه على الاتباع ، والتأسي بمنهجه ﷺ في التعامل مع الروح أو البدن ، ولِما للتزكية من أثر إيجابي وعظيم على الفرد والمجتمع؛ فقد كانت من أهم واجبات النبي الكريم ﷺ تجاه أمّته، وهي تتقدّم على تعليمه إياها الكتاب والحكمة، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وهي في الوقت نفسه من عظيم المنن الإلهية على المؤمنين ؛ إذ هيأ لهم سبحانه مَنْ يسمو بأرواحهم وينقّي أبدانهم، لتظهر آثار بركة اسمه القدوس جلّ جلاله عليهم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

ولاشك أن ذلك تحقيق لرغبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ودعائهما

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

وقولهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1] .

وظهر في السّلف والأمة أثر هذه التزكية ؛ فمن ذلك ما جاء في ذِكر التابعي الكبير عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٨ هـ) رحمة الله عليه[2]؛ إذ كان صاحب سنّة وقراءة، ورأساً في القرآن، نحوياً فصيحاً إذا تكلّم . قال فيه الإمام أحمد بن حنبل : « رجل صالح خيّر ثقة ». وكان إذا صلّى ينتصِب كأنه عود، ويلازم المسجد يوم الجمعة إلى العصر، عابداً خيّراً أبداً يصلي، وربما أتى حاجة، فإذا رأى مسجداً، قال لـمَنْ معه: مِلْ بنا، فإن حاجتنا لا تفوت ، ثم يدخل فيُصلي.

وكان لفضل ما جمعه من علم القرآن والعمل به ؛ أنّه على سجيّة رسول الله ﷺ وسنته في التعامل مع الناس، ولاسيما في ضبط النَّفس، والصّفح الجميل، وتحمّل الأذى؛ فقد حدّث أبو بكر بن عياش رحمه الله : « أنّ إمام القراء عاصم ابن أبي النجود قد ابتلاه الله تعالى بفقد بصره فصبر، وقد جاء رجل يوماً يقود عاصماً ، فوقع وقعة شديدة ، فما كَهَرَهُ – أي انتهره – ولا قال شيئاً ». ولاشك

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٩ . هذا وقد ألمح إلى مثل هذه الفضائل سماحة الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي حفظه الله في كتابه (دعائم السلوك الأمثل من الكتاب والسُّنّة)، ومنها قضية الجمع بين التزكية والعلم (ص ٦٦-٦٧) ، وضرورة العناية بهما من خلال اختيار الأساتذة المراعين لهذه الطريقة في التدريس، الجامعين بين الكفاءة والخُلُق والاستقامة، ونبّه إلى ضرورة حذو القائمين على شؤون التربية والتعليم ذلك في اختياراتهم؛ لما له من أثر ملموس في حياة التلاميذ وسلوكهم العام والخاص،فانظره.

(٢) ينظر مشاهير علماء الأمصار ، ص ١٦٥، ومعرفة القرآء الكبار ١/ ٨٨، برقم(٣٥)، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٥٦-٢٦١، وشذرات الذهب ١/ ١٧٥ .

أنّ هذا السلوك ، وهذه الأخلاق العالية إنما تنبع من فهم صحيح لآلية التعامل مع الناس، وكيفية التلطف بهم، والتسليم لما قدّره الله تعالى وقضاه في النفس، وكله مما جاء الحثّ عليه في القرآن الكريم، والترغيب بدرجاته عند الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

ومن هذه الدروس المبنيّة على الفهم الصحيح لتعاليم القرآن وما جاء عليه مدار أغلب آياته؛ ما جاء عن سهل بن عبد الله التستري (ت٢٨٣هـ) يرحمه الله[2]، أنه قال: « التوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنَّته، فمَنْ بقي على حاله فلا يتركنّ سنَّته، ومَنْ طَعَن في الحركة فقد طعن في السّنَّة، ومَنْ طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان »[3].

وهذا الفهم متواتر بين السّابقين ، وهو منهج حياة عندهم؛ يعيشون في كنفه، ويستظلون في ظلاله الوارفة، وينعمون ببركاته.

وعلى المسلم الباحث عن المنهج الحق، وهو منهج أولئك الصّادقين السابقين في التوكل على الله تعالى: أن لا يظهَر فيه انزعاج لما يُقدّره الله عليه، أو رغبة جامحة إلى الأسباب مع شدّة فاقته إليها، ولا يزول عن حقيقة السكون إلى الحق تعالى مع وقوفه على الأسباب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٤ .

(٢) تنظر سيرته وأخباره وأقواله في حلية العلماء ١٠/ ١٨٩ ، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣٠-٣٣٣ ، برقم (١٥٣).

(٣) الرسالة القشيرية، ص ١٦٦-١٦٧ .

إنّ هـذا الـدَّرس - وغـيره كثير - يُعلّم الأمـة وخَلْفَ أولئـك الأئمة: أن الفهم لرسالات الله تعالى إنما يتأتى باليقين بما جاء فيها، واليقين بمآل من التزم فيها، وكذلك بمصير مَنْ خالفها أو حيّدها ، ويستحضر نجاح مَنْ فعّل دورها في الحياة، وفلاح من حكّمها في الظاهر والباطن، وبأسباب سلب هذا النجاح أو الفلاح ممن أصرّ على مخالفتها، ومات على ذلك.

كـما إن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وما جاء فيه من البرهان والحكمة هو الذي يبعث صاحبه على استثمار الدنيا والآخرة معاً ؛ فلا يضيّع العاقل الدنيا بدعوى طلب الآخرة، ولا الآخرة لانشغاله بالدنيا؛ بل يكون من الخِيار الذين يجمعون بين سـعادتي الدنيا والآخرة؛ ولاشـك أنّ خيار هذه الأمّة هم الذيـن لا تَـشْـغَلُهُم آخرتـهـم عن دنيـاهـم، ولا دُنـيَـاهُمْ عـن آخرَتـهِم ؛ بل حققوا الموازنـة بين عمـلي الدنيا والآخرة ، وحرثوا الدنيا بالقربات والمبّرات وحُسـن الاسـتخلاف والعمارة المستقيمة التي على المحجّة البيضاء؛ تمهيداً لقطف الثمار الحميـدة في الآخـرة بتحقيـق عفو الله ورضوانـه، ورفعة الدرجـات والأمن ، وحُسن النُّزل بالغُرفات في رتب أهل الجنة والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[1] .

وعاشـت أجيـال أمتنا الصالحة رحمـة الله تعالى عليهم مع القـرآن الكريم غالـب حياتهـم، وصحبـوه في الحـضر والسـفر، وحكّمـوه عـلى الأفـكار والأقـوال والأفعال والأحوال، وتنعّمـوا ببركاته، وانتهلوا من فيوض أنواره،

(١) سورة العنكبوت، الآية ٥٨.

وتذوقوا لذة معارفه، وفهموا حِكَمَ علومه؛ روى أبو عبد الرحمن السلمي، بسنده إلى شقيق البلخي رحمة الله عليهما، أنه قال: « عملتُ في القرآن عشرين سنة، حتى ميَّزتُ الدنيا من الآخرة؛ فأصَبْتُهُ في حرفين، وهو قولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] »[2].

وقد ورد نص آخر في القرآن الكريم، يوضِّح أن الخير الممنوح من الله تعالى، والبقاء الأبدي، إنما هما للمؤمنين المتوكلين على الله عزّ وجلّ؛ إذ يقول سبحانه: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3].

ولكل ما تقدّم وغيره تتضح ضرورة أن يبدأ المربون والموجّهون بإصلاح منظومة السلوك الذاتي، وتهذيب الأرواح والأبدان، ثم الانتقال بعدها إلى مرحلة التعليم؛ فالابتداء بالتخلية من الأكدار والأوزار، ثم الانتقال إلى التحلية بما في الكتاب والسُّنة من المعاني والمفاهيم والحكمة، كل ذلك مما يثمر أسساً صحيحة، ويبني بناء قوياً له تأثيره الإيجابي على الأمة ومسيرتها الحضارية .

ويتضح أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن في السلوك العام من خلال:

---

(١) سورة القصص، الآية ٦٠.

(٢) طبقات السلمي، ص٦٤، وتنظر حلية الأولياء ٨/ ٥٨، وصفة الصفوة ٤/ ١٣٣، ووفيات الأعيان ١/ ٢٨٣، ومرآة الجنان ١/ ٤٤٥ ، وشذرات الذهب ١/ ٣٤١ .

(٣) سورة الشورى، الآية ٣٦.

أ) الالتزام بما جاء عن النبي ﷺ ، واعتبار الكتاب والسُّنّة المرجع الرئيس في الحياة :

امتلأت أسفار تاريخ أمتينا العربية والإسلامية بصفحات منوّرة، تدل على عظيم التزام الأولين رحمة الله عليهم أجمعين بما جاء عن الرّسول الخاتم ﷺ، ومتابعتهم لسنَّته؛ من ذلك ما يُحَدِّث به أبو يزيد طيفور ابن عيسى البسطامي(ت٢٦١هـ) رحمه الله عن نفْسِهِ فيقول: « لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤونة الأكل، ومؤونة النساء، ثم قلت- أي مُحَدِّثاً نفسَه -: كيف يجوز لي أن أسأل الله تعالى هذا ، ولم يسأله رسول الله ﷺ ؟! فلم أسأله »[1].

فتنبّه يا رعاك الله إلى ضرورة أن تُقدّم النيّة الحسنة في الحركة والسكون، ويكون سلوكك في القول والفعل وتزكية الروح والجسد كما أُثر عنه ﷺ ، وأن تحرص في متابعته العامّة والخاصّة على تحقيق غاية عظمى، ومنزلة أسمى ألا وهي تحقيق حبّ الله الملك القدّوس جلّ جلاله ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

وكذلك فقد ظهر واستفاض في تاريخ الأمة المسلمة المشرق ؛ كون الكتاب والسُّنّة المرجع الرئيس في الحياة في سائر عهودها، وهذا ما نلحظه في عصرنا أيضاً في بعض أمصارها، وفي حياة أبنائها المخلصين، لاسيما وهم يحرصون على مرجعية الكتاب والسنة، في الحُكْم على الأقوال والأفعال والأحوال ؛

---

(١) الرسالة القشيرية، ص ٣٩٦ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

يقول أبو سليمان الداراني(ت٢١٥هـ) يرحمه الله: « ربما تَقَعُ في قلبي النّكْتَةُ من نكت القوم - أي أهل العلم والعمل، أهل التربية والتزكية وتهذيب النفوس، السائرين في طريق معرفة الله تعالى- أياماً، فلا أقْبَلُ شيئاً منها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسُّنّة »[1].

ويقول الإمام، المُحَدِّثُ، أَبُو عُثْمَانَ سَعِيْدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ النَّيْسَابُوْرِيُّ، الحِيْرِيُّ : « مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلاً وَفِعْلاً، نَطَقَ بِالحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَّرَ الهَوَى عَلَى نَفْسِهِ، نَطَقَ بِالبِدْعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾[2] »[3].

وفي الإرشاد إلى أنّ مَنْ التزم هدي النبي ﷺ فقد سلك طريق الخيرات، وأنّ التمسك بسلوكه ﷺ يعود على صاحبه بالبركات؛ يقول أبو القاسم الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧هـ)رحمة الله عليه : « الطُّرُقُ كُلُّها مسدودةٌ على الخَلْقِ، إلا مَنْ اقتَفَى أَثَرَ الرسول ﷺ، واتَّبَعَ سُنَّتَهُ، ولَزِمَ طَرِيْقَتَهُ؛ فإنَّ طُرُقَ الخيْرات كلّها مفتوحةٌ عليْه ، كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[4] »[5].

---

(١) طبقات السلمي، ص ٧٨. وانظر حلية الأولياء ٩/ ٢٥٤-٢٨٠، تاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨-٢٥٠، وصفة الصفوة ٤/ ٢٢٩، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٢-١٨٦، برقم(٣٤)، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٥٥، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، (بصيرة في علم) ١/ ١١٣٥ ، ومفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنة ١/ ٧١ .

(٢) سورة النور، من الآية ٥٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٤ . وأعقبها صاحب السِّير بقوله: قُلْتُ: وَقَالَ تَعَالَىَ:(وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ) سورة ص، من الآية ٢٦.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٥) طبقات السلمي، ص ١٥٩. وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥-٢٨٧، والفقيه =

وفي الفهم المنضبط الواعي بفحوى الأصول من النصوص الكريمة، ونتائج محاورها، وارتباط أهدافها، يقول أبو يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ)رحمه الله تعالى: « السُّنّة تركُ الدنيا - أي نزع حبها من القلب، وترك التعلّق بزخارفها -، والفريضة الصحبة مع المولى؛ لأنّ السُّنّة كلّها تدلُّ على تركِ الدنيا، والكتاب كلّه يدلُ على صحبة المولى. فمَنْ تعلَّمَ السنَّةَ والفريضةَ فقد كَمُل »[1]، أي فَمَنْ ترك الدنيا إلا لحاجته، وصحب المولى مستحضراً شهوده وعظمته ومراقبته، وتهيأ للقائه ، فقد كملت عدّته، وكمل في اتباعه، وكمل تقديمه لظاهر واجب العبودية ؛ فكان مع الله تعالى في الحركات والسّكنات، يعالجها وفق هدي رسول الله ﷺ، ولا يحيد بذلك عن الإحسان أبداً ، بما نال من وصفه، فإن لم يحقق السّاعي إلى ربّه ، الزاهد في الدنيا، المصاحب

= والمتفقه ١/ ٢١٩، برقم (٤٠١) ، تاريخ بغداد ٧/ ٢٤١، برقم (٣٧٣٩)، والرسالة القشيرية ، ص ٤٣٠-٤٣١، وتلبيس إبليس (في البدعة) ، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٧-٧٠، برقم(٣٤)، والأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، ص ٥٣ ، (ما جاء عن السلف في الأمر بالاتباع).

وجاء في حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٥ أنّه رحمة الله عليه حثّ على ضرورة اعتماد المعتقد على الكتاب والسنّة، فقال : (كل توحيد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو زندقة) .

وفي جامع المسائل لابن تيمية٤/ ٥٧ : (وقال الجنيد بن محمد : عِلْمُنا هذا مقيّد بالكتاب والسُّنّة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يصلحُ له أن يتكلّم في عِلْمِنا).

وفي سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٨ أنّه رحمة الله عليه قال: (عِلْمُنَا مَضْبُوطٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الكِتَابَ وَيَكْتُبِ الحَدِيْثَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ، لاَ يُقْتَدَى بِهِ).

(١) طبقات السّلمي ، ص ٧٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٣، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦ ، برقم(٤٩) ، وشذرات الذهب ٢/ ١٤٣ .

لتعاليم الله ورسوله شعور المراقبة في نفسه، أو لم يصل إلى نعمة رؤية الله تعالى رقيباً عليه في أداء ما أراده منه ، فليعلم أنه عزّ وجلّ يراه ويعلم سرّه وما خفي منه فيه ، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[1] وقال عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2] ، وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[3] .

***

ب) تقديم النصيحة لأهل القرآن الكريم وعموم المسلمين:

لقد أشرقت نصائح أهل القرآن على الأمّة من خلال تعاملهم معه، ووقوفهم المتأمّل لآياته، وحثّهم لأهله وسائر أبناء الأمة على العيش والتعايش في ظلال آياته الوارفة، وتذوّق معانيه ، والانضواء في كنف منهجه، والانطلاق في طلب العلياء، وعلى وفق ما جاء فيه من الإرشاد والحِكَم.

وتحرّوا في ذلك كلّه أن يكون الجميع على قدم الاتباع في الأقوال والأفعال والأحوال والأخلاق، يقول أبو الحسن أحمد بن ميمون الدمشقي (ت٢٣٠هـ) رحمة الله عليه: « إنّي لأقرأ القرآن، فأنظر في آية، فيحَارُ عقلي فيها، وأعجب مِنْ حفّاظ القرآن!! كيف يَهنيْهُم النومُ، ويَسَعُهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا،

(١) سورة طه ، الآية ٧ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦ .

(٣) سورة غافر ، الآية ١٩ .

وهم يتلون كلام الرحمن؟!! أمَا لو فَهِموا ما يتْلون، وعَرَفوا حقَّهُ، وتلذَّذوا به، واسْتَحْلَوا المناجاةَ بـه، لذهبَ عنهم النَّوْمُ، فَرَحَاً بما رُزِقُـوا وَوُفِّقُوا »[1]، وهو القائل: « مَنْ عَمِلَ بلا اتباع السُّنَّة فباطلٌ عملُه ».

* وفي تقديـم النصيحـة لعموم المسـلمين ، سـجّل التاريـخ أن النّصيحة والتناصـح سـمة بين أبنـاء هذه الأمّـة ؛ فـ « **الديـن النصيحة** » كـما أخبر ﷺ، وأُثـر تقديمهـا ، والإقـدام على إبدائهـا بين عموم الأمـة وخواصّهـا في الرّتبة

---

(١) جـاء في طبقـات الأوليـاء ، ص ٣١ : « مـات سـنة ثلاثـين ومائتين، كما قال السـلمي والقشـيري وغيرهمـا. و الصواب سـنة أربعـين، كما نبّه عليه ابن عسـاكر عـن اثنتين وثمانين سنة » . وانظر طبقات السلمي، ص ٩٨، وحلية الأولياء ١٠/ ٥، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٨٥ ، برقم (٢٦).

وقـد جاء في كتاب إحياء علـوم الدين ١/ ٢٨٥ تعليم القارىء كيفية التشرّب بمعاني القرآن الكريم، لتفيض أنواره في الوجدان، وتظهر على الجوارح، من ذلك: « فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكـر الله وصفاته وأسـمائه يتطأطـأ خضوعاً لجلاله، واستشـعاراً لعظمتـه، وعند ذكر الكفـار ما يسـتحيل عـلى الله عز وجل كذكرهـم لله عز وجل ولـداً وصاحبة، يغض صوتـه ، وينكسر في باطنه حياء من قبـح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شـوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها » . وقد أشـار الإمام النووي رحمـة الله عليـه في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن، إلى أن المسـلم عليه التزام منهج السـابقين الصّادقـين الأوّلين رضـوان الله تعالى عليهم في كيفية الخشـوع والتخشّـع، واسـتحضار مرجعية القرآن وهيبته، وما فيه من وعد ووعيد، وأن تظهر عليه مظاهر القارئ الحقيقي للقرآن الكريم، ومنها البكاء عند تلاوته ؛ فيقول: « وطريقه في تحصيله – أي البـكاء – أن يحـضر قلبـه الحـزن بأن يتأمل ما فيـه – أي القـرآن – من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في ذلك فإنه من المصائب ».

والمنزلة، من ذلك ما جاء في تتمة قوله ﷺ السابق ، عندما أرادت الأُمّة معرفة مَنْ يستحقّ النصيحة، ولِمَنْ تكون ، وإجابته ﷺ: أنّها تكون « لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامّتهم »[1].

ومما جاء في الصفحات المشرقة لأبناء هذه الأمّة من النّصائح والوصايا، وأنواعها وفوائدها، وآثارها، ومنافع الأخذ بها، وتدارك وقتها على سائر المستويات :

* ما نصح به الإمام المقرئ النحوي أبو عمرو بن العلاء التميمي البصري (ت١٥٤هـ) رحمة الله عليه[2]، الأمّة من خلال قوله لبعض طلابه: « خذ الخير من أهله، ودع الشّر لأهله »[3]، فلا شك أنّه يرشد إلى تحري الخير لذاته، ثم تحري أهل الخير، والحرص على ورود منازلهم، والإفادة مما أفاضه الله تعالى عليهم، من النّعم الظاهرة والباطنة، وأنّ مَنْ شاع خيره، وظهرت آثار هذا الخير في سلوكه، وكان مضمون المصدر ؛ فهو بلا شك قبلة للعقلاء في الإقدام والانتفاع منه، ولا يُغفل عن مثله أبداً، وفي الوقت نفسه يُذكِّر الإمام البصري رحمة الله عليه بضرورة هجران الشرّ وأهله، والالتفات عن سبيله، والانقطاع عن كل ما يوصل إليه ، لأنه مما يقود إلى سوء المنقلب والعاقبة والعياذ بالله تعالى .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٣٠ ، برقم (٥٦) ، ومسلم في صحيحه ١/ ٧٤، برقم (٥٥).

(٢) تنظر سيرته في مشاهير علماء الأمصار ١٥٣ ، ونزهة الألباء ٣٠-٣٥، وإنباه الرواة ٤/ ١٢٥-١٣٣ ، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٦٦- ٤٧٠ ، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠٧-٤١٠ ، وشذرات الذهب ١/ ٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٢ ، برقم (٣٩).

* وقد يفتح الله تعالى بالنصيحة على لسان صاحبها في ساعة احتضاره، ويقدّمها وصيّة ، عند توقع دنوّ الأجل ؛ من هذا ما حدّث به محمد بن إسحاق عن أبيه، قال: حضرت الوفاة نافع بن عبد الرحمن الليثي(ت١٦٩هـ) رحمه الله تعالى، وهو إمام أهل القرآن ، العَلَم المعروف، وطلب منه أبناؤه وصيّة، فقال: « ﴿.. فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[1] » [2].

فتنبّه يا حماك الله إلى عظيم النّصيحة، ورفيع الوصية ، وكيف أنّه رحمه الله وهو في ساعة الموت يُذكّر أبناءه والأُمّة بالمنهج القويم؛ بتقوى الله تعالى ، وإصلاح ذات البَيْن، والطاعة المطلقة لما أمر به الله ورسوله ﷺ، وأن يحققوا إيمانهم بالتزام الثوابت من الأوامر، واجتناب النواهي.

* ومن الصفحات المضيئة في تاريخ الأُمة، ولاسيما في تقديم النصيحة لعموم المسلمين لإصلاح السلوك العام في الأمّة بناءً على المعرفة والتجربة، يقول حكيم الزمان الإمام الواعظ الزاهد يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨هـ) رحمة الله عليه: « اجتَنِبْ صحبةَ ثلاثةِ أصنافٍ من النّاس: العلماء الغافلين، والقرَّاء المُداهنين، والعُبّاد الجاهلين »[3]. وقال:« ليكن حظ المؤمن منك

(١) سورة الأنفال، من الآية ١.

(٢)ومعرفة القراء الكبار ١/ ١١١، برقم(٤١)، وغاية النهاية ٢/ ٢٣٠-٣٣٤.

(٣) تنظر سيرته وأقواله في طبقات السلمي ، ص ١٠٧ - ١١٤، وحلية الأولياء ١٠/ ٥١-٧٠، والرسالة القشيرية ، ص ٤١٤، برقم (٤٠)، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥، برقم (٨).

ثـلاث خصـال: إن لم تنفعـه فلا تـضرّه، وإن لم تـسرّه فلا تغمّـه، وإن لم تمدحه فلا تذمّه »[1].

ولاشـك أنّه رحمه الله يعلّم في هذه النصائح الجامعة مجانبة إيذاء المؤمنين، وقبلهـا الحذر من العلماء الذين انشـغلوا بالعلم عن الله تعـالى، وكذلك الذين اسـتعملوه في غير موضعه، وشـغلهم الطريق عن الوصـول إلى الحق، والذين أصابتهم غفلة الوقت، فشـغلتهم أنفسهم عن أداء دورهم في المجتمع، وبقيت عقولهم حبيسة الأوراق والنظريات والكتب، فلم يغادروها إلى ميدان التفاعل والعمل، ميدان الدعوة إلى الله تعالى ودينه الحق، ولم تظهر عليهم آثار العلم من الرحمة بالخلق، والسعي إلى هدايتهم ، وتذليل العقبات أمامهم .

وبالجمـلـة: فهي نصيحة ملؤهـا التحذير من الذين لم يعملوا بما علموا ، وغفلـوا عن دورهم الريادي في النّاس، ومسـؤوليتهم أمام الله تعالى ورسـوله ﷺ، وكـما قـال الإمـام الزاهـد المعلّـم أبـو عبـد الله الأنطاكـي (٢٣٩هـ) رحمة الله عليه: « أنفع العلم ما عرّفك نِعَم الله عليك، وأعانك على شُـكْرِها، وقام بخلاف الهوى،..العاقل مَنْ عَقَل عن الله تعالى مواعِظَه، وعرف ما يضرُّه مما ينفَعُه »[2] .

وجـاء في واقع حياة رجال الأمة السّـالفين من علمائهـا الصّالحين، نماذج كثيرة، يظهر من خلالها فرقان المعرفة بين العالم الغافل ، والعالم العاقل المتنسّك

---

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٥٨ .

(٢) طبقات السّلمي، ص، ١٣٨ ، وحلية الأولياء ٩/ ٢٨٠، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٣٦٨ ، برقم (٤٣٤١) بتحقيق عبد العلي عبد الحميد .

العابد، الذي عرف قيمة العلم كوسيلة للوصول إلى رضا الله تعالى ومعرفته، ومن أولئك العقلاء العبّاد ما جاء في سيرة أعلم النّاس في عصره بالقرآن والعربية وأيام العرب، والشِّعر وأيّام الناس ، الإمام أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) رحمه الله، يقول أبو عبيدة: « كانت دفاتر أبي عمرو بن العلاء ملء بيت السَّقف، ثمّ تنسّك فأحرقها، وكان من أشرف العرب ووجوههم »[١].

فانظر يا أعانك الله إلى حرصهم على الغايات، والحذر من الاشتغال بالطريق عن الحق تعالى، الذي هو الغاية العظمى ، أو بالسبب عن المسبِّب الذي هو الله جلّ جلاله.

وسُئل الإمام الواعظ الزاهد أبو صالح حمدون القصّار النيسابوري (ت٢٧١هـ) ، رحمة الله عليه: متى يجوز للرجل أن يتكلّم على الناس - أي بالموعظة والنصيحة ؟-، فقال: « إذا تعيّن عليه أداء فرض من فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة، وهو يرجو أن ينجيه الله تعالى منها »[٢].

وبهذا يوضّح رحمة الله عليه ضرورة ألا يكتم العلم عن الناس مَنْ حمل شيئاً منه، وفي الوقت نفسه ألا يتصدّر لتعليم شرع الله تعالى، وتذكيرهم بموعظته، وترهيبهم من عذابه، وترغيبهم بسعة رحمته، إلا مَنْ امتلك علماً في أصول شرعة الإسلام الحنيف، يؤهّله إلى فهم المعاني ، ويصون صاحبه

(١) معرفة القراء الكبار١/ ١٠٤، برقم (٣٩) .

(٢) طبقات السلمي، ص١٢٥، وحلية الأولياء١٠/ ٢٣١، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، برقم (٣٧)، وطبقات الأولياء ٣٥٩.

مـن الضلال والإضلال، وأن الضرورة الشرعية في تصدّره متحققة، وأن عدم مبادرته في بثّ العلم، أو قعوده عن أداء دوره المنشود في الأُمّة هو كتمان للعلم، وحجب للنور عن أهله، ومسـاهمة فاعلة في اتسـاع الجهل بين أبناء المجتمع ، وإفساد لمقوماتهم، وتشجيع على انتشار الفساد في الأرض، أو أنّ المتصدّر يرى الناس - ولاسيما في زماننا - تسوقهم الأهواء، والخرافة، والبدع، والخلافات، أو التشـدد في الديـن إلى الابتعـاد عن الهـدى الإلهي، والانحـراف عمّا جاء به القـرآن الكريـم من النـور المبين، والحكمة، والموعظة الحسـنة ، ومـا كان عليه رسـول الله ﷺ من التيسير والعقلانية، والفهم لمقتضيات المرحلة، وضرورات العصر؛ فيقدِم على النصيحة وإبداء الصواب بنيّة إنقاذ مَنْ يسـتطيع إنقاذه من المسـلمين، وعـلى أمل أن يوفّقـه الله تعالى فيكتـب على يديه نجاتهـم من البدع وآثارها وعقوباتها.

* وفي إبـداء النصـح لإصلاح عموم سـلوك الأمّة ، وحثّهـا على ملازمة الشريعة والكينونة مع الله تعالى، وتعاليم كتابه في الأقوال والأفعال والأحوال، وتحصيل أثرها ، يُقدِّم الإمام يحيى الرازي(ت٢٥٨هـ) رحمه الله تعالى ، نصيحته وحكمته إلى الأُمّة فيقول:« مَنْ سُرَّ بخدْمَةِ الله، سُرَّت الأشياءُ كلُّها بخِـدْمَتِـهِ؛ ومَنْ قـرَّت عينُـهُ بالله، قَـرَّتْ عيون كلّ شيءٍ بالنظر إليه »[1].

* وفي الحُكْـم على الآخرين، وإقامة هذا الحكـم بناءً على الالتزام بحفظ الحدود وأداء الشريعة، يقول أبو يزيد البسطامي (ت٢٦١هـ) يرحمه الله تعالى:

---

(١) هـو الإمـام الحكيم يحيى بن معاذ ، تنظر طبقات السـلمي ، ص ١١٣ ، ورواه البيهقي في الزهد الكبير ١/ ٢٨٢ ، برقم(٧٢٦) .

« لـو نظرتـم إلى رجلٍ أُعطي مـن الكرامات حتى يرتقي في الهـواء، فلا تغترُّوا بـه، حتى تنـظـروا كيف تجدونه عنـد الأمر والنـهـي، وحفظ الحـدود، وأداء الشـريعة »[1].

ومـن جميـل النّصائـح في ضوء الكتـاب الكريـم ، والحثّ عـلى التزامه مـا حكاه الحسـن بن صالح العبـاداني رحمه الله عن الإمام سـهل بن عبد الله التسـتري(ت٢٨٣هـ) رحمـة الله عليـه ، قال: دخلت على سـهل بن عبد الله التسـتري فقلت له: أوصني أيها الشـيخ يرحمك الله فإني أريد الحج، فقال لي: أوصيـك؟ وواعظك معك! فقلت: ومَنْ واعظي يرحمك الله؟ قال: الكتاب المنزّل-القـرآن الكريـم-، فقلـت له: الكتـاب كبير وفيه مواعـظ وتخويف، فعظني يرحمك الله ، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿.. مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا

---

(١) حليـة الأوليـاء١٠/ ٤٠ ، وانظـر الاعتصـام للشـاطبي (١/ ٩٤) ، ووفيـات الأعيان ٢/ ٥٣١، برقم (٣١٢) . وأشـار ابن تيمية رحمه الله في « الفرْقان ، بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الرَّحْمَن وَأَوْلِيَـاءِ الشَّـيْطان » (ص١٦٨-١٦٩) إلى مثـل هذا المعنى بقولـه : « وتجد كثيراً من هؤلاء، عمدتهم في اعتقاد كوْنِهِ وليّاً لله : أَنه قد صدر عنه مُكاشَفةٌ في بعض الأمور أو بعض التصَرُّفاتِ الخارقة للعادة ، مثل أَنْ يُشِيْرَ إلى شخص فيموت، أَوْ يَطِيْرَ في الهـوَاءِ إلى مكـة أو غيرها، أَوْ يَمْشي على الماء أَحْيَاناً ، أَوْ يَمْلأَ إبريقاً من الهواء ، أو أن يختفي أَحْيَاناً عن أَعْيُن النّاس ، أو أن بعض النّاسِ اسْتَغاثَ بِهِ وهو غائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فرآه قد جاءهُ فقضَى حَاجَتَهُ ، أَو يخبر النّاسَ بمَا سُـرِقَ لهم ، أَوْ بحَالِ غائِبٍ لهم أو مَرِيْض أو نحو ذلك من الأمـور .

وليـس في شيء مـن هـذه الأمـور مـا يـدلّ عَـلى أَنَّ صاحبهـا وَلِيٌّ لله ، بـل قـد اتـفقَ أولياء الله تعالى على : أَنَّ الرجلَ لو طارَ في الهواء ، أَوْ مَشَـى على الماء ، لمْ يُغترَّ بِهِ حتى يُنْظرَ مُتَابعَتهُ لرسول الله ﷺ وَمُوَافقتهُ لأَمْرِهِ ونهيه ».

﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[1]، قال: ثم قال: استمسك بما سمعت ترشد، قال الحسن: فوالله لقد دلتني هذه الآية على كل خير[2].

ويظهر للقارىء مما تقدّم أن العابد الكبير الإمام التستري يرحمه الله حثّ طالب الوصيّة على التمسّك بكتاب الله تعالى، وأصرّ على أنّه خير واعظ، ولا ينبغي العدول عنه إلى غيره، وأنّ كل مَنْ طلب علماً ينتفع به في دينه، يجب أن يرشد ويشجّع على التمسك بكتاب الله والانتهال منه، ولا ينبغي للوعاظ والعلماء والمشايخ، والمؤسسات الإعلامية بأنواعها تزهيد الناس في العلم بكتاب الله تعالى، أو تصعيبه أمامهم، أو صرفهم عنه؛ بل عليهم الإفادة من منهج السَّلف يرحمهم الله تعالى في تيسير فهمه، وترغيب الصِّلة به، والاندماج بمعانيه وحِكَمِه وفيوضاته روحاً وجسداً، وحثّ الخلق على التماس الحق والهدى والعقيدة السليمة فيه لا في غيره، بل ومن الواجب ترغيب الناس في التمسك بكتاب الله المنزّل مشروحاً بالسنة النبويّة المطهرة التي لا يستغني عنها كل مفسِّر لكتاب الله لأنها صنو القرآن، ووحي مثله في باب التشريع ووجوب الاتباع. ثمّ يتبيّن حسن اختيار الإمام سهل بن عبد الله التستري يرحمه الله للآية المتقدّمة كوصية يقدِّمها لسائل؛ ليشعر السائل عند تلاوتها أن الله تعالى معه بعلمه، وأنّه جلّ وعزّ مطّلع عليه، ومحيط به، ولا يخفى عليه شيء من أمر عبده وسلوكياته حيثما كان في السّفر أوالحضر الظاهر والباطن، وهو سبحانه على كل شيء قدير[3].

---

(١) سورة المجادلة، من الآية ٧.

(٢) ينظر المعارضة والرّد، لسهل بن عبد الله التستري، (تحقيق ونقد وتعليق الدكتور محمد كمال جعفر)، ص: ٧٥.

(٣) ينظر الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، للدكتور محمد أمان الجامي ١/ ٢٥-٢٦.

ولا شك أنّ الصفحات المشرقة في تاريخ الأمة وفيرة، وأثر القرآن في سلوكها ومجتمعاتها كبير، وأن جيل اليوم والغد بحاجة إلى إظهارها، وتثوير ما فيها من كنوز وعِبَر، وربطها بواقع احتياجات الأمة لتتفاعل مع نتاجها، وتتعلّم أساليب صناعتها، وتقتفي أثر أولئك الرجال الذين صدقوا العهد، وبلّغوا الأمانة، وتضيء بأنوارها عقول وقلوب الأجيال الواعدة، وتبعث في ذواتهم ومجتمعاتهم وغيرها إشراقات جديدة تفيض من حكمة أولئك الصالحين وسيرهم العطرة؛ وتعمل على تخفيف وتقليل ما ظهر بين أبناء الأمة من البطالين والمخادعين والمتسربلين بهيئة رموزها، ودعاتها، وعُبّادها، وزهّادها، وعلمائها الأصفياء، وقد حقق أولئك بعض غاياتهم في صرف الناس عن الحق وصدهم عن الله تعالى وذكره، والمبالغة في إرشادهم إلى أنفسهم، وأباطيلهم، والعياذ بالله تعالى. وهم يحاولون تضليل الأجيال بتلبيس مفاهيم الاستدراج بالكرامة والتلبس بها، ولا شك أنّ الكرامات الممنوحة لأولياء الله تعالى ثابتة، ودلالتها فيهم واضحة؛ بما ثبت للناس من تمسّكهم بالشريعة، وعيشهم في ظلال كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ، وهو أمر ثابت في صفحات السابقين، وغير ممتنع في حق اللاحقين، وبالجملة فإنما يتفضّل الله تعالى بهذه الكرامات على عباده المؤمنين، وينفح بها مَنْ شاء منهم، متى شاء، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

(١) سورة يونس، الآيات ٦٢- ٦٤.

ت) التزام الاستقامة، وموافقة الظاهر للباطن،وحفظ الأدب مع الخَلْق:

كان من منهج الصّدر الأوّل لهذه الأُمّة رحمة الله عليهم التزام الاستقامة، المبنيّ على فهم صحيح لأمر الله تعالى رسولَه ﷺ وأتباعه بالاستقامة في القرآن الكريم، بقوله:﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[1]، وإنّ أساس هذه الاستقامة إصلاح المسلم باطنه مع الله تعالى، وعدم مخالفته له في الظاهر، وأنجزها السّابقون في أنفسهم، وحثّوا عليها أبناء جيلهم واللاحقين بركبهم، وأكّدوا عليها من خلال الجمع بين العلم والعمل، وإصلاح السرّ والعلن، والثبات على قاعدة : أن البواطن لا بد أن توافق الظواهر، أمّا إذا اختلت هذه المعادلة فإن العبد يحتاج إلى إصلاح ذاته، والوقوف على خطر ما هو عليه ؛ إذ تخرجه هذه المخالفة عن الحق، وترديه في الباطل ؛ يقول الإمام أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز البغدادي (ت٢٧٩هـ) رحمة الله عليه:« كلُّ باطن يُخالفُ ظاهراً فهو باطلٌ »[2].وهذا سلوك عام تستقيم به الحياة ، وتسمو بظلاله الأرواح والأبدان ، ويرقى بآثاره المجتمع المسلم ، وتنشط به همّة الطالبين للوصول إلى درجات المتقين.

وكان الوقوف على الأدب في التعامل مع الخَلْق، والمراعاة لمنازل الناس،

---

(١) سورة هود، الآية ١١٢ . وينظر الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ١/ ٢٤، (التمييز بين الحقيقة والشريعة).

(٢) حلية الأولياء١٠/ ٢٤٦، وتاريخ بغداد ٤/ ٢٧٦، برقم (٢٠٢٥). والأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، للسيوطي ، في (التمييز بين الحقيقة والشريعة).

وملاحظة ما منّ الله تعالى به على البعض من فروق الدنيا أو الآخرة في الفضل والدرجات مع المحافظة على أخوّة الدِّين من واضح منهج المتقدّمين في صدر هذه الأمة، وجاء ذلك جلياً في عباراتهم وسير حياتهم، وهم ينظّمونها على منهج التعاليم السّامية في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله وهديه ﷺ، ومن خلال فهمهم السليم لخطابات الله الخالدة - القرآن الكريم- ، وسعيهم إلى تحقيق السلوك السويّ من خلال التعرّف على حِكْمَته سبحانه، ومرامي آياته، وسائر ما جاءت به من إرشاد وموعظة.

وانتفعوا من هدي رسوله ﷺ الذي كان قوام بناء شخصه ﷺ على كتاب الله، وتغذت أرواحهم وزكت بمتابعته، وعلت هممهم بالاقتداء، والتسليم لإرادته، ولا شك أن الله تعالى هو سبحانه مَنْ أدّب رسوله الكريم الخاتم ﷺ، وتفضّل عليه بالعلوم الكسبية والوهبية بما لم يقع نظيره لأحد من البشر، و علّمه تعالى رياضة النفس، ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة، ومنحه حقيقة الأدب - أي ما يحصل للنفس من الأخلاق الحسنة والعلوم المكتسبة، وما يدعوا الناس إلى المحامد - وجعله مرجعاً للبشرية فيه، فأدّبه سبحانه بآداب العبودية، وهذبه بمكارم الأخلاق التي تحفظ لله جلّ جلاله سلطان الربوبية؛ فمن صغره تولى تأديبه ورعايته بنفسه ولم يكله في شيء من ذلك لغيره، ولم يزل الله عزّ وجلّ يفعل ذلك به حتى كرّه إليه أحوال الجاهلية، وحماه منها فلم يجر عليه شيء منها، كل ذلك لطف به وعطف عليه وجمع للمحاسن لديه؛ فبالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل، وبالعمل تنال

الحكمة. وكل الآداب متلقيات عن المصطفى ﷺ فإنه مجمعها ظاهراً وباطناً. ولاشك أنّ التزكية كلّها آدابٌ، ولكل وقتٍ أدبٌ، ولكل مقام أدبٌ؛ فمَنْ لَزِمَ آداب الأوقاتِ، بَلَغَ مبْلَغَ الرِّجال، ومَنْ ضيَّع الآدابَ، فهو بعيدٌ من حيث يظنُّ القرب، ومردودٌ من حيث يرجو القبول. وأنّ أصل كلِّ خير ملازمةُ الأدب في جميع الأحوال والأفعال .

وشهدت صفحات الأمة أن منظومة الأدب في الإسلام جاءت متكاملة، جامعة بين العلم والعمل، والغيب والشهادة، وفي هذا تعظيم لشأن الأدب وإظهار لمكانته بما لا يخفى على أحد من العقلاء ؛ فالأدب صورة العقل، فصوِّر عقلك كيف شئت، والفضل بالعقل والأدب فمن أضافهما للأصل والنّسب فقد جمع المحامد ، ومَنْ تخلى عن الأدب فقد سلك درب الأسافل؛ لأن مَنْ ساء أدبه ضاع نسبه، ومَنْ ضلّ عقله ضلّ أصله، ولا شك أن حُسن الأدب يستر معايب الرجال .

ومما جاء في الأثر أن أبا حفص النيسابوري رحمة الله عليه ورد العراق فقال له الإمام الجنيد البغدادي رحمه الله، لما رأى أصحابَه وقوفاً على رأسه يأتمرون بأمره، متأهبين لخدمته: أدّبت أصحابك أدب السلاطين! ، فقال أبو حفص: « حُسْن الأدب في الظاهر عنوان حُسْن الأدب في الباطن »[1].

(١) الرسالة القشيرية، ص ٢٨٦، (٤٠ الأدب).

ث) ملازمة الأُسس الصحيحة التي عليها قِوام العبادات والمعاملات:

لمّا سطعت أنوار الهدى الإلهي على البشرية بالإسلام، وأشرقت شمس المعارف والمِنَح على الأمة بالقرآن والنبي الخاتِم ﷺ؛ تنوّرت العقول والقلوب، وأفاض الله عليها بمحامد أسمائه، وبسط فيها فتوح مننه، وتحوّلت كلمات الوحي على مدى قرون من الزمن إلى مناهج نورانية مؤصلة تنطق من نور مشكاته، وأخذ الرعيل الأول نصيبهم من هذه الأنوار ببركة الصحبة لرسول الله ﷺ، وتربيته لهم، وتزكيته لأرواحهم، وإعانتهم على أداء أوامر الله تعالى، وتهيئة أعمالهم وأحوالهم وأخلاقهم ليقاربوا الكمال في العبودية؛ وليصلوا إلى رتبة القبول، وقد تحوّلوا بذلك إلى منظومة متكاملة يرعاها الله تعالى، ويؤيّدها برسوله ﷺ، ويباهي بهم ملائكته، وكما جاء في الحديث المبيِّن لحال حنظلة رضي الله عنه، والذي تتبيّن فيه بعض الإشراقات التي لها الأثر في سلوك الأمة التعبدي، لما فيها من كثرة الإقدام والاستباق على الخيرات، وسرعة الإقبال على الله تعالى، وما صاحبها من سمو الأحوال، والتشوف إلى رفيع الدرجات، وشدّة المحاسبة لأنْفسهم، وما أمضوا عليه حياتهم الإيمانية من النظام والانتظام والمنهجية السليمة، فقد جاء بيان رسول الله ﷺ لواقع حالهم؛ بقوله: « .. **والذي نفسي بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم..** »[1]، وفي رواية لمسلم في صحيحه أيضاً: « ..**ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلّم عليكم في الطرق** »[2]، وفي رواية

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢١٠٦ - ٢١٠٧، برقم (٢٧٥٠).

(٢) ٨/ ٩٥، برقم (٧١٤٣)، (باب فضل دوام الذكر والفكر)، طبعة دار الجيل والآفاق.

لابن حبان : « .. **فقال رسول الله ﷺ لو تدومون على ما تكونون عندي في الحال لصافحتكم الملائكة حتى تظلكم بأجنحتها..** »[1]، وفي روايته الأخرى: « .. **لو تكونون على كل حال على الحال الذي أنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة بأكفكم ولو أنكم في بيوتكم..** »[2].

وسرى هذا النّور في الأمة، ولاشك أنّه متجدد في أبنائها وأجيالها ، مع مراعاة فارق السّبق في الانضمام إلى الإسلام، وبناء دولته، وتأسيس بنيانه في القلوب وعلى الأرض، ورتبة الصحبة لرسول الله ﷺ ، فإنّ فضل ذلك عظيم كريم .

وسار ورثة النبي ﷺ من السّابقين واللاحقين من عباد الله الصالحين على هديه في إتمام المسيرة، وإبلاغ الرسالة، وإيصال الموعظة ، والنّفع بالحكمة، حتى حفظ الله بهم الدين، وصانه عن ثلب القادحين، وجعلهم عند التنازع أئمة الهدى، وفي النوازل مصابيح الدجى؛ فهم ورثة الأنبياء[3] ، ومأنس الأصفياء،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/ ٥٥، برقم (٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٦/ ٣٩٦، برقم (٧٣٨٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١/ ١٠١ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ١٩٦، برقم (٢١٧٦٣) و(٢١٨٥٣) : أنّ رجلاً قدم من المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه – وهو بدمشق –، فقال أبو الدرداء: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول الله ﷺ ، قال: أما قدمت لتجارة ؟ قال :لا ، قال: أما قدمت لحاجة ؟ قال: لا ، قال : ما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ ، قال: نعم ، قال أبو الدرداء: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم مَنْ في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، =**

وملجأ الأتقيـاء، ومركز الأولياء، فله الحمد تعالى على قَدَرِه وقضائه، وتفضله بعطائه، وبرّه ونعمائه، ومنّه بآلائه .

وظهـرت آثـار التمسّـك بهـدي الكتـاب والسُـنّة مشرقـة في الأُمّـة ، ولاسـيما فيـما درجـت عليـه مـن منهـج قويـم، ومسـتند عظيـم في العبادات والمعامـلات؛ وباتـت متمسّـكة بكتـاب الله تعـالى، ومقتديـة بسـنَّة رسـوله ﷺ، آكلـة الحـلال، وكافّـة الأذى عـن نفسـها وغيرهـا، عاملة عـلى اجتناب الآثـام، وحريصـة عـلى التوبـة وتجديدهـا، وأداء الحقـوق على أحسـن وجه؛ يقـول الإمام سَـهْل بن عبد الله التسـتري (ت٢٨٣هـ) يرحمـه الله: « لا مُعِينَ إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى[1]، ولا عمل إلا الصبر... الأعمـالُ بالتوفـيق، والتوفـيق مـن الله، ومفتاحـها الدعـاء والتضرّع »[2].

= **لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما وَرَّثُوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر** » . فليُتنبّه إلى عظيـم همّتهـم رحمة الله عليهم في تعلّم العلم، ولاسـيما علم مَـنْ تخلّق بالقرآن قولاً وعملاً ، سـيدنا رسـول الله ﷺ ، وكيف كانوا يصرفون الأموال ، ويسـتثمرون الأعمار، ويُدققون في الأعمال من أجل تعلّم سـنتـه وإحيائـها، وكيف يتنقّلون في أسـفار بعيـدة من أجل تصحيح فكرة ، أو تحصيل فائدة، أو تحرّي سُـنّة، ولا شك أنّ مثـل ذلـك كثير في تاريخ الأمة، وهذه إحدى صفحـات أبنائها المشرقة ، وهي في الوقـت نفسـه باعث منير لهممنـا في أن نكون على ما كانوا عليـه من الحرص على الدين ، والاستزادة من العلم ، وحفظ حقوق أهلها في أي زمان ومكان .

(١) ومـما يوضّـح أصول هذا المنهج مـا روي في الأثر – كما في الرسـالة ١٠٨ – أن الإمام الجدّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: « سـادة النّاس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء » إشـارة منه إلى أن الجمع بين رتبتي الدنيا والآخرة إنّما يكون ببسط السّخاء بين الخلق، والتزام التقوى بالخوف من الحق جلّ جلاله .

(٢) طبقـات السـلمي ، ص ٢١١ ، وحليـة الأوليـاء ١٠/ ١٨٩ – ٢١٢، الرسـالة القشـيرية، ص٤٠٠، برقم (١٨).

ج) الاستعانة بالصبر على طريق المعرفة وفهم القرآن الكريم:

استعان السابقون يرحمهم الله بالصبر، وساروا بالتوكل، وتنوّروا بالمعرفة، ووطنوا أنفسهم على المحن من أجل الوصول إلى الغاية في العبادات، والحكمة من الإيجاد ؛ فتجسد في سلوكهم ومناهجهم الأثر الحقيقي للقرآن الكريم، يقول أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري (ت ٣٣٠هـ)، رحمة الله عليه: « في المِحَن ثلاثة أشياء: تطهير، وتكفير، وتذكير؛ فالتطهيرُ من الكبائر ؛ والتكفير من الصغائر؛ والتذكير لأهل الصفاء .. و التوكل ألا تعجز عن حُكم وقتك، والمعرفةُ ألا تُضيِّع حُكم وقتك »[1].

ولاشك أن بنزول البلاء تظهر حقائق الصَّبر، وعند مكاشفة المقدور تظهر حقائق الرضا، والمسلم يتعلّم من رجال الأمة السالفين رحمهم الله أن الرِّضا هو ما يُثاب عليه المرء، وهو المطلوب لاستقبال أقدار الله تعالى، كالصَّبر وثوابهِ بالنسبة إلى البلاء والمصائب، ولا شك أن أعرف الناس بالله تعالى وبكتابه أشدّهم مجاهدة في أوامره، وأتبعهم لسنّة نبيه ﷺ ، وأصبرهم على الحق والفضيلة .

* * *

(١) طبقات السلمي ، ص ٣٩١ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥١، الرسالة القشيرية، ص ٣٩٠، برقم (١).

المحـور الثالث

أثر تعاليم القرآن

في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع

المحـور الثالث

أثر تعاليم القرآن

في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع

من حيث :

أ- اتهام النفس وعدم الرّكون إليها ، وإعمال الحذر منها .

ب- معرفة علامات السعادة والشقاء، وما يُعد من أعظم الذنوب.

ت- المحافظة على تذكير قرّاء القرآن بواجبهم ، ومكانة السّابقين من أئمة المسلمين.

ث- تحقق السلوك السَّويّ بناءً على تعاليم كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

ج- الحرص على الدعاء وحُسن الظّنّ بإجابته ، والاستغفار للنفس والولد .

ح- تحقيق العزّ ، ولاسيما لحملة القرآن ، والشهادة بفيض نُبلِهم .

خ- المحافظة على العقل وأفضلية الإيمان ببركة القرآن الكريم .

د- ثبوت أجر المتمسك بالحق إذا اتُبعت الأهواء وآثر النّاس الدنيا .

ذ- تحريك النّفس والهمّة في أن نلقى الله تعالى بأحبّ الصحف المرفوعة إليه.

ر- تحصيل بشارة مَنْ قرأ القرآن الكريم وحافظ على قراءته .

ز- استحقاق مَنْ يُؤخَذ عنه القرآن المدح والتشجيع، وكذلك المتصدّر به.

س- تعلّم التعامل مع أشدّ الأعمال .

ش- ظهور البَرَكة على مَنْ عاش في ظلال القرآن وتعاليمه في حياته .

ص- شفاعة القرآن وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته .

ض- إصلاح منظومة الأُسرة حضارياً .

ط- رغبة المجتمع المسلم وسعيه إلى الكسب الحلال، والزهد بما سواه .

ظ- تنمية ثقافة فهم القرآن بلغة القرآن؛ للتأثر بمناهجه التربوية والحضارية والسلوكية.

ع- ظهور تفاعل أبناء المجتمع من الأعيان مع القرآن وأهله، وتعزز مكانتهما عندهم.

غ- مكانة أهل القرآن عند الملوك والأمراء والوزراء والدولة.

ف- الأمل المتجدد بهذه الأُمَّة وأجيالها ومقدّراتها .

* * *

أ) اتهام النفس ، وعدم الركون إليها ، وإعمال الحذر منها:

إن من آثار القرآن على هذه الأمة، ولا سيما في تربية الأرواح وتزكية النفوس في ضوء المعرفة بالله والفهم الصحيح للقرآن الكريم، - رغم القيام بالواجبات وأداء الحقوق - اتهام النفس، وعدم الركون إليها، والحرص على الحذر منها والتحذير من شرورها، وشدّة الخوف من المكر، ومحاولة اتقاء خاتمة السوء، والعمل على دفع الشقاء، والأخذ بأسباب النجاة، وسؤال الخاتمة الحسنة السعيدة ؛ وهو منهج عريض في الأمة تساءلت عنه أمّ المؤمنين عائشة رضي الله

عنها؛ فقد أخرج الترمذي رحمة الله عليه في السنن، أنّها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾[1] أنهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال ﷺ: « لا يا بنت الصِّديق، ولكن هم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون، ويخافون أن لا تُقبل منهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[2] »[3].

ولا شك أن ذلك الوجل بأسبابه وآثاره، والمسارعة في الخيرات بالأقوال والأفعال، والحرص على عدم التغافل عن القرآن، والإيمان بكونه المنهج الحق للبشرية جمعاء، وإقامته في النفوس والمجتمعات، ونفي نقيض ذلك عن الأمة وعن سلوك أبنائها في الحياة ؛ مما شهدت به صفحات التاريخ وأسفار الأمة المشرقة، ووعته قلوب وعقول أجيالها، وبقي بعض معالمه ظاهراً على أرض أمصارها إلى يومنا هذا.

ب) معرفة علامات السّعادة والشقاء، وما يُعد من أعظم الذنوب:

سجّل رجال الأمة الأثبات في صفحات تاريخها المشرق مواقف بناءة تجسّد عظيم فهمهم لكتاب الله تعالى ، وأثره في سلوكهم وضرورة المرحلة التي كانوا يعيشونها ؛ فقد أسهر القرآن عيونهم ، وأعمل عقولهم ، وحرّك قلوبهم،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٦١.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن، برقم (٣١٧٥)، وجاء في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٤٠٣ : « ورواه الحاكم في المستدرك كذلك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ».

وهيمن على كيانهم ومشاعرهم ، وأصلح أرواحهم وخواطرهم، وروّض أبدانهم، وقدّسهم ظاهراً وباطناً ، ومنحهم أسلوباً مميّزاً في الحياة والسلوك، وبعثهم على المحافظة على تعاليمه، والاهتمام به في الليل والنهار، علماً وعملاً، وتعلّماً وتعليماً ، وقراءة وتطبيقاً وتدبّراً ، ولا شك أن الإشراقات في ذلك واسعة، والشعع كثيرة ، منها :

* ما حدّث به إبراهيم النخعي رحمه الله ، أنّ خاله علقمة بن قيس (ت٦٢هـ) رحمة الله عليه، كان يقرأ القرآن في خمس ليالٍ، وقد قام بالقرآن في ليلة عند البيت الحرام[1] .

* ومنها: ما جاء في سيرة عمران بن تيم العطاردي البصري (ت١٠٥هـ) رحمة الله عليه، أنّه أخذ القرآن عرضاً على ابن عباس رضي الله عنهما، وتلقّنه من أبي موسى الأشعري رضي الله عنه خمس آيات خمس آيات، وكان يختم القرآن في عشر ليالٍ، وقد مات وله مئة وسبع وعشرون سنة حافلة مع القرآن الكريم في ليله ونهاره[2] .

* ومن هذه الصفحات المشرقة صفحات ذُكر فيها حمزة بن حبيب (ت١٥٦هـ) رحمة الله عليه ، وهو يحدّث عن نفسه فيقول : « نظرتُ في المصحف حتى خشيت أن يذهب بصري » . وكان عبيد بن موسى رحمه الله

(١) تنظر طبقات ابن سعد ٦/ ٨، وحلية العلماء ٢/ ٩٨، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢٩٦، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٥٢، برقم(١٤) .

(٢) ينظر مشاهير علماء الأمصار، ص ٨٧، وحلية الأولياء ٢/ ٣٠٤، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٣-٢٥٧، برقم(٩٣)، والنجوم الزاهرة ١/ ٢٤٣.

يحـدّث عـن مآثر حمزة فيقـول: « كان حمزة يقرأ القرآن حتى يتفـرّق الناس، ثم ينهـض فيصلي أربع ركعات، ثم يصلي ما بـين الظهر والعصر، وما بين المغرب والعشـاء » . وحدّث جيران حمزة رحمة الله عليه بما كانوا يلحظونه من سلوكه: بأنه كان لا ينام الليل ، وأنهم كانوا يسمعون قراءته يرتل القرآن [1].

ولعظيم فضل حمزة الكوفي يرحمه الله، وكريم صحبته للقرآن يحادثه الإمام أبو حنيفة النعمان رحمة الله عليه، فيقول له: شيئان غلبتنا عليهما ، لسنا نُنازِعُك فيهما : القرآن والفرائض - أي علم تقسيم الإرث والتركات- [2].

ولهـذه الوقائع وغيرها كثير كان مَنْ مضى يسـتنكر حالـة الهجران للقرآن في الأُمـة ، ويسـتحضر هيبة وخطورة الخطاب الإلهي على لسـان رسـوله ﷺ، وقولـه: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [3]،

---

(١) ينظـر وفيـات الأعيان ٢/ ٢١٦، وسـير أعلام النبـلاء ٧/ ٩٠-٩٧، برقـم(٣٨)، وغاية النهاية ١/ ٢٦١-٢٦٣، وشذرات الذهب ١/ ٢٤٠، روضات الجنات ٣/ ٢٥٣.

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ١١٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٣٠. ينظر: فيض القدير ٤/ ٣١٣.

وقال ابن حجر العسقلاني يرحمه الله في فتح الباري ٩/ ٨٦ : «.. واختلف السَّلف في نسـيـان القـرآن فمنهم من جعل ذلـك من الكبـائـر وأخـرج أبو عبيـد من طريـق الضحاك بـن مزاحم موقوفاً ، قـال: « ما من أحد تعلم القرآن ثم نسـيه إلا بذنـب أحدثـه ، لأن الله يقـول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ... ﴾ سـورة الشورى، من الآية ٣٠، ونسـيان القرآن من أعظم المصائب»، واحتجوا أيضاً بما أخرجه أبو داود، والترمذي من حديث أنس مرفوعاً : « عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سـورة من القرآن أوتيها رجل ثم نسيها » في إسـناده ضعـف، وقد أخـرج ابن أبي داود من وجه آخر مرسـل نحـوه، ولفظه: « **أعظم من حامل القرآن وتاركه** » . =

= ومن طريق ابن سيرين بإسناد صحيح في الذي ينسى القرآن كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولاً شديداً . ولأبي داود عن سعد بن عبادة مرفوعاً: « **من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم** »، وفي إسناده أيضاً مقال ، وقد قال به من الشافعية أبو المكارم والروياني واحتج بأن الإعراض عن التلاوة يتسبب عنه نسيان القرآن ، ونسيانه يدل على عدم الاعتناء به والتهاون بأمره ، وأنّ الرجل إذا حفظ آيات القرآن الكريم ثم نسيها إنما نشأ عن تشاغله عنها بلهو أو فضول، أو لاستخفافه بها وتهاونه بشأنها وعدم اكتراثه بأمرها فيعظم ذنبه عند الله لاستهانته العامة، وأخطرها إعراضه عن كلام الله جل جلاله .

واختلف في معنى (أجذم) فقيل : مقطوع اليد ، وقيل: مقطوع الحجة، وقيل: مقطوع السبب من الخير، وقيل: خالي اليد من الخير ، وهي متقاربة، وقيل يحشر مجذوماً حقيقة.

وقال القرطبي: من حفظ القرآن أو بعضه فقد علت رتبته بالنسبة إلى مَنْ لم يحفظه، فإذا أخلّ بهذه الرتبة الدينية حتى تزحزح عنها ناسب أن يعاقب على ذلك، فإنّ ترْك معاهدة القرآن يفضي إلى الرجوع إلى الجهل، والرجوع إلى الجهل بعد العلم شديد .

وقال إسحاق بن راهويه : يكره للرجل أن يمرّ عليه أربعون يوماً لا يقرأ فيها القرآن، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود : بئسما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت.

ثم إنّ نعمة القرآن وتعهّده نعمة عظيمة أتحف الله تعالى بها أحبابه من خلقه ليقوموا بحقها، ويشكروه عليها ، فهو سبحانه موليها فلا بد ألا يقابلوها بالكفر، ويتضح مما تقدّم: أن نسيان القرآن كبيرة ولو بعضاً منه، وهذا لا يناقضه خبر « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » لأن المعدود هنا ذنباً؛ التفريط في محفوظه ، وهذا متحقق بعدم تعاهده، وترك مدارسته ، وترك التفكّر في معانيه ، وهجران منهج السّلف يرحمهم الله تعالى في تفكّرهم ووقوفهم على مواعظه وحِكَمِه؛ إذ جاء في تفسير الثعالبي (٢/ ٣٦٩) في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (٩) سورة الإسراء: =

وظهـر تجريم مَنْ يغفل عن القرآن بعد تعلّمه، يقول أبو العالية رُفَيْع بن مهران البصري(ت٩٣هـ) رحمة الله عليه – فيمَنْ مـنَّ الله تعالى عليه بالقرآن ومعرفة مـا فيـه، وهو ينام عنه ، أو يهجـره في ليلته دون قراءة لآياتـه أو تدبّر لمعانيه، أو أُنْسٍ بربه وكلامه–:« كنّـا نعدّ من أعظم الذَّنب أن يتعلّم الرجل القرآن ثم ينام لا يقرأ منه شيئاً – حتى ينساه – » [1].

وهـذا الوجـدان المتولد من التعلّم والحفظ يدفع إلى الشـعور بالسَّـعادة في حـال الطاعة، وإلى النهاية السـيـئـة والشـقاء والشـقاوة في حـال التقصيـر وإن الإدمـان على تـرك القرآن والوقـوع في هجره يحقق الوقوع في المعصية[2]؛

= « أنّ ابـن وَهْـبٍ قال: سـمعتُ مالكاً يقول : إن اسـتطعت أن تجعل القـرآن إماماً ، فافعـلْ ، فهـو الإمـام الذي يهـدي إلى الجَنَّة . قال أبو سـليمان الدارانيُّ : ربَّـما أقَمْتُ في الآية الواحدةِ خَمْسَ ليالٍ، ولولا أني أدَعُ التفكُّر فيها ، ما جزتها ، وقال : إنما يُؤتَى على أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة ، أراد آخرها ..» .

(١) صفـة الصفـوة ٣/ ٢١١ ، برقـم (٤٨٥) . وهـو يرحمـه الله القائـل : « تعلّمـوا القرآن، فـإذا تعلمتـموه فلا تـرغبوا عنه، وإيـاكم والأهـواء فإنـها توقع العداوة والبـغضاء بيـنكـم » . تنظـر أقوالـه وأخبـاره في الثقـات لابن حبـان ٤/ ٢٣٩، وحليـة الأولياء ٢/ ٢١٧، وطبقات الفقهاء للشـيرازي ٨٨، وسيـر أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧، برقم(٨٥)، وطبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٧٢ .

(٢) وجـاءت في كتـاب أبرز أُسـس التعامل مع القـرآن الكريم ، للدكتور عيـادة بن أيوب الكبيـسي فوائـد مهمـة تتعلّـق بهـذه الموضوعـات ، ولاسـيما في (ص ٥٨) في بيان ما احتملتـه أحاديث ذم نسـيان القرآن عند بعض العلماء ، وأنّ مَـنْ ترك العمل بالقرآن التحق بزمرة المذمومين، فيقول: « حمل بعض العلماء الأحاديث الواردة في ذم النسـيان على ترك العمل بالقرآن ؛ لأنّ النسيان هو الترك، لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ..﴾ سـورة الأنعـام من الآيـة ٤٤ : أي تركـوا ، ولقوله تعـالى: ﴿.. نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ سـورة الحـشر مـن الآيـة ١٩ : أي تركـوا طاعـة الله فـترك رحمتهـم. وممن =

وسئل الإمام المُحدِّث الزاهد أبو عثمان سعيد النيسابوري (ت ٢٩٨هـ) رحمة الله عليه: ما علامة السَّعادة والشقاوة ؟ فقال: « علامة السعادة أن تُطيعَ الله تعالى، وتخافَ أن تكون مردوداً. وعلامة الشقاوة أن تعصي الله وترجو أن تكونَ مقبولاً »[١].

وهذا الرَّصد لعلامات النجاح والسعادة من قِبَل السّابقين يرحمهم الله إنما جاء من خلال مسيرتهم الحافلة في تزكية الأرواح والعقول والنفوس، والأقوال والأفعال وتنقيتها من الكدورات، وتنزيهها عن التعلّق بالدنيا، وشبهها، وشهواتها، وهو بمثابة الهدية لأجيالهم المعاصرة، وكذلك اللاحقة بركبهم إلى يوم القيامة ؛ يقول أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني (ت: بعد ٣٠٠ هـ) رحمه الله تعالى:« من علامات السعادة على العبد تيسيرُ الطاعة عليه، وموافقته للسُّنّة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن خُلُقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاتُه لأوقاته »[٢].

= ذهب إلى هذا سفيان بن عُيينة، وقال: وليس من اشتهر بحفظ شيءٍ من القرآن وتفلّت منه بناسٍ، إذا كان يُحلّ حلاله ويُحرّم حرامه. وأيّده القرطبي بقوله: هذا تأويل حسن وفيه توجيه، إلا أنّ الله تعالى أثنى على من كان دأبه قراءة القرآن، وتوعّد مَنْ أعرض عنه، ومَنْ تعلّمه ثم نسيه... » .

(١) وهو القائل : « سرُورك بالدنيا أذهبَ سرُورك بالله من قلبك، وخوفُك من غيره أذهب خوفَك منه عن قلبك، ورجاؤُك مَنْ دونه أذهب رجاءك إيّاه من قلبك » . تنظر أقواله وأخباره في طبقات السلمي، ص ١٧٠ – ١٧٥ ، و حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤ ، ووفيات الأعيان ١/ ٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٢ ، برقم (٣٣).

(٢) طبقات السلمي ، ص ٢٤٧، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٥٠ .

ت) المحافظة على تذكير قرّاء القرآن بواجبهم، ومكانة السّابقين من أئمة المسلمين:

يلحظ القارئ لصفحات الأمة المشرقة وسيرة السابقين فيها أنَّهم يرحمهم الله تعالى خرَّجوا أجيالاً من فتوّة الصالحين والعلماء العاملين، والفقراء إلى الله تعالى الصابرين المجاهدين الثابتين على الحق بدوام الفقر إليه جلّ جلاله، الذين عاشوا على حفظ السِّر مع الله تعالى على الموافقة، وحِفْظ الظاهر مع الخَلْقِ بحُسْنِ العِشْرة، واستعمال الخُلُقِ في سائر حالاتهم فحققوا الصورة الحضارية للأُمة، وظهر أثر القرآن في سلوكهم ومجتمعاتهم ؛ ومما يروى في ذلك أنّ أبا موسى الأشعري (ت٤٤هـ) رحمة الله عليه جمع القرّاء، ليذكّرهم بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1] فقال لأصحابه: « لا تُدخلوا عليّ إلا مَنْ جمع القرآن- أي حفظه - »، فدخلوا عليه زهاء ثلاثمائة رجل، فوعظهم، وقال: « أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب » [2].

---

(١) سورة الحديد ، الآية ١٦ .

(٢) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، للإمام أبي نعيم الأصبهاني ٣/ ١١٥، برقم (٤٢)، تحقيق محمد حسن الشافعي ، وحلية الأولياء ١/ ٢٥٧ .
وفي ذلك أيضاً إشارة إلى أنواع القلب حال تلبّسه بالقسوة ، والتي بيّنها الحقّ جلّ جلاله بقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة ، الآية ٧٤. =

وقد جاءت كلمات صفحات الأمة المشرقة وسطورها وحروفها محررة بمداد من نور ، تبيّن كيف كان رجالها الأمناء لا يدّخروا جهداً في تخريج الأجيال، وتنمية قدراتهم ؛ ليصل نور القرآن إلى العالم كلّه ، وتنبثق في القلوب معاني الإيمان ، وتمتلئ أوعيتهم بفيض القرآن والحكمة.

* ومن ذلك أيضاً: ما حدّث به ضِرار بن صُرَد يرحمه الله أنّه سمع سُليم بن عيسى (ت١٨٨هـ)رحمة الله عليه، وقد أتاه رجل فقال : يا أبا عيسى، جئتك لأقرأ عليك بالتحقيق- أي ضبط مخارج الحروف وصفاتها والعناية بالألفاظ والرسم - فقال له سُليم: (يا بن أخي شهدتُ حمزة الزيات وهو إمام القراء في الكوفة (ت١٥٦هـ) رحمة الله عليه، وأتاه رجل في مثل هذا فبكى، وقال : يا بن أخي إنما التحقيق صون القرآن، فإن صنته، فقد حققته، هذا هو التحقيق ، فمضى الرجل ولم يقرأ عليه)[1] . وهذا الموقف

= ومما يُسجّل هنا: أنّ العلماء أشاروا في كتبهم ونصائحهم إلى الطرق الصحيحة في فهم القرآن والوقوف على معانيه، وإلى استحضار وجدان تحريك القلوب وحمايتها من الغفلة، منها: ضرورة أن يُقرأ القرآن، و يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي، وأن يُتَدَبَّر على أنّه توجيهات حيّة، تتنزّل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنيرَ الطريق إلى المستقبل، لا على أنّه مجرد كلام جميل يُرتَّل، أو على أنّه سجلٌ لحقيقةٍ مضتْ ولن تعود، ولن تنتفع الأمّة اليوم بهذا القرآن حتى تقرأه لتلتمس عنده توجيهات حياتها الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كان مَنْ قبلنا يتلقاه، وحين تقرأ القرآن بهذا الوعي ستجدُ عنده ما تريد، وستجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حيّة، تنبض وتحرّك أبناء الإسلام نحو الرقي الحضاري الشامل؛ الروحي والبدني والعمراني الدنيوي والأخروي.. والله المستعان .

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ١٣٩-١٤٠، برقم(٥١).

يُعلِّم طلاب الرّسوم والألفاظ والألقاب والشهادات والإجازات أنّ العبرة بالمعاني والمضامين والتطبيق ، ولاسيما فيما يتعلّق بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وشريعته الخاتمة ، فحري بنا أبناء اليوم والغد أن لا نضيع دمعات الإمام حمزة وهو يعلّم بآثارهنّ الأجيال اللاحقة بركب الأئمة أنّ إعمال النوايا وتحريك الفهوم، وضبط مخارج الحروف وصفاتها، مع التحقيق في صون القرآن، والوقوف عند الأوامر، والانتهاء عن النواهي هو الغاية من آلات العلوم ؛ وتحقيق الفهم عن الله هو المبتغى من تحقيق العلم بها .

* ومن المواعظ العظيمة في صفحات الأمة ما حدّث به الكسائي رحمه الله، قال: كنت أقرأ على حمزة الزيات فجاء سُليم بن عيسى، فتلكأتُ، فقال لي حمزة: تهاب سُليماً ولا تهابني!، فقلتُ: « يا أستاذ أنت إن أخطأتُ قوّمتني، وهذا إن أخطأت عَيّرني »[1].

(١) ولا شك أنّ هذه الواقعة ليست على إطلاقها ؛ ومما يُنبّه عليه هنا : أنّ الأُمّة درجت على ضرورة بيان أحوال الرجال، ولاسيما مَنْ يؤخذ عنهم العلم، ومَنْ يُوثق بهم في الضبط، ومَنْ يتوجّب حفظ مكانتهم بين الخلق، وإنّ بيان الشمائل وأحوال الرجال جرحاً وتعديلاً مما تناقله علماء الأُمة بالسّند ، وإنّ النقد لحفظ الدِّين أصبح من الدِّين، وإنّ ما أصاب الزّيات هو من قبيل ما يصيب العلماء من الوجل وخوف العاقبة. من قبيل ذلك ما حصل للإمام ابن أبي حاتم الرازي عندما بلغه قول ابن معين :(إنّا لنطعن على أقوام لعلّهم حطّوا رحالهم في الجنّة منذ أكثر من مائتي سنة) من أحوال البكاء، والارتعاد ليديه حتى سقط كتاب الجرح والتعديل من يده، وكيف كان يستعيد الحكاية من محدّثها ليزداد بها وجلاً . وعلّق الإمام الذهبي على الزمن بقوله: لعلّها من مئة سنة، فإنّ ذلك لا يبلغ في أيام يحيى هذا القدر ، وأضاف الذهبي معلّقاً على الحكاية: أصابه -أي ابن أبي حاتم-على طريق الوجل وخوف العاقبة؛ وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النّصح لدين الله تعالى والذبّ عن سنّة رسوله ﷺ. تنظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٨ ، وتذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣١ .

فتنبّـه يـا رعاك الله: فإنّ لـكل فاضل حقه، فلابد من حفظه له، ولاشـك أن هذه الواقعة تعلّمنا وتعلّم الأجيال اللاحقة ضرورة مراعاة الحالة النفسـية لـدى طـلاب العلم؛ فـإنّ البناء النفـسي السـليم ، والثقة بالأسـتاذ، والأمان لجانبـه من أهم مقومات النجاح، وعلى مَنْ حمّلهم الله تعالى مسـؤولية التعليم أن ينهضـوا بأنفسـهم لتنهـض بهم الأجيـال، وعلى من تصدّر عـلى الناس أن لا يحـطّ من أقدارهم ، ولا يشـذّ بنفسـه عن خلـق الله، وعليه أن يطهّر نفسـه مـن النظرة الدون لطلاب العلم وسـائر الخلـق، الذين ربما هم عند الله أفضل منـه ، وعـلى مَنْ يرى في نفسـه الصـدارة ويمنحها العالمية أن يسـتحضر مدى تقصـيره تجاه العـالَم الذي يزعم صدارته ؛ فلو أقام الله تعالى عليه ميزان العدل ونوقش فيما منحه لنفسـه سـيرى عندها فارق عالميته وحقيقة تعالمه ، ويتضح له نكت علمه أمام محيط جهله ، ثمّ إن سـائر العلوم المتعلّقة بالشريعة إنما هي منقولـة ، والذين يتصدّرون لتعليمها إنما هم نقلة ، فالعلماء قد مضوا إلى ربهم بعـد أن تركـوا للأمة إرثاً عظيـماً، وكلّ من جاء بعدهم إنما هـو ناقل لإرثهم، وتجديـده إنّما يكـون في طريقة تناوله للنصوص المنقولة، وفي وسـائل عرضها عـلى جمهـور الأمة، على أن الكثير من هـذه الطرق أصبح تقليديـاً متوارثاً، ثم إنّ العقـول والدماء المحرِّرة والناقلة لأفكار مَنْ سـبق إمّا مؤيّدة داعمة ، وإما ناقمة معارضة، والمعتدل الوسطي قليل في سائر الميادين .

والصحيـح : أن يـوازن الإنسـان في نقلـه، ويمنـح عقلـه فرصـة التأمـل لكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ ، ولا يحتقر شيئاً من تراث الأمة ، أو أبنائها،

ويحفظ لكل ذي حق حقه، وقد قال عبد الواحد بن أبي هاشم رحمه الله : سأل رجلٌ ابنَ مجاهد البغدادي رحمه الله (ت ٣٢٤ هـ): لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يُحمل عنه ؟!، فقال ابن مجاهد: « نحن أحوجُ إلى أن نعملَ أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا، أحوجُ منّا إلى اختيار حرف يقرأ به مَنْ بعدنا»[1].

وبهذا يعلّم رحمة الله عليه كلّ مَنْ جاء بعده ضرورة الحرص على الأصول الموروثة، ولا سيما المجمع عليها، مع استحضار التواضع ، ومعرفة قدر النَّفس فيما تسوق إليه أو تشط فيه، وكذلك الحرص على عبور الأُمة مرحلة معاناتها المتجددة لئلا يظهر في مستقبلها ما تعانيه أجيال اليوم ، ولا سيما في بعض متصدريها الذين يدعون إلى أنفسهم بدل الدعوة إلى الله تعالى، وإلى آرائهم بدل الحق والفضيلة، وإلى فهومهم بدل إعمال العقل في البحث عن الدليل ، وقد أشغلوا الذهن في تحصيل زخارف الدنيا وفُتاتها بدل الوقوف على مرامي النصوص الكريمة وآثارها في السلوك، وحكمتها في حفظ النفوس والمجتمعات وبنائها. عافانا الله من الادعاء ، وطهّر الأجيال القائمة، وسلّم اللاحقة من هذا البلاء .

ثمّ إننا لنقف وقفة إجلال وإكبار لأولئك الذين سطّروا في سفر تاريخ هذه الأمة صفحات مشرقة، وأورثوا أجيالها آثاراً عظيمة من العلوم والمعارف، والأقوال والأفعال والمواقف، وكان لسيرتهم، المدى الكبير في استنفاد مدادها، وهم بحق وإن اختلف زمانهم عن زمن النبّوة إلا أنّ معالمهم ومناهجهم وآثارهم، ترشد إلى امتداد تلك المرحلة، وبقاء جذوة مشكاة النبّوة الخاتمة

---

(١) ينظر المنتظم ٦/ ٢٨٣ ، (٣٤٢)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢٧١، برقم(١٨٦) .

وبركتها متوقّدة متأصّلة فيهم وفي آثارهم رضي الله عنهم، وسارية بتوفيقه تعالى فيمن بعدهم ؛ يقول تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[1]، فكأنّ النص يتجدد تقعيده في كل مرحلة من مراحل تطوّر الأمّة ؛ ليبقى ختام الأنبياء وخاتمهم ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ومَنْ على أثرهم في رفعة ذِكْر دائم، ولتستمرّ نفحته الإيمانية نابضة في أجيال الأمة من الصالحين، وباعثة لهممهم ليصلوا إلى رتبة المعيّة مع رسول الله ﷺ وسنته، ولا شكّ أن هذه المناهج والأفكار والصفحات المشرقة، لتزوّد أبناء الأُمة من المعاصرين واللاحقين بأنواع من الطاقات عظيمة، وتجعلهم يرتقون ويترقّون، ويتشوّقون إلى رتبة الذين كانوا معه ﷺ ؛ لتبقى الأمة في انطلاقتها الأولى والآخرة ناهضة نحو العلياء، ولتحفظ ثوابت الدين في كل زمان ومكان، وإن كنّا ندرك عظيم ما تعانيه الأُمة اليوم في سائر مؤسساتها من تقصير ، وقصور في إظهار عظمة الإسلام، ومكانة رسوله الخاتم ﷺ، وإبراز الصورة الحضارية المشرقة لأولئك السابقين الذين استقرّت لديهم مفاهيم الأصول بما فتح الله عليهم من عقول، وحُررت سائر استنباطات العلوم بمداد أقلامهم لما رزقوه من جليل الفهوم ؛ فكانوا صراط الوحي إلينا ، ونوره الحي في ضمائرنا وتأملاتنا، ولا أجلّ من قول

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

الإمام البصري أبي عمرو بن العلاء التيمي (ت١٥٤هـ) رحمه الله تعالى في مثل هذا المقام إذ يقول: « إنّما نحن فيمَنْ مضى كبَقْلٍ في أُصول نخْلٍ طوال »[١].

وعبارة الإمام حمدون القصّار (ت٢٧١هـ) رحمة الله عليه وهو يقول: « مَنْ نَظَرَ في سِيَرِ السَّلفِ عَرَفَ تقصيْرَهُ، وتَخَلُّفَهُ عن دَرَجَاتِ الرِّجال »[٢].

ث) تحقق السلوك السَّوي بناءً على تعاليم كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ :

لا شك أن المدرسة النبوية وما نتج عنها من مدارس في أمصار المسلمين إلى يومنا قد تنوّعت في معالجة العديد من القضايا التي طرأت على الأجيال منذ عصر النبوة وكذلك سائر ما يطرأ عليها إلى يومنا هذا، وأنّ هذه المدارس قد رسّخت قيم المنهج الأصيل في التعامل مع الحدث، قلّ أو عظم خطره، وأفاضت بالرؤية الشمولية الفاعلة المستندة على الوحي الإلهي في علاج قضايا الأُمّة ، والمجددة في أبنائها أمل عبور اختبار الدنيا بما كان عليه رسول الله ﷺ من الثبات واليقين، وسائر الأئمة السابقين من الصحابة والذين كانوا على المنهج رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؛ من علم بكتاب الله تعالى وسنّة

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٤، برقم (٣٩) .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص٤٢٦، وتنظر حلية الأولياء١٠/ ٢٣١، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٠، برقم (٣٧)، ودائرة معارف البستاني ٧/ ١٧٣ .

رسـوله ﷺ، وبـما توارثوه من مناهج مسـتقيمة تقرّب إلى الله تعـالى، مبنيّة على العلـم والمعرفة، وتتمتع بأسـس متينـة رصينة، وفهم حصيـف؛ وهذا ما وجّه إليـه الإمـام الحافظ المحدّث أبو سـعيد أحمـد بن محمد البـصري (ت٣٤٠هـ) رحمة الله عليه، من خلال بيانه لمعاني المعرفة بالله تعالى ، وأنّها مبنيّة على الاعتراف بالجهـل أمـام علم الله تعـالى، وأنّ تزكية الروح والبدن، وتحصيـل وافر التربية مبنيّ على ترك الفضول، وأنّ الزّهد مبنيّ على أخذ ما لابدَّ منه، وإسقاط ما بقي من علائق الدنيا، وأنّ المعاملة كلّها استعمال الأولى فالأولى من العلم، والتوكُّل كلّه ترك الاعتماد على أحد إلا الله سبحانه، وأنّ الرّضا كلّه ترك الاعتراض على قَـدَر الله عزّ وجـلّ، وأنّ المحبَّة كلّها إيثـار المحبوب على الـكلِّ، والعافية كلّها إسـقاطُ التكلّف، والصبر كلّه تلقِّي البلاء بالرَّحْب، والتفويض كلّه الطمأنينة عند الموارد خيراً كانت أم شراً، واليقين كلّه ترك الشكوى عندما يُضادّ قضاؤه وقـدره مراد العبد، وأنّ الثـقة بالله تعالى علـمُ العبد أنّه به وبمصالحه أعلم من العبد بنفسـه (١).

(١) وهـو رحمـة الله عليـه القائـل : « أخـسر الخاسريـن مـن أبدى للنـاس صالـح أعماله ، وبـارز بالقبيـح مَـنْ هو أقرب إليه من حبل الوريد ». وإشـارة القرب هـذه يذكّر فيها بقـول الله تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ سورة ق ، الآية ١٦ . تنظر حلية الأولياء١٠/ ٣٧٥، والرسالة القشيرية ، ص٣٩٤، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٧، برقم (٢٢٩).

ج) الحرص على الدعاء وحُسن الظّنّ بإجابته ، والاستغفار للنفس والولد ؛ ليكون من أهل القرآن وتأويله وفهمه، وليرى أثره في سلوك الفرد والمجتمع :

لا شك أن في صفحات الأمة المشرقة عبارات براقة ذات مبنى ومعنى، استحقت أن تكتب بماء الزعفران المذهّب ، لاسيما وهي تخطّ دعوات النبي الكريم ﷺ لأبناء الأمة وأجيالها، بأن يرزقهم الله العلم في القرآن لفظاً وفهماً وتأملاً ، وهي نعمة باقية في الأمة ببركة ترداد دعواته ﷺ ، والأخذ بأسباب تحقيقها، وكذلك لما لهذه الدعوات من أثر ظاهر على سلوك الفرد والمجتمع. فمن هذه الأسطر المنوَّرة والمواقف والأدعية المأثورة المحبّرة التي تنهض بأرواح وهمم أبناء الأمة:

* استغفار النبي ﷺ لعموم المؤمنين والمؤمنات ، وهو من ضمن خصائصه ﷺ، يقول الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[1] ، وكذلك بما ثبت في الأثر في معنى قوله تعالى: ﴿.. وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

* وكذا ثناؤه ﷺ عليهم ؛ فمن هذا الثناء ثناؤه على قراءة الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، عبد الله بن قيس (ت٥٠ هـ ،و قيل بعدها) رضي الله

(١) سورة محمد، الآية ١٩ .

(٢) سورة التوبة، من الآية ١٠٣ .

عنـه، وكان ممـن ولي زبيد و عدن للنبي ﷺ ، وممـن خصّه ﷺ بالدعاء ، كما في حديث أبي موسى الأشعري ، قال: قال النبي ﷺ: « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه » [1].

* وكذلك اسـتغفاره ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري السُّـلميّ رضي الله عنـه؛ إذ كان ممـن رَوَى عن النبـي ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَـلِيٍّ وآخرين، وروى عنـه أولادُهُ مُحَمَّـدٌ وعَقِيلٌ وعبد الرحمن ، وكذلك عطاء بن أبي رَبَاحٍ ومحمد بن المُنْكَدِر وَعَمْرُو بن دينار وغيرهم .

وكان ممـن شـهد العَقَبـة مـع أبيه ، وأراد شـهود بدر، فخلفـه أبوه على أخواته، وكنّ تسـعاً، وكذا خلفه يوم أحد، فاستشـهد أبـوه يومئذ ...وغَزَا مَعَ النبي ﷺ تِسْعَ عَشْرَةَ غَزْوَةً .

وَنال الخيرية رحمة الله عليه بشـهادة النبي ﷺ لأهل الْحُدَيْبِيَةِ وقوله لهم : « أَنْتُـمْ خَيْرُ أَهْـلِ الْأَرْضِ » [2]، وكانوا ألفاً وأربعمائة وجابر بن عبد الله منهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

وثبت اسـتغفار النبي ﷺ له لَيْلَةَ الْبَعِيرِ خَمْسًـا وَعِشْرِيـنَ مَرَّةً ؛ فقد أخرج

---

(١) أخرجـه الإمـام البخـاري في صحيحه ٥/ ٢٣٣٢ ، بـاب (١٨) . وقد جاء في الصحيح أيضـاً ٤/ ١٥٧١ ، برقـم (٤٠٦٨)، بـاب (غـزوة أوطـاس)، ولفظـه: « فقلـت – القائل أبو موسى الأشعري –: ولي فاستغفر ، فقال – أي النبي ﷺ: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً .. ».

(٢) أخرجـه الإمـام البخاري في الصحيـح ٤/ ١٥٢٦ ، برقم(٣٩٢٣)، بـاب غزوة الحديبية. تحقيق : د. مصطفى ديب البغا.

الطيالسي في مسنده عن جابر رضي الله عنه أنّه قال:« استغفرَ لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمساً وعشرين مرة »[1].

قال هشام بن عروة واصفاً مسيرة جابر بن عبد الله في الدعوة إلى الله والتخلّق بأخلاق أهل القرآن والحديث: رَأَيْت لَهُ حَلْقَةً فِي الْمَسْجِدِ تَأْخُذُ عَنْهُ ، وتوفي بالمدينة سنة (٧٨هـ) وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان [2].

وقد كانت الأُمة تعمد إلى الاستغفار لعموم المؤمنين وخواصهم من أولي الأرحام في النَّسب والعلم والصحبة، وهو من الهدي الموروث في رجال الأمة السّابقين؛ فمن ذلك ما جاء في الأثر أن الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه كما حدَّث عن نفسه وسلوكه تجاه أصحاب الفضل على الأمة أنه ما بات منذ ثلاثين سنة إلا وهو يدعو للشافعي رحمه الله ويستغفر له[3]؛ حتى سأله ولده عبد الله: أي رجل كان محمد بن إدريس الشَّافعي؟! لما سمعه يختصه بالدعاء

---

(١) ٣/ ٢٩٧ ، برقم (١٨٤٠). وأخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٦٩١ ، برقم (٣٨٥٢) ، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب .
ومعنى قوله : (ليلة البعير) ما روي عن جابر من غير وجه أنه كان مع النبي ﷺ في سفر فباع بعيره من النبي ﷺ واشترط ظهره إلى المدينة . يقول جابر: ليلة بعت من النبي ﷺ البعير استغفر لي خمساً وعشرين مرة . وكان جابر قد قُتل أبوه عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد وترك بنات فكان جابر يعولهنّ وينفق عليهنّ ، وكان النبي ﷺ يبرّ جابراً ويرحمه لسبب ذلك .وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ١٦/ ٩١ برقم (٧١٤٢) ، قال محققه شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح .

(٢) ينظر الثقات لابن حبان ٣/ ٥١ ، برقم(١٧١). وطرح التثريب ١/ ٤٩ . والتحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي ١/ ١٥٤ .

(٣) جاء في وفيات الأعيان ٤/ ١٦٤ ، بتحقيق إحسان عباس: « قال أحمد: ما بتّ منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له ».

ويكثر منه له، فأجابه الإمام أحمد:(كان الشَّافعي كالشّمس للدنيا، والعافية للناس، فهل لهذين من خلف، أو لأحد عنهما من عوض)[1] .

ومنهم الإمام المقرئ العابد الصالح أبو حمدون الذُّهلي البغدادي(ت:بعد ٢٢٠هـ) رحمة الله عليه، الذي ذاع صيته في الإتقان والقناعة والعبادة والتقلل من الدنيا ؛ إذ جاء في سيرته أنّه اتخذ صحيفة كتب فيها أسماء ثلاث مئة نفس من أصحابه، يدعو لهم كلّ ليلة ، فنام عنهم ليلة ، فقيل له في النوم : لم تُسْرِج مصابيحك !، فقعد فأسرج وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتى فرغ[2] .

* ومن صور حثه ﷺ المجتمع على الاهتمام بالقرآن: امتداحه ﷺ للأصوات الحسنة بالقرآن، ومنها أصوات الأشعريين عند قراءتهم القرآن بقوله: « **إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار ومنهم حكيم** .. » [3] .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٦٦ (دار الكتب العلمية)، ووفيات الأعيان ٤/ ١٦٤، برقم(٥٥٨)، تحقيق إحسان عباس، وتاريخ دمشق ٥١/ ٣٤٨، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٤٦١ (ذكر أئمة المذاهب الأربعة).

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٦٠، برقم (٤٩٢٧)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢١١، برقم (١٠٦).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٥٤٧، برقم (٣٩٩١)، والإمام مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٤٤ برقم (٢٤٩٩). قال الإمام ابن حجر العسقلاني في الإصابة في معرفة الصحابة : « حكيم الأشعري لا أعرف له خبراً سوى ما وقع في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: « **إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل** (أي إلى المسجد – أو منازلهم) **ومنهم حكيم إذا لقي الخيل**... » فذكر الحديث. استدركه أبو علي الغساني، وقد زعم ابن التين وغير واحد ممن شرح البخاري أن قوله: « ومنهم حكيم » صفة رجل منهم غير مسمى، وكذا حكاه عياض عن شيخه أبي علي الصدفي، والله أعلم ».

وفي هـذا نلحـظ تحفيزه ﷺ لأصحابه وعموم أبناء الإسـلام على تحسـين القراءة ، وعلى فضل منزلة صاحب الأداء المتقن في القرآن، ولاسـيما مَنْ جوّده وتميّز فيه، من ذلك قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: « **يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود** »[1] .

وقولـه ﷺ: « **يقـال لصاحب القـرآن اقرأ وارتق ورتل كـما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها** »[2] .

ونلحظ أن أثر القرآن في سـلوك المجتمع المسـلم قد ظهر جلياً في سـلوك مجتمع الأشعريين الذين امتدحهم رسول الله ﷺ لمّا ظهرت شمائلهم وأحبّها الله ورسوله ﷺ فيهم؛ من ذلك ما حدّث به أبو بردة عن أبي موسى قال : قال رسـول الله ﷺ: « **إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعـوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسـموه بينهم في إناء واحد بالسـوية فهم مني وأنا منهم** »[3].

---

(١) أخرجـه الإمـام البخاري في صحيحـه ٤/ ١٩٢٥ ، باب (٣١) حسـن الصوت بالقراءة للقـرآن، برقـم (٤٧٦١). وأخرجـه الإمـام أحمـد في مسـنده٢/ ٣٥٤ ،برقـم: (٨٦٣١)، ولفظـه: « لقـد أُعطـي أبو موسـى مزامـير داود » . وأخرج الهيثمي في مجمـع الزوائـد ٩/ ٣٥٩ ، عـن سـلمة بـن قيس أن النبي ﷺ مرَّ على أبي موسـى وهـو يـقرأ ، فقال: « **لقد أوتي هذا من مزامير آل داود** » ، وقال عقبه : رواه الطبراني وإسناده جيد .

(٢) أخرجه الإمام النسـائي في فضائل القرآن ١/ ١١٤ ، برقم (٨١) ، والحاكم في المسـتدرك على الصحيحين ١/ ٧٣٩ ، برقم (٢٠٣٠)، والإمام البيهقي في شُعب الإيمان ٢/ ٣٩١، برقم (٢١٥٧) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٤٤ ، برقم (٢٥٠٠).

* وكذلك من السلوك المحفوظ في الأمة تأثرها بهدي النبوة والقرآن وتواتر دعائه ﷺ لِمَنْ يُذكِّر أهل الإسلام بالقرآن؛ لاسيما إذا أُنسي المسلم بعض آياته ، من ذلك ما جاء عن أمّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ في سورة بالليل ، فقال: « **يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا** »[1].

* ومن أدعيته ﷺ لعبد الله بن عباس (ت٦٨هـ)، رضي الله عنهما ، قوله: « **اللهم علّمه التأويل، وفقّهه في الدِّين** »[2] ، وبهذا فإنّه ﷺ قد دعا لابن عباس أن يرزقه الله تعالى علم تأويل كتابه، ولا شك أن الفهم عن الله عزّ وجلّ هو فقه في الدين ، ووقوف على حِكَم تشريعه . وتحققت دعوته ﷺ، فلم يكن على وجه الأرض في زمانه أحد أعلم منه بكتاب الله تعالى وفقهه؛ فهو الحَبْر والبَحْر، وفي ذلك حدّث عكرمة عن فقه ابن عباس في سياسة الناس ، وكيفية موعظتهم، وتحديثهم عن الله عزّ وجلّ ، فقال: قال ابن عباس: « حدِّث الناس كل جمعة مرة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاث مرار ، ولا تملّ الناس هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملّهم ، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٩٢٢ ، برقم (٤٧٥١) . وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١/ ٥٤٣ ، برقم (٧٨٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٦٦، والحاكم في مستدركه ٣/ ٥٣٤ ، وصححه ، ووافقه الذهبي على ذلك.

السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك »[1] يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب .

ولمّا مات ابن عباس رضي الله عنهما سنة(٦٨ هـ)، صلّى عليه محمد بن الحنفية رحمه الله، وقال: « مات ربّانيّ هذه الأمّة »[2] .

* وفي تعليمه ﷺ الأمة – من خلال الدعاء – كيفية حفظ كتاب الله تعالى، والمحافظة على ما عندها منه ، وما به يُطرد النسيان؛ حدّث ابن عباس رضي الله عنهما : أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه الإمام الجدّ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، تفلّت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه !، فقال له رسول الله ﷺ: « يا أبا الحسن ؛ أفلا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهنّ، وينفع بهنّ مَنْ علّمته ، ويثبت ما علِمته في صدرك » ؟ قال : أجل يا رسول الله فعلمني ، قال:« **إذا كانت ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر ، فإنها ساعة مشهودة، والدعاء فيها مستجاب، وهي قول أخي يعقوب لبنيه : ﴿.. سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]، حتى تأتي ليلة الجمعة، فإن لم تستطع، فقم في وسطها ، فإن لم تستطع ، فقم في أوّلها فصل أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وآلم تنزيل السّجدة، وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الركعة الرابعة**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٣٣٤ ، برقم (٥٩٧٨).

(٢) تاريخ بغداد ١/ ١٧٥ ، (ذكر بشارة النبي ﷺ أنّ الله يفتح المدائن على أمّته).

(٣) سورة يوسف، من الآية ٩٨ .

بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل ، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصل عليّ وعلى سائر النبيين وأحسن، واستغفر لإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، واستغفر للمؤمنين وللمؤمنات، ثم قل آخر ذلك: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلّف ما لا يعنيني، وارزقني حُسْن النَّظر فيما يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تُلزم قلبي حفظ كتابك كما علّمتني، وارزقني أن أتلوه على النَّحو الذي يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنوّر بكتابك بصري، وأن تُطلق به لساني، وأن تفرّج به عن قلبي، وأن تشرح به صدري، وأن تشغل به بدني؛ فإنه لا يعينني على الحق غيرك، ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أبا الحسن ؛ تفعل ذلك ثلاث جُمَع أو خمساً أو سبعاً يجاب بإذن الله فو الذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمناً قط » . قال عبد الله بن عباس: فو الله ما لبث عليّ إلا خمساً أو سبعاً حتى جاء رسول الله ﷺ في مثل ذلك المجلس فقال: يا رسول الله ؛ إني كنت فيما خلا لا أتعلم أربع آيات أو نحوهن، فإذا قرأتهن على نفسي يتفلتن فأما اليوم فأتعلم الأربعين آية ونحوها ، فإذا قرأتهن على نفسي فكما كتاب الله نصب عيني، ولقد كنت أسمع الحديث فإذا أردته تفلّت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا حدثت بها لم أخرم منها حرفاً . فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك: « **مؤمن ورب الكعبة أبا الحسن** »[1].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٤٦١ ، برقم (١١٩٠) . وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . =

* ومن صفحات الأمة المشرقة في الدعاء المجاب ببركة القرآن، وظهور آثار ذلك في الفرد والمجتمع ؛ ما جاء في حياة وسيرة أهل القرآن ممن أحسنوا تلاوته، وفهموا معانيه، ونطقوا بحكمته، وساروا على هديه ونوره، وبثوا تعاليمه إلى البشرية كلّها على حسب طاقتهم، وظروف عصورهم، وبما هيأه الله تعالى لهم من وسائل تناسب عصرهم لنشر دعوة الحق في سائر الآفاق، ولاشك أن نور القرآن الكريم هو الجلاء لظُلَم النَّفْس، والتطهير للحواس والنَّفَس؛ فالمؤمن الحقّ مَنْ تفاعل مع القرآن الكريم لفظاً ومعنى، روحاً ومبنى، وأقام ما جاء فيه على حسب ما يرتضيه رب العالمين جلّ جلاله، وأنّ

= وفي المعجم الكبير للطبراني ١١ / ٣٦٧-٣٦٨، برقم(١٢٠٣٦): عن ابن عباس قال : قال علي بن أبي طالب : يا رسول الله ؛ القرآن ينفلت من صدري ، فقال النبي ﷺ: « **أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع من علمته** »، قال : نعم بأبي أنت وأمي، قال: **صل ليلة الجمعة أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب ويس، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان، وفي الثالثة بفاتحة الكتاب وآلم تنزيل السجدة، وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله، واثن عليه وصل على النبيين واستغفر للمؤمنين، ثم قل: اللهم ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني من أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني اللهم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حبّ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، وأسألك أن تنوّر بالكتاب بصري، وتطلق به لساني، وتفرّج به عن قلبي، وتشرح به صدري، وتستعمل به بدني، وتقوّني على ذلك، وتعينني عليه فإنه لا يعينني على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت. فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمساً أو سبعاً تحفظه بإذن الله وما أخطأ مؤمناً قط** » فأتى النبي ﷺ بعد ذلك بسبع جمع فأخبره بحفظه القرآن والحديث فقال النبي ﷺ: « **مؤمن ورب الكعبة ، علم أبا حسن علم أبا حسن** ».

بركـة القـرآن عظيمة لا يمكن رصدها في أسـطر، أو اجتزاؤهـا في صفحات، لأنّ الأمّـة بمجموعهـا تعيش في ظلال بركتـه إلى يوم القيامـة، ولكن لا بأس بالإشارة إلى بعض الصفحات المشرقة في إجابة دعوات أبنائها.

ولاشـك أيضاً أنّ من بين مقدمات إجابـة الدعوات ببركة القرآن الكريم - بعـد أن ينـال الداعي نصيبه ممـا تقـدّمت الإشـارة إليه ممـا يهـذّب الرّوح والبدن - :

* أن يسـتحضر أنـه مـن أهل الله تعـالى وخاصّتـه ؛ فعن أنـس رضي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: « **إن لله أهلين مـن النـاس** » قالوا : مَـنْ هُـم يا رسـول الله ؟ قال : « **أهل القرآن هم أهل الله وخاصته** »[1] .

* ثـم ينتقل المسـلم من حالتـه واستشـعاره بالكينونة من أهـل الله تعالى وخاصّتـه إلى تذكّـر ما هو فيه من عظيم فضل الله تعالى ونعمته ، ليأنس بذلك، وتقـرّ عينـه به؛ فقد جـاء عن ابن عبـاس رضي الله عنهما في قولـه تعالى: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[2] قال: ﴿ **بِفَضْلِ ٱللَّهِ** ﴾: القرآن ، ﴿ **وَبِرَحْمَتِهِۦ** ﴾: حين جعلهم من أهل القرآن[3] .

* ثـم يباشر بالدعاء والتضرّع والإنابة في ضـوء ما جاء في القرآن الكريم مـن دعوات على لسـان الأنبياء والمرسـلين ، وعبـاد الله الصالحـين، والملائكة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٤٣ ، برقم (٢٠٤٦)، وقال: وقد روي هذا الحديث من ثلاثة أوجه عن أنس هذا أمثلها .

(٢) سورة يونس، الآية ٥٨ .

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٢٥ .

المقرّبين، وبما فيه ظاهر فيض لرحمة الله تعالى على أيّ من مخلوقاته، وبما ادّخره عزّ وجلّ لعباده من نعيم ، ويسأله سبحانه أن يدفع عنه أحوال ومآل من استحقوا الخزي والعذاب الأليم ؛ ممن قصّ قصصهم في القرآن الكريم، أو الذين أتى على ذكر بعض أحوالهم وسلوكياتهم التي كانوا لا يوافقون بها تعاليمه، أو يجاهرون في إتيانها مخالفين بذلك رسله عليهم الصلاة والسلام وما جاؤوا من أجل تحقيقه .

* ثم يحرص كل الحرص على التوجّه إلى الله تعالى بالثابت عن رسول الله ﷺ، من الأدعية والأذكار، على تعدد المناسبات في الحضر والسفر، والليل والنهار، والسِلم والحرب، والصّحة والسّقم، والخاص والعام .

* وكذلك بسائر ما جاء عن عباد الله الصالحين في تاريخ الأمة المشرق، ووثيق علاقتهم بالله تعالى .

* ثمّ بما يجتهد فيه من الدعاء ، على أن لا يعتقد وروده عن الرسول الكريم ﷺ إذا لم يكن ثابت النسبة إليه ؛ إذ اعتقاد ورود شيء عن رسول الله ﷺ من غير دليل ثابت صحيح هو تقوّل على رسول الله ﷺ، ونسبة شيء إليه لم يقله، وهو داخل في الكذب عليه، وقد جاء في الأثر عن ربعي بن حِراش رضي الله عنه ، أنّه قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: « **لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ فليلج النار** » [1] .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١/ ٥٢ ، باب (٣٨) إثم من كذب على النبي ﷺ، برقم (١٠٦) .

وجاء عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير : إني لا أسمعك تحدّث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ! قال: أما إني لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : « **من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار** » [1] .

ثم على الدّاعي ربّه، الراغب في حفظ القرآن الكريم وتعلّمه وتعليمه، والعمل بمقتضاه، لكسب نوره وبركته وظهور آثاره عليه ؛ أن يلتمس المطعم الحلال ، والملبس والمأوى الحلال، ويتحرّى الحلال في كلّ شيء ما استطاع ؛ لتتحقق له إجابة الدعاء، ويجد آثار القرآن في سلوكه، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: « **أيها الناس إنّ الله طيّب لا يقبل إلا طيباً، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ** ﴾[2]، وقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ** ﴾[3]، **ثم ذكر الرَّجل يطيل السَّفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك** » [4].

وجاء في صفحات التاريخ أن الله تعالى أكرم أهل القرآن فحقق لهم

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١/ ٥٢ ، باب (٣٨) إثم من كذب على النبي ﷺ، برقم (١٠٧) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٢/ ٧٠٣ ، باب (١٩) باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم (١٠١٥) .

رجـاءات كثيرة، وأجاب لهم دعوات عريضة في حالات عامة وخاصّة ، تدلل عـلى أثر القرآن الكريم في يقينهم وسـلوكهم وحياتهم، رغـم البلاء الذي كان يُصيب بعضهم ؛ فإنما كان عزاؤهم أن يصبروا لله وفي الله وبالله، ويعلموا بحق أنّ الله تعالى إنما كتب البلاء على خلقه ليرصد مستوى يقينهم بموعوده، ويميّز بعضهـم على بعض على قدر التحمّل والتسـليم لإرادته جـلّ جلاله، وليكتب لهـم ثواب الصبر على البلاء بشـتى أنواعه ومظاهره، قال تعالى: ﴿ .. وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1]، وقـال سـبحانه :﴿.. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾[2] .

وظهـر أثـر القـرآن في سـلوك أبنـاء الأمّـة من حيـث الصّبر عـلى البلاء، واستعمال سـلاح الدعاء في الشدائد، وفي السرّاء والضرّاء، والانتفاع من قوّته الظاهـرة ، وسـطوته القاهرة، وسرعـة إجابته الباهرة، وحُسـن التوجّه إلى الله تعالى برغبة الإجابة المطلقة ؛ ومن ذلك ما جاء في سيـرة شيـخ الإقرّاء بالعراق الإمـام محمد بـن أحمد ابـن شَـنَبُوذ البغـدادي (ت ٣٢٨ هـ)، رحمـة الله عليه؛ الـذي قـال فيه أبو بكر الجلاء المقرئ: « كان ابن شـنبوذَ رجلاً صالحاً » ، وقال فيـه الذهبـي : « كان ثـقة في نفسـه، صالحاً ديّـناً، متبحّراً في هذا الشـأن – أي القراءات والقرآن – » [3].

وهو مع ما تقدّم من شهرة فضله ، وعلوّ مكانته وقع له في سنـة (٢٢٣هـ)

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية ٣٥ .

(٢) سورة الفرقان ، من الآية ٢٠ .

(٣) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٧٧، برقم(١٩٢) .

واقعة تطلّبت منه عظيم صبر، وعريض دعاء ؛ إذ أُحضر ابن شنبوذ رحمه الله إلى مجلس الوزير أبي علي ابن مقلة وزير الراضي، وأُحضر عمر بن محمد بن يوسف القاضي ، وابن مجاهد ، وجماعة من القراء ، ونوظر ابن شنبوذَ في بعض آرائه المتعلّقة بكيفية قراءة النص القرآني، وببعض الآثار التي كان يقرأ عليها ، فأغلظ ابن شنبوذَ في الخطاب على الوزير ، والقاضي ، ونسبهم إلى قلّة المعرفة ، وأنّهم لم يسافروا في طلب العلم كما سافر؛ فتعجّل الوزير وأمر بضربه[1]، وبينما هو يُضرب ويتألم كان رحمة الله عليه قد سلّم أمره لله عزّ وجلّ

---

(١) وقد جاء في العبر في خبر من غبر ٢/ ٢١٩، (تحقيق صلاح المنجد) : «.. وفيها أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ المقرئ أحد أئمة الأداء قرأ على محمد ابن يحيى الكسائي الصغير وإسماعيل بن عبد الله النحاس وطائفة كثيرة وعني بالقراءات أتم عناية، وروى الحديث عن عبد الرحمن بن محمد بن منصور الحارثي ومحمد بن الحسين الحنيني، وتصدر ببغداد،وقد امتحن في سنة ثلاث وعشرين كما مرّ وكان مجتهداً فيما فعل رحمه الله) . وقال ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر ١/ ١٤٤ : (وكان إماماً شهيراً وأستاذاً كبيراً ثقة ضابطاً صالحاً، رحل إلى البلاد في طلب القراءات واجتمع عنده منها ما لم يجتمع عند غيره، وكان يرى جواز القراءة بما صحّ سنده وإن خالف الرسم، وعقد له في ذلك مجلس .. وهي مسألة مختلف فيها ولم يعد أحد ذلك قادحاً في روايته، ولا وصمه في عدالته.. » .

هذا .. ولئلا يساء الظن بالعلماء والقراء كابن مجاهد رحمه الله وغيره ممن برتبته وفضله فيمكننا أن نؤوّل لهم موقفهم هذا مع ابن شنبوذ : أنهم حرصوا على عدم اتساع الرواية بالقراءات الشاذة أو الانشغال بها عن الصحيحة الثابتة، أو انفراد أحد بشيء من أُمور الدِّين لم يُنقل الإجماع فيه؛ ونتج – فيما بعد – عن الحرص نفسه ذهاب العلماء إلى تأديب من أصرّ على القراءة بالشاذّ من الروايات، وحبسه حتى يرتدع عن فعلته . ينظر كتاب الأحرف السبعة في القرآن الكريم ، للدكتور حسن ضياء الدين عتر ، ص ٣٢١-٣٢٥ .

فيما يحلّ به ، وتوجّه إلى ربه وناصره أن يدافع عنه جلّ جلاله، ويخلّصه مما هو فيه ببركة كتابه، وكان يهوّن على نفسه بعظيم يقينه بموعود الله تعالى ، وأنّه عزّ وجلّ سينجز وعده في الدفاع عنه كما تعهّد بالدفاع عن الذين آمنوا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ..﴾[1]، وكذلك بما عَلِمَه من فضل الله تعالى عليه، وسَعة كرمه وسرعة إكرامه ونجدته لعبيده ، وبما اطمأنّ له قلبه رحمة الله عليه من أن الله تعالى يؤيّد رسله ومَنْ كان على أثرهم في الصبر والثبات على الحق وسلوك سبيله ؛ الذين آمنوا به وبموعوده في الحياة الدنيا ويوم القيامة، بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[2]، وابتدأ ابن شنبوذ البغدادي رحمة الله عليه يجهر بالدعاء على الوزير؛ بأن يشتت الله شمله، ويقطع يده . قال أهل العلم والتاريخ : وقد استجاب الله دعاءه على الوزير ابن مقلة ؛ فذاق الذّل، وقطعت يده ، وهلك في السّنة التي توفي فيها ابن شنبوذ رحمه الله[3].

ومثل هذه الوقائع الكثيرة في التاريخ لتجعل المرء على تنوّع مسمياته،

---

(١) سورة الحج ، من الآية ٣٨ .

(٢) سورة غافر ، من الآية ٥١ .

(٣) ومما جاء في العبر في خبر من غبر ٢/ ٢١٢ ، خبر موت الوزير ابن مقلة، قال: (..وأما ابن رائق فإنه وقع بينه وبين ابن مقلة وأخذ ابن مقلة يراوغ ويكاتب فقبض عليه الراضي بالله وقطع يده ثم بعد أيام قطع محمد بن رائق لسانه لكونه كاتب بجكم فأقبل بجكم بجيوشه من واسط وضعف عنه ابن رائق فاختفى ببغداد ودخل بجكم فأكرمه الراضي ولقبه أمير الأمراء...) ، وفي ٢/ ٢١٧ : « ... وفيها الوزير أبو علي محمد بن علي بن حسن بن مقلة الكاتب صاحب الخط المنسوب وقد وزر للخلفاء غير مرة ثم قطعت يده ولسانه وسجن حتى هلك وله ستون سنة » .

واختلاف ألقابه وانتماءاته، وتعدد درجاته، واتساع سطوته، يراجع نفسَه قبل أن ينْصِب العداء لأهل القرآن، أو يحدِّث نفسه في إيذائهم، فإنّ عِبَر التاريخ عظيمة تدفع عقلاء الأمم والشعوب عن الوقوع في الظلم، وتحثهم على الفضيلة والاستنارة بها، والإفادة من تجاربها .

وامتلأت صفحات الأمة أيضاً بمواقف ترصد عظيم صلة أبنائها بالله تعالى، وسريع دفاع الله عزّ وجلّ عن عباده، ولاسيما أهل الإيمان منهم، وتبيّن آثار اشتغالهم بالقرآن وأثره في سلوكهم، وعوائده الإيجابية على الروح والجسد، وكيف كانت تطوف في الآفاق سمعة مكرمة الله تعالى لهم بإجابة الدعاء، وحرص الأجيال على تناقلها، ولاسيما في سير العلماء السّابقين من أهل القرآن، فجاءت العديد من الإشارات والعبارات والوقائع والدلالات التي تحرر كونهم من أصحاب الدعوات المجابة، وتُثبت ذلك في فضلهم، من ذلك :

* ما جاء في سيرة العبد الصالح الأستاذ أحمد بن الحسين ابن مهران المعروف بأبي بكر الأصبهاني (ت٣٨١ هـ)، توفي وله ست وثمانون سنة، رحمة الله عليه؛ إذ روى عنه الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك على الصحيحين، وقال في فضله: « كان إمام عصره في القراءات، وكان أعْبَدَ مَنْ رأينا من القرّاء، وكان مُجَاب الدعوة »[1].

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٠٧، برقم (٢٩٤).

* ومنهم مَنْ شهدت له الأوراق، وخطَّ مآثره الوُرّاق، وطاف الناس بذكر فضائلـه في الآفـاق؛ كالإمام العلامة المقرئ مكي بـن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) رحمـة الله عليه[1]، إذ كان خيرّاً متديّناً مشـهوراً بالصـلاح وإجابة الدعوة، مع مـا شـهدت له به الخليقة من العلـم والفضل وكثرة التأليـف في علوم القرآن، وجـودة العقل وحُسـن الفهم والخُلُق؛ وقد جاء في سـيرته: أنّه دعا على رجل كان يسخر منه وقت خُطبة الجمعة، فأُقعِد ذلك الرّجل[2].

ولا شك أن ذلك السّاخر قد وقع في المنهي عنه، وخالف توجيه الله تعالى للمؤمنين بأن لا يسـخر بعضهم من بعض، لاحتمالية أن يكون مَنْ سُـخر منه واسـتهزئ به خيراً من السـاخر، وهذا في حال استواء رتبة الإيمان، والحال هنا فيـه اختـلاف بـيّن؛ إذ نال ابن أبي طالـب الخيرية على الرجل برتبـة العلم فوق الإيمان، ولاشك أن اختلاف الرّتبة معتبر في الإسلام؛ فقد جاء عن أمّ المؤمنين عائشـة رضي الله عنهـا، أنهـا قالـت: «أمرنا رسـول الله ﷺ أن ننـزل النـاس

(١) تنظـر أخبـاره وسـيرته في نزهـة الألبـاء في طبقـات الأدبـاء١/ ١٥٠، ووفيـات الأعيان ٥/ ٢٧٤-٢٧٧، برقم (٧٣٧)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٣٩٤-٣٩٦، برقم(٣٣٣).

(٢) ومما جاء في وفيات الأعيان ٥/ ٢٧٥: «.. ما حكاه أبو عبد الله الطرفي الكتاني القرطبي المقـرئ (ت ٤٥٤هـ)، قـال: كان عندنا بقرطبة رجـل فيه بعض الحـدّة، وكان له على الشـيخ أبي محمـد المذكـور تسـلّط، وكان يدنـو منـه إذا خطب فيغمـزه ويحصي عليه سقطاته، وكان الشيخ كثيراً ما يتلعثم ويتوقف، فحضر ذلك الرجل في بعض الجمع، وجعـل يحدّ النظر إلى الشـيخ ويغمزه، فلمّا خرج معنا ونـزل في الموضع الذي كان يقرأ فيـه قال لنا: أمّنـوا على دعائي، ثم رفع يديه وقال: اللهم اكفنيه، اللهم اكفنيه، اللهم اكفنيه، فأمَّنّا، قال الطرفي: فأُقعد ذلك الرجل، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم».

منازلهـم »[1] ، مع ما جاء في القـرآن من قول الله تعالى:﴿ .. نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[2] ، وأن الإمام مكي رحمه الله من حيث الظاهـر والرّتبة أفضل من الرجل السّـاخر ، ولهذا نلحظ اسـتحقاق السّـاخر للعقوبة ، وسرعة نزول النصر من الله تعالى تأييداً لعبده المؤمن العالم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3].

ومـا يلحظه القـارىء أنّ الأمة عانت وسـتعاني أمثال هذا السّـاخر، وإن ذلك لمن البلاء الذي حثّ الله تعالى رسـوله ﷺ على الصبر عليه في صورة من صور تحمّل أعباء الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، ونشر تعاليمه، بقوله جلّ وعزّ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[4].

ومما لا شـك فيـه أيضاً: أنّ فئة السَّـخرة تتجدد بتجدد الأجيـال الواعية، وكأنهـا مـن حيث الوجـود قضية متلازمة، وقـد يصل حال البعـض منهم إلى التطـور نحـو البغـض لأصحاب الفكـر الوقـاد، وفي أحايين كثـيرة إلى وقائع تشـابه في قصّتها واقع ذلك الرجل السّـاخر بابن أبي طالب من حيث التسـفيه

(١) المسند المستخرج على صحيح مسلم، لأبي نعيم الأصبهاني ١/ ٨٩، برقم (٥٧).
(٢) سورة يوسف ، من الآية ٧٦ .
(٣) سورة الحجرات ، الآية ١١ .
(٤) سورة االنحل ، الآية ١٢٧ .

والاستهزاء والاستصغار ومحاولة التبكيت، أو التعالم على الخلق، وقد ينصّب السّاخر نفسه قاضياً على خلق الله، وأنّه ومَنْ وافق هواه هم أهل العلم دون غيرهم، وما ذلك إلا تنطّع وتحكّم لرواسب ذهنية خاصة، وتظاهر يدل على قلّة معرفة بالنفس الأمارة بالسوء ومكائدها، وحط لأقدار أهل القرآن وطلبة العلم، وعيش في ظلال خوف عريض من أن تفوتهم الدنيا ، أو إدراك حقيقة ما هم عليه من الأهواء والأمراض والأغراض، وأنّهم أصبحوا جزءاً من مخلفات متراكمة خلطت سطورها الأمزجة النفسانية، ونفثت فيها الوساوس الشيطانية ؛ فظهرت سلوكياتهم السلبية تجاه أبناء الأمة المؤمنين، حتى أصبحت سجية يتعاملون بها مع كلّ مَن يعتقدونه أو يتوهمونه منافساً لهم عداك عمن شهد العقلاء بفضله وحفظوا مكانته، وليس بغريب أن نلحظ الكثير من أقوال السّاخرين وصنائعهم: كيف جاءت لتحقق بعض المآرب، ولا سيما المنافسة على الدنيا والتسابق على فُتاتها، وقضاء شهوة التسلّط على الخلق، وبعض المكاسب على المستوى الفردي.

وقد اتضح لنا وسيتضح للأجيال الواعية، اللاحقة بركب الصادقين ما أصاب العديد من أولئك ويصيبهم من عيّ عن إدراك آلية التعامل مع الآخرين وفق منظومة الوقت، وقصور في إدراك ضرورة المرحلة، وأنّ لكل زمان لغته وسمته وأَمَارته، وأنّ واقع الأمة اليوم يدفعنا لنجمع بين القديم والحديث ، ونذب آثار المظلم من القديم، ولا سيما الذي لا يعود على الأمة وأبنائها وأجيالها إلا بالإحباط، والتقهقر، والهروب من مجابهة الحدث، وعدم تحمّل المسؤوليات الدينية والتاريخية، أو الدّعة والكسل والتراخي والتسويف والاستهانة

بواجب الوقت وضرورته، وعدم القيام بواجب المرحلة، والتخلي عن توفير ما يسدّ احتياجات الأمة في أزماتها؛ ولكي تنجح الجهود في النهوض بالأمة لا بد أن يكون ذلك الإنجاز كلّه بعيداً عن الترهات أو الأضاليل، ومتجاوزاً لسائر العقبات والمثبطات التي تُفشل جهود نشر دين الله تعالى أو الدعوة إليه جلّ جلاله.

وفي الوقت نفسه لم يصل البعض ممَنْ يسخر برجال الأمة، وإن كان يتسربل بزيّ علمائها ومفكريها و دعاتها أو يشاركهم الأوطان والمسميات، إلى فهم حقيقة أن الدور المترتب على الأمّة وأبنائها ؛ يتجسد في عظيم حاجتها وأجيالها إلى تكاتف الجهود، ووحدة الهدف، وسرعة الانطلاق بشتى المسارات والوسائل للوصول بكافة المجالات إلى الهدف المنشود، وأن يسدّ بعضهم خلل البعض من أجل بناء أسس عريضة يترجّح بها دور الأمة الميداني في الغد القادم، ويُستجلب في ضوئها استحقاق تمكين السنن الإلهية، وأن يكون الدور للأمة لا عليها ، وتحقيق هذه النوايا وما له علاقة بها يحتاج إلى كثرة دعاء لا إلى التمادي في الادعاء ، وأن يحرص المرء على تصحيحها، وهو ما يتطلّب همّة الرّجال الذين صدقوا العهد مع الله ورسوله ﷺ، ولله عاقبة الأمور.

* كذلك من الذين اشتهرت إجابة رغبتهم عند الدعاء الإمام العَلَم عثمان بن سعيد ، المعروف بأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) رحمة الله عليه، إذ جاء في سيرته[1] أنّه أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره، ومعانيه

(١) تنظر معرفة القراء ١/ ٤٠٦-٤٠٩، برقم(٣٤٥)، ومرآة الجنان ٣/ ٦٣، وغاية النهاية ١/ ٥٠٣-٥٠٥ .

وطرقه وإعرابه، وله معرفة بالحديث وطرقه، وأُشتهر بحسن الخط، والضبط الجيد، والحفظ والذكاء والتفنن، مع ما كان عليه من الدِّين والورع، وإجابة الدعوة، وقد مشى صاحب « دانية » أمام نَعْشِهِ، وشيّعه خلقٌ عظيم، لجلالة قدره بالقرآن، وظهور آثاره وأنواره عليه، وتوظيفه لهذه الآثار في إصلاح سلوك مجتمعه، وإتحافه لمنظومة أمته، وانتفاعهم ببركة دعائه وصدق توجهه، وسلامة منهجه.

* ومن الذين تنوّرت صفحات الأمة بذكرهم، ولاسيما في إجابة الدعاء؛ شيخ القراء بقرطبة علي بن خلف الأندلسي (ت٤٩٨هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ كان من جلّة المقرئين وعلمائهم، شُهِر بالخير والزهد، والتقلل والصلاح، والتواضع، وشُهرت إجابة دعوته، وعُلِمتْ في غير ما قصّة كما قال ابن بشكوال[1].

* ومن الذين أكرم الله تعالى الأمة بصفحتهم المشرقة وتغنّى بها تاريخ رجالها، الشيخ الصالح العابد محمد بن أبي محمد بن أبي المعالي(ت٥٩٧هـ) رحمة الله عليه؛ فقد جاء في سيرته أنّه تصدّر للإقراء والتلقين ستين سنة، حتى لقّن الآباء والأبناء والأحفاد احتساباً لله تعالى، وكان لا يأخذ من أحد شيئاً، ويأكل من كسب يده، كبير القدر، كثير الخير ، أمّاراً بالمعروف ، نَهّاءً عن المنكر، وكان وقوراً مستجاب الدعوة، حُملتْ جنازته على الرؤوس حملها خلق كثير، وما رُئي جمع أكثر من جمع جنازته في وقته، ودُفن بصفّة بشر الحافي رحمة الله عليهما [2].

---

(١) تنظر الصلة ٢/ ٤٢٣-٤٢٤، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٤٦٠، برقم(٤٠١).

(٢) تنظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤٧، ومعرفة القراء الكبار٢/ ٥٦٩، برقم(٥٢٥).

ولا شـك أنّ سـيرة وحياة ابن أبي المعالي رحمه الله في اسـتثمار عمره ووقته في النافع المفيد، واستعماله بدنه وسائر حواسّه وروحه في خدمة القرآن الكريم وتـذوّق معانيه، وحرصه على إحراز الخيرية والفضل بتعلّمه وتعليمه القرآن ؛ إنمـا هـي من نـور ما رواه سـيّدنا عثمان رضي الله عنـه عن النبـي ﷺ أنّه قال: « **خيركم من تعلّم القرآن وعلمه** »[1] ، وفي رواية أخرى : أنّ النبي ﷺ ، قال: « **إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه** » [2].

ثم إنّ حَجْب النَّفس عن فُتات الناس، من الصدقات وغيرها، والاعتزاز بطلـب الحلال في كلّ شيء ، ومحاسـبة النَّفس عـلى كلّ شيء إنّما هي على قاعدة سـلف الأُمة من الصالحين ، والتي يجسّـدها ميمون بن مهـران رحمة الله عليه، بقوله: « لا يكون العبد تقيّاً حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه، أو أشدّ من محاسبته لشريكه؛ لينظر من أين مطعمه ومشربه ومكسبه » [3] .

ولا بـد مـن ترويـض النَّفـس للمسـابقة في الخـيرات، وتوجيههـا للأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر ؛ ليذوق صاحبها تحقيق إجابة الدعوات، ويقف على الحقيقة الحسنة والخاتمة بالحسنى التي اختُص بها أصحاب النوايا السليمة، والأعمال الصالحة، ولاشك أنّه سلوك الذين أغدق الله عليهم بالمغانم والمكارم

(١) أخرجـه الإمـام البخـاري في صحيحـه ٤/ ١٩١٩ ، بـاب (٢١) باب خيركـم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٤٧٣٩) .

(٢) أخرجـه الإمـام البخـاري في صحيحـه ٤/ ١٩١٩ ، بـاب (٢١) باب خيركـم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٤٧٤٠) .

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه ٤/ ٦٣٨ ، برقم (٢٤٩٥) أنه روي عن ميمون ابن مهران. و في مصنف ابن أبي شيبة بسنده إلى ابن مهران ٧/ ١٩٥ ، برقم (٣٥٢٧١).

والبركات، ونعّمهم بالمسرّات في الحياة وبعد الممات، وهو الذي ترنو إليه النفوس لتحقق من خلاله مجتمعاً قرآنياً سليماً يحب الله ورسوله .

ولمّا حقق السابقون من أهل القرآن ذلك في مسيرتهم الوضّاءة، وتحقق نوالهم في القرب من الله تعالى بتطبيق كتابه، والنّفع لعموم الخلق بنشر هديه، وللمؤمنين بسلامة لفظه ، وحُسن التعامل مع شريعته، وفازوا بسلامة المنسك ؛ جاءت أسفار التاريخ وصفحاته المشرقة تشهد لهم بذلك، وأطبقت جموع الأمة المتعاقبة – على مدى قرون من الزمن – تناقل صحّة ما هم عليه، واستقرّ لدى الجميع أنّهم كانوا على أثر النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ وهديه.

* ومن الذين استُنزلت الرّحمة بندائه: العالم الزاهد عبد الرحمن بن أبي رجاء، المعروف بأبي القاسم الأندلسي (ت٥٤٥هـ) رحمة الله عليه ، إذ جاء في سيرته: أنّه كان خطيب المرية سنة (٥٠٥هـ)، ونزح عنها قبل غزوها من قبل الرّوم سنة (٥٤١هـ)، وكان مجاب الدعوة . ولاشك أنّه رحمة الله عليه بنزوحه حفظ نفسه وعلمه لينفع عموم الناس، ولتبقى من خلاله راية القرآن وفكره ومنهجه في إصلاح النفوس والمجتمعات مما يشعّ في الأمصار، وهو في ذلك أسوة لسائر العقلاء، ولاسيما في زماننا.

* ومن الذين أشرقت سطور الكتب بتحرير أخباره: الإمام محمد بن عبد الله ، أبو عبد الله ابن الأشقر الأموي (ت٥٥٩ هـ) رحمه الله ، إذ جاء في سيرته: أنّه كان عالي الإسناد في إقرائه للقرآن، وأنه من أهل الفضل، مجاب الدعوة [1].

(١) ينظر معرفة القراء الكبار٢/ ٥٤٨، برقم (٤٩٥)، وغاية النهاية ٢/ ١٨٠ .

* ومن الذين صابروا حتى أذن الله لهم بالإمداد والإقدام، وأكرمهم بعلو القدر وطيب المقام، فطوّف البلاد إلى أن دخل بغداد واستوطنها، وفاضت عليه بركات الكتاب الكريم، وظهر أثره في نفسه وسلوكه يرحمه الله؛ فشاع زهده، وأُشير إليه بالصلاح وإجابة الدعوة، وعادت عليه بركات بغداد وأهلها؛ الخطيب الصالح الزاهد محمد بن إبراهيم، المعروف بأبي القاسم اللَّخْمِي الغَرْناطي المقرئ (ت ٥٨٧ هـ) رحمة الله عليه، وهو مع سيرته الحافلة بكثرة الخصال الحميدة؛ كان له الدور الفاعل في الاشتغال بالقرآن الكريم علماً وتعليماً، مع ما كان يشار إليه من الشمائل المجيدة [١].

ح) تحقيق العزّ، ولاسيما لحملة القرآن، والشهادة بفيض نُبلِهم:

إنّ مما هو معلوم بالضرورة أنّ أهل الله تعالى هم أصحاب الصدارة في كلّ عزّ، ورفع الله تعالى رتبتهم على سائر الرتب؛ فالأنبياء والمرسلون ثم حملة الكتب والتعاليم من أتباعهم المؤمنين، ثم كلّ من ساهم في قول الحسنى للناس، أو أمر بصدقة أو معروف أو سعى في إشاعة ثقافة الاعتدال والفكر الوسطي والتفكير الإصلاحي بين الناس، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٢].

وجاء في القرآن الكريم بيان مَنْ استحق العزّة الخاصة والعامة تقريراً

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٧١، برقم(٥٢٧)، وغاية النهاية ٢/ ٤٦.
(٢) سورة النساء، الآية ١١٤.

من الله تعالى، فقال تعالى مبيّنا استحقاقه جلّ وعزّ للعزّة الخاصة : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] ، وقال تبارك اسمه: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] ، وفي كون العزّة عمومها وخصوصها لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[3]، وقال جلّ شأنه : ﴿ ..إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4] .

وأما مَنْ أطاعه عزّ وجلّ، واتبع أنبياءه، ووحّده وآمن به ربّاً وإلهاً، وبملائكته، وكتبه، ورسله ولم يفرّق بين أحد منهم، وآمن باليوم الآخر، وبالقَدَر والحساب والجنّة والنار ، وكلّ غيب أخبر عنه في القرآن الكريم، أو بلّغه أنبياء الله تعالى ورسله ؛ فإننا نلحظ أنّ الله تعالى قد منح هذا الطائع المتبع العزة إتحافاً لعمله وإقدامه ويقينه ، وكذلك منح أهل الإيمان به هذا الفضل ؛ فألحقهم بكرامة عزّه، وردّ على المنافقين افتراءاتهم، ونفى عنهم العلم بمكنونات كرمه ، وبهذا انتفت عن غير المؤمنين سائر المقدمات الموصلة إليه جلَّ وعزَّ، ولاسيما أهل النفاق، يقول تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي المنافقون ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٢٣ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٣٩ .

(٤) سورة يونس ، من الآية ٦٥ .

مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وتنوّرت صفحات تاريخنا العربي الإسلامي بنور عزّة الإسلام لله والإيمان به ؛ ولا شك أنّ ما عايشته الأمة من عهود عزّ إنما كان بنفحة من الله تعالى ، وأن وصولها إلى الرتب المشهودة في سائر الميادين سابقاً كان بتوفيقه جلّ جلاله وإمداده لأجيالها، وتهيئته لهم من خلال الإسلام وتعاليمه، والرسول الخاتم وأنموذجه ﷺ في الأمة ، وكذلك من خلال استثمار أبناء الأمة السابقين لطاقات الروح والبدن، وأخذهم بأسباب الوصول بالأمة إلى ما يرضاه ويرتضيه لها سبحانه، وكانوا قد أُمروا بالأخذ بها؛ فعزّة الأُمة إنما تأتت برعاية ربّها العزيز، وإشراقات التاريخ صنعها رجالها بإذن ربّهم أيضاً، وحرروا مواقفها المشرّفة ، وسطّروا ذلك كله في صفحات مجتمعهم المشرقة التي دلّت على عظيم فهمهم لكتاب الله تعالى وأثره في سلوكهم .

*** ومن الصور المشرقة في تأثر الجيل الأول بالقرآن وأثره في حياتهم وتعاملاتهم** ؛ ما جاء في وصف حالهم عند الشدائد، وأنهم كانوا يتنادون في قتال المعتدين بأسماء سور القرآن، ولاسيما في يوم قتالهم لمسيلمة الكذاب ؛ إذ كان من أسمى أهدافهم في تلك الواقعة المحافظة على عزّة دينهم، وأن يصل هذا الدين بتعاليمه السّامية نقيّاً خالصاً كما بلّغه رسول الله ﷺ إلى سائر أجيال الأمة، ويبقى مَنْ بعدهم على أثرهم في المحافظة عليه إلى يوم القيامة؛ وكان

(١) سورة المنافقون، الآية ٨ .

شعار الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، ونداء الغَيْرة على الدين فيما بينهم : يا أصحاب سورة البقرة [1] ، لكثرة تشّربهم القرآن ، ووضوح أثره فيهم.

وجاء في الأثر أيضاً: أنّه لما فتح الله تعالى لرسوله ﷺ مكة، وقد بقيت أيام من شهر رمضان، خرج ﷺ متوجّهاً إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف ؛ فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ، يوم حُنين ، فلقد رأيت النبي ﷺ وما معه إلا أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فلزمنا رسول الله ﷺ فلم نفارقه ، وهو على بغلته الشهباء التي أهداها له فروة بن معاوية الجذامي ، فلما التقى المسلمون والمشركون ولّى المسلمون مدبرين ، وطفق النبي ﷺ يُركِض بغلته نحو الكفار ، وأنا آخذ بلجامها أكفّها إرادة أن لا تُسرع ، وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بغرز رسول الله ﷺ ، والنبي ﷺ يقول: **أنا النَّبي لا كَذِب، أنا ابن عبد المطلب** . قال البراء بن عازب: كانت هوازن رماة فلما حملنا عليهم انكشفوا، وكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، وانكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ ، ولم يبق معه إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث، قال البراء: والذي لا إله إلا هو ما ولّى رسول الله ﷺ دبره قط ، قال: ورأيته وأبو سفيان آخذ بالركاب، والعباس آخذ بلجام دابته ، وكانت بغلته شهباء، ثم قال للعباس: ناد المهاجرين والأنصار - وكان العباس رجلاً صيّتاً -فجعل ينادي: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة؛ فجاء المسلمون حين سمعوا صوته عنقاً واحداً، وأخذ رسول الله ﷺ بيده كفاً من

(١) ينظر: الدر المنثور ، للسيوطي ١/ ٥٤.

الحصى فرماهم - أي الكفار - بها، وقال: شاهت الوجوه، فما زال أمرهم مدبراً وجدّهم كليلاً[1] حتى هزمهم الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]، ولم يبق منهم يومئذ أحد إلا وقد امتلأت عيناه من ذلك التراب، فذلك قوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

وفي رواية العباس: وكان ﷺ يحمل على الكفار فيفرون، ثم يحملون عليه فيقف لهم، فعل ذلك بضع عشرة مرة. وناهيك بهذا الموقف شهادة صدق على أنه ﷺ كان في الشجاعة ورباطة الجأش سباقاً للغايات القاصية، مقداماً في سبيل الله تعالى، يستحضر تأييده من عند الله العزيز الحكيم[4]، وفي خضم ذلك كلّه يقول: **يا رب ائتني بما وعدتني**، وقال ﷺ للعباس وكان صيتاً: صح

---

(١) ينظر الكشف والبيان، لأبي إسحاق الثعلبي النيسابوري ٥/ ٢٣، تحقيق ابن عاشور. وقد جاء ت الروايات (وحدهم كليلاً) وأثبتّ ما جاء في الكشف وهو الأنسب بين توافق رسم المنقول والمعنى، والله أعلم.

(٢) سورة الأنفال، الآية ١٧. ويُتنبّه إلى ما ذهب إليه أكثر أهل التفسير: أن الآية نزلت في رمي النبي عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين: شاهت الوجوه ورماهم بتلك القبضة، فلم تبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء. ينظر أسباب النزول للواحدي ١/ ١٥٦.

(٣) سورة التوبة، الآية ٢٦.

(٤) ينظر التفسير الكبير للرازي ١٦/ ١٨-١٩. وتفسير السمعاني ٢/ ٢٩٩.

بالناس، فنادى الأنصار فخذاً فخذاً، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، يا أنصار الله وأنصار رسول الله، يا أصحاب الشجرة هذا رسول الله، وقد قال العباس: فو الله لكأني عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، ينادون: يا لبيك يا لبيك، فرجعوا وأقبل المسلمون فاقتتلوا هم والكفار وقاتلوهم، فنادوا الأنصار، وارتفعت الأصوات، وهم يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوات على بني الحارث ابن الخزرج، فنادوا: يا بني الحارث ابن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطوّل عليهم إلى قتالهم، ثم أخذ رسول الله ﷺ بحصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار، ثم قال: **انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة.**

وكما قال البراء بن عازب لأحد المسلمين وهو يسأل عن موقف رسول الله ﷺ وصحابته: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟! فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولّى، ولكنّه انطلق إخفاءً من الناس، وحسر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد[1]، فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: « **أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب، اللهم نزّل نصرك** »، قال البراء: كنّا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منّا للذي يحاذي به - يعني النبي ﷺ - ووقعت الهزيمة على الكفار[2].

---

(١) جاء في شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٢٣١، رقم (٣٣٢٦): (يَعْنِي كَأَنَّهَا قِطْعَة مِنْ جَرَاد، وَكَأَنَّهَا شُبِّهَتْ بِرِجْلِ الْحَيَوَان لِكَوْنِهَا قِطْعَة مِنْهُ). وفي النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٠٣: رجل من جراد: هو بكسر الراء: الجراد الكثير.

(٢) أخرج بعضه الإمام مسلم في صحيحه ٣/ ١٤٠١، برقم (١٧٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ١٩٧، برقم (٨٦٥٣)، وفي مسند أبي عوانة ٢: ج ٤/ ٢٧٧، =

وقال سعيد بن المسيب: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم، فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء، تلقانا رجال بيض الوجوه حسان، فقالوا: شاهت الوجوه، ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا.

وذكر العلماء فوائد في نزول الملائكة مع الذي تقدّم ذكره منها: إلقاء الخواطر الحسنة في قلوب المؤمنين [1].

ولا شك أنّ النبي ﷺ لمّا رأى في أصحابه تأخراً؛ جاء توجيهه بأن يُنادى بهم ليتذكروا ويُقدموا على أداء الفريضة، وقد فعلوا ذلك لمّا قيل لهم: يا أصحاب سورة البقرة، وجعل ﷺ عمّه العباس رضي الله عنه يعمل على مناداتهم: (يا أصحاب الشجرة) يذكّرهم عهد بيعة الرضوان، والميثاق مع الله ورسوله، ويذكّرهم بفضل ما علموه من القرآن وسورة البقرة، وما يحثّهم القرآن الكريم على التزامه في القتال من الثبات ونصرة الرسول ﷺ، لينشطهم بذلك؛ فجعلوا يُقبلون لنجدته، ونصرة الدِّين، وإعلاء كلمة الحق من كل وجه.

وكذلك الحال يوم اليمامة في قتال أتباع مسيلمة جعل الصحابة ينسحبون من القتال لكثافة جيش بني حنيفة؛ فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون:

= برقم (٦٧٤٨)، وفي الدر المنثور، للسيوطي ٤/ ١٦٠. إذ قال: أخرجه عبد الرزاق وابن سعد وأحمد ومسلم والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن العباس.

(١) ينظر تفسير أبي سعود ٤/ ٥٦.

يا أصحاب سورة البقرة ، يحثّ بعضهم بعضاً على الثبات، ويسجلون للأمّة: أن انطلاقهم في الدفاع عن الدين وعز المسلمين إنما يكون من القرآن ، وأن مفزعهم إليه في سائر الملمّات ، حتى فتح الله عليهم[1].

وسطّر أهل القرآن مفاخر عظيمة ، تجسّدت في دفاعهم عن الدِّين، وحمايتهم لرسول الإسلام الخاتم ﷺ، وبقائهم على عهد الدفاع والحماية لأرض الإسلام وأبنائه ومقدساته من بعده؛ ولعل ما ذكرناه من مواقفهم التاريخية العظيمة في مقارعة المعتدين ومحاربة المرتدين عن الدين؛ خير مثال على هذا الأنموذج الرائد، وتأثّره بتعاليم القرآن، وتأثير كتاب الله في سلوكهم العام والخاص ؛ فمن ذلك أيضاً ما أخرجه ابن الأنباري في المصاحف من طريق سليمان بن أرقم عن الحسن وابن سيرين وابن شهاب الزهري وكان الزهري أشبعهم حديثاً قالوا : « لما أُسرع في قتل قراء القرآن يوم اليمامة قتل معهم يومئذ أربعمائة رجل .. لقي زيد بن ثابت عمر بن الخطاب فقال له : إن هذا القرآن هو الجامع لديننا، فإن ذهب القرآن ذهب ديننا ، وقد عزمت على أن أجمع القرآن في كتاب »[2] ، وفي كثرة الشهداء من أهل القرآن نستحضر عظيم

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٦ .

(٢) ينظر الدر المنثور ١/ ٧٢٢-٧٢٣ . هذا .. ويُشار هنا إلى ما ذكره أهل التاريخ: أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول مَنْ أشار على الخليفة الأوّل أبي بكر الصِّديّق رضي الله عنه بجمع القرآن في مصحف واحد حين كثُر القتل واستحرّ في القراء في وقعة اليمامة، حيث قتل فيها خمسمائة من حملة القرآن، فخشي رضي الله عنه أن يذهب شيء من القرآن، فأشار بأن يُكتب في صُحُف، ووافقه أبو بكر على ذلك، ووكّل الصِّدّيق هذه المهمة لزيد بن ثابت الأنصاري ومجموعة من الصحابة ووافقهما الصحابة على ذلك؛ فكُتِب القرآن في صُحُف حتى يحفظ ولا يضيع منه شيء .

اندفاعهـم مـن أجل المحافظة على الدِّين، وكيف كان ذلك دافعاً لقادة الأمة في حفظ القرآن في كتـاب واحد لئـلا يضيع.

وممّا يجسّـد عزّ أهل القرآن أيضاً شـجاعة الإمام الجـدّ علي بن أبي طالب رضي الله عنـه عندمـا لم يـرض بعصيان الله تعـالى، أو المداهنة والسـكوت على الهـوان في أحلك الظروف ؛ فقد جاء في الأثر عن عبد الواحد الدمشـقي قال: نادى حوشـب الخـيري علياً يوم صفـين، فقال: انصرف عنّا يـا ابن أبي طالب فإنّـا ننشـدك الله في دمائنا ودمـك ؛ نخلي بينك وبين عراقـك، وتخلي بيننا وبين شـامنا، وتحقـن دماء المسـلمين، فقال عـلي : هيهات يـا ابن أم ظليـم؛ والله لو علمـتُ أنّ المداهنة تسـعني في ديـن الله لفعلت، ولكان أهون عـليّ في المؤونة، ولكنّ الله لم يرض من أهل القرآن بالادهان والسكوت والله يُعصى [1] .

وهذه العزّة التي نالها أهل القرآن في بذل كل غال ونفيس من أجل دين الله وإعـلاء كلمته؛ توارثت الأمة حفظهـا لهم، والتذكّر بهـا، والتخلّق بأخلاقهم في ميادين عديـدة ؛ فمـن ذلـك مـا جاء في سـيرة خلف بـن هشـام البغدادي (ت٢٢٩هـ) رحمة الله عليه، إذ قال فيه الحُسـين بن فَهْم رحمه الله: « ما رأيتُ أنبل من خلف بن هشام، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن للمحدّثين ..»[2] .

وهـذا يدلل على عظيم مكانة أهل القرآن في نفوس أهل العلم، وبذلك يـتّضـح المنـهـج لعموم الأمـة، وتـتـجلى بـركات إجلال القـرآن وأهله في سلوكهم .

---

(١) ينظر حلية الأولياء ١/ ٨٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٧٩، برقم (٢٠٣) .

وقد حدّث عن حال الإمام خلف البغدادي وعزّته بالله، وإكرامه لنفسه لما لها من علم بكتاب الله وتعليمه، ورّاقُه أحمد بن إبراهيم؛ إذ قال: سمعته يقول : قدمتُ الكوفة فذهبت إلى سُليم ، فقال ما أقدمك ؟ قلتُ: أقرأ على أبي بكر بن عيّاش ، فقال : ألا تريده ؟!، قلتُ : بلى ، فدعا سُليم ابنه ، وكتب معه ورقة إلى أبي بكر بن عياش ، لم أدر ما كتب فيها، فأتيناه فقرأ الورقة وصعَّد فيَّ النظر – وهو سلوك فيه شيء من الازدراء –، ثم قال: أنت خلف؟ قلتُ : نعم، قال: أنت لم تخلف ببغداد أحداً أقرأ منك !، فسكتُّ ، فقال: اقعد هات اقرأ ، قلتُ : عليك ؟ ، قال: نعم ، قلتُ : لا والله لا أقرأ على مَنْ يستصغر رجلاً من حَمَلة القرآن، ثم خرجتُ، فوجّه إلى سُليم يسأله أن يردني فأَبَيْت[1].

وهذه العزّة لا بد أن تتوارثها الأجيال في سائر معاملاتها، فلا تقبل شيئاً ممن يستصغر أهل القرآن أو حملته، وإن كان المستصغِر يُحسب عليهم ، أو يتظاهر أنّه منهم.

خ) المحافظة على العقل وأفضلية الإيمان ببركة القرآن الكريم :

جاء في الأثر عن عبد الملك بن عمير قال : كان يقال: « أبقى الناس عقولاً قراء القرآن »[2] ؛ لما شهدت الأمة من حضور بركة القرآن والعلم به في حياة أهله وإن طالت أعمارهم ، وهو كثير في صفحات تاريخنا ، ويدل على نور

(١) ينظر المصدر السابق ، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢١٠، برقم(١٠٣).

(٢) شعب الإيمان ٢/ ٥٥٧ ، برقم (٢٧٠٨) ، ومصنّف ابن أبي شيبة ٦/ ١٢٠، برقم (٢٩٩٥٦) . والعمر والشيب، لابن أبي الدنيا ١/ ٧٥، برقم (٨٠) .

أهـل القرآن ، وبقاء عقولهم تعمل في منظومته، يتعلّمون ويُعلِّمون، ويعظِون الناس بمعارفه، وتتعظ به نفوسهم .

* ومما سـجّله التاريخ أيضاً أن عمـوم أيام حياة أهل القرآن، ولاسـيما الأخيرة منها شـهدت تميّـزاً في الأداء، وانتفت عنهم صفـة الدخول في بوتقة أرذليـة العمـر التـي وصف القـرآن بها البعض مـن بنـي الإنسـان، بـقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[1]، وقـد حـدد بعـض المؤرخـين عمر الابتداء بمرحلة النسيان هذه، أو ذهاب العقل بتواريخ كثيرة، ووصفوا هذه المراحل بالخوف والخرف[2] .

---

(١) سورة النحل، الآية ٧٠ .

(٢) ويسميه البعض بـالزهايمر . هو بمثابة مرض تنكسي بدئي، وهناك من اعتبره مرضاً عقلياً ذهانياً يصيب الخلايا العصبية في المخ، ويؤدّي إلى إفسادها وإلى انكماش حجم المـخ . كما يصيب الجزء المسـؤول عـن التفكير والذاكرة واللغـة؛ إذ يظهر على المريض تناقـص في الذاكـرة والذكاء، ويمكن أن يتسـبب في أمراض أخـرى كاختلال العقل، وانخفاض القدرات العقلية لكبار السن .

وشـخصّه كثـيرون بالداء الخطـير والمميت، وعـزوا تفاقمـه تدريجياً ؛ لترسـب بعض البروتينات المسـماة «أميلويد» على مسـالك الأعصاب، مما يؤدي إلى خلق تشوهات في تلك المسالك. كما أن الملايين من خلايا الأعصاب تتلف فيتقلص حجم المخ.

ويعـبّر عنـه البعض بالمرض الانحلالي التقدمي (متقـدم أو مترقي) ؛ أي يحدث للمخ مع ازدياد العمر وتقدمه، ، ويقود في نهاية المطاف إلى الخرف أو العته.

ينظر كتاب (خرف الشيخوخة (الزهايمر) مرض فقدان الذاكرة khrf alshikhoukhah a'lzhaimr) mrdh fkdan althakrah)، لغسـان جعفـر) ، وكتـاب(MAYO CLINIC حـول داء الزهايمـر MAYO CLINIC houl da'a a'lzhaimr، لرونالـد بيترسن ،ترجمة، وتحقيق: مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم).

وقد كان من هدي النبي الكريم ﷺ الاستعاذة بالله تعالى من أن يُردّ إلى أرذل العمر كما حدَّث بذلك أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا وفتنة الممات »[1] .

وقد كان سعد رضي الله عنه يعلّم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلّم المعلم الغلمان الكتابة ، ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوّذ منهنّ دبر الصلاة؛ « اللهم إني أعوذ بك من الجُبْن، وأعوذ بك أن أُردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر »[2] .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٧٤١ ، برقم (٤٤٣٠) .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٣/ ١٠٣٨ ، برقم (٢٦٦٧) . وجاء في المستدرك على الصحيحين ١/ ٧١٦ ، برقم (١٩٥٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : « **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يُسمع، ونفس لا تشبع، ومن الجوع فإنّه بئس الضجيع ، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم، ومن أن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، اللهم إنا نسألك قلوباً أوّاهة مخبتة منيبة في سبيلك، اللهم إنا نسألك عزائم مغفرتك، ومنجيات أمرك، والسَّلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنّة ، والنجاة من النار** » ، وكان إذا سجد ﷺ قال: « **اللهم سجد لك سوادي وخيالي، وبك آمن فؤادي ، أبوء بنعمتك عليّ وهذا ما جنيت على نفسي، يا عظيم يا عظيم اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب العظيمة إلا الرب العظيم** ». وقال الحاكم عَقِبه: هذا حديث صحيح الإسناد إلا أن الشيخين لم يخرجا عن حميد الأعرج الكوفي إنما اتفقا على إخراج حديث حميد بن قيس الأعرج المكي، فأما أول الحديث في الاستعاذة من الأربع فقد روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو. ثم ساق روايتيهما .

ولا شك أن سياق العودة إلى أرذل العمر يتّضح بما يصوّره القرآن ؛ فإنما يُردّ الإنسان إلى أرذل العمر ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه، « لا يعلم بعد علم شيئاً » يقول: لئلا يعلم شيئاً بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك كلّه بالكبر، ونسي فلا يعلم منه شيئاً، وانسلخ من عقله فصار من بعد عقل كان له لا يعقل شيئاً [1].

وقد جاء في الأثر عن عكرمة رحمة الله عليه أنّه قال: « من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر »[2].

* وفي تحقيق الإيمان ، وكون المجتمع المتأثر بالقرآن يُعد أهله أفضل أهل الإيمان إيماناً ؛ سجّل التاريخ أن عظماء الإسلام الخاتِم كثيرون بدْءاً بسيد ولد آدم سيدنا رسول الله محمد ﷺ وآل بيته الأطهار ، وصحابته الأخيار، وسائر سلف الأمة الصالح ممن تطمح النفوس إلى الوصول إلى ما كانوا عليه من هدى، وتتشوق الأرواح لتحصيل شيء مما نالوه من آثار التقى، وتعلو الهمم لبلوغ الرتب التي بلغوها أو مقاربتها ، وتجنّب المهلكات والردى.

وجاءت بشارات النّبي الكريم سيدنا محمد ﷺ وهو يحفظ لأجيال الأمة السابقة ، واللاحقة حقّهم في الرّتب والدرجات، ويبيّن عظيم فيض الله تعالى عليهم ومنّه وكرمه؛ إذ يقول مبيّناً أفضل أهل الإيمان ، فيما يرويه عمر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ جالساً فقال رسول الله ﷺ: « **أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيماناً** ؟ قالوا : يا رسول الله ؛ الملائكة ، قال: **هم كذلك،**

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٢. الدر المنثور ٥/ ١٤٧ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٢٠ ، برقم (٢٩٩٥٧) .

ويحق ذلك لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها ؛ بل غيرهم! قالوا: يا رسول الله، فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرّسالة . قال: **هم كذلك، ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها؛ بل غيرهم!** قال عمر: قلنا : فمن هم يا رسول الله ؟! قال : « **أقوام يأتون من بعدي في أصلاب الرجال فيؤمنون بي ولم يروني، ويجدون الورق المعلّق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً** » [1] ، ولاشك أنهّم أهل العمل بالقرآن، المتمسكون بهديه ﷺ، الثابتون على الحق والفضيلة، مهما تبدّل وجه الدنيا أو تغيّرت ظروفها.

ومن المعلوم أن تحقق الإيمان في القلب يدفع صاحبه إلى التحقق في حبِّ وسيلة وصوله المتمثلة برسول الله ﷺ، ورحمته المهداة إلى العالمين؛ باعتباره البشير والنذير من الله تعالى ، وأنّه ﷺ بُعث من أجل بعث الإيمان في الأرواح والأبدان، وبشرعته استقامت منظومة الحياة، وتحققت بآثارها تزكية الذات البشرية، وبسطت به عدالة التعايش مع سائر بني الإنسان، ولاسيما مع أُمّته ﷺ ؛ إذ جمعتهم أواصر الإسلام والقرآن ومحبته ومتابعته ﷺ ، وفي هذا جاءت بشاراته النبوية تجسّد حقيقة الإيمان بالله تعالى وبه ﷺ، وتصوّر أبناء الأجيال اللاحقة بجيل النبوّة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن أُناساً من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله** » [2] .

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ٩٥ ، برقم (٦٩٩١) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ٩٦ ، برقم (٦٩٩٣) ، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقد جاء في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ: « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين** »[1].

وكذلك قوله ﷺ: « **ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار** » [2] .

وبما تقدّم وغيره كثير تتعلّم الأجيال المسلمة الحاضرة والقادمة أنّ اتّباع القرآن الكريم والآثار الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ، وما جاء في شرحهما عن سلف الأمة الصالح، وسلوكهم في ظلالهما ؛ هو السبيل الواضح في إصلاح منظومة السلوك الفردي والأُسري والاجتماعي، وهو الصراط الحق الذي سنلقى الله تعالى عليه، وبه نرغّب الناس في الإسلام؛ فعلى الأُمة أن تعمل على إحياء ذلك كلّه في عقول أبنائها، وتبعث أرواحهم على حبّه، والتمسك به كمنهج خلاص من سائر مشكلاتها، وأن تعمل جهدها فكراً وسعياً في التخطيط لمجتمع إسلامي حضاري، وتُجري الدراسات البناءة من أجل إظهار أثر الاعتدال في الإسلام على الشعوب، وبثّ روحه وتعاليم أصوله -القرآن والسُّنّة- الداعية أبناءه إلى العلم والعمل والحكمة والرقي والحضارة، وتبيّن للعالم أجمع نتاج التفاعل معهما، وآثارهما على المجتمعات في منظومة كاملة متناسقة من حيث الأخلاق ، والعلم، والعمل ، ويكون ذلك أيضاً من خلال تاريخ الأمة المشرق، ومقارنة ثمار الاتباع الحقيقي في واقع مجتمعاتنا بالمجتمعات الأخرى، وتنطلق الأُمة من محورها الحق إلى الأمم التي

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح١/ ١٤ ، برقم (١٥).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح١/ ١٤ ، برقم (١٦).

تنتظر شروق الإسلام في مجتمعاتها، وظهور آثاره الشاملة عليها، ولا سيما في تصحيح المنظومة الأخلاقية في حياة أبنائها، وكذا عقولهم وسلوكياتهم التي خرجت في غالبها عن دائرة حكمة الإيجاد الظاهرة، وخرقت بانحرافاتها سنن الفطرة السليمة الطاهرة.

د) ثبوت أجر المتمسك بالحق إذا اتُبعت الأهواء وآثر النّاس الدنيا :

إن من عظيم مِنَح الله تعالى لعباده المؤمنين؛ إغداقه تعالى عليهم فيض التأييد والنصرة في الدنيا، وثبوت رأفته بهم، وتحقق كرمه وعظيم عطائه لهم في الآخرة ، لاسيما بما وسّع عليهم من مضاعفة الحسنات على الأعمال، واعتبارها جليلة وإن كانت قليلة يستهين بها البعض، ثم بالجنة والعز والنعيم المقيم بعد يوم الفصل، وفي ذلك جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم تبيّن سعة فضل الله تعالى وكرمه بعباده ، منها قوله في الحسنات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾(١) .

وقوله في المصّدقين والمصّدقات والصدقات : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾(٢) .

وفي الأعمال الصالحة التي تنتج عن الإيمان بالله تعالى يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤٠.

(٢) سورة الحديد ، الآية ١٨ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٣٧.

وجاء في الأثر عن عتبة بن غزوان أخي بني مازن-وكان من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين- أن نبي الله ﷺ قال : « **إن من ورائكم أيام الصبر المتمسك فيهنّ يومئذ بما أنتم عليه له كأجر خمسين منكم** » قالوا : يا نبي الله أو منهم !؟، قال: « **لا بل منكم** » ثلاث مرات أم أربع [1] .

ولا شك أن ذلك متحقق في إعطاء الله تعالى العامل بطاعته والمتمسك بهدي رسوله ﷺ في آخر الزمان أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله، وإن كانوا من أصحاب الأفضلية والسابقة في الإسلام؛ فقد حدّث أبو أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[2] ؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألتُ رسول الله ﷺ فقال: « **بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله** »، قال: وزادني غيره: يا رسول الله أجر خمسين منهم ؟ قال : « **خمسين منكم** » [3].

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٣٣٤ ، برقم (١٧) .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٠٨ -١٠٩، برقم (٣٨٥) . قال أبو حاتم رضي الله عنه يشبه أن يكون ابن المبارك هو الذي قال وزادني غيره . وقال القاسمي في قواعد التحديث ١/ ٥٧، برقم (٧) : رواه ابن ماجه وأبو داود والترمذي وقال : حديث حسن غريب .

ذ) تحريك النّفس والهمّة في لقاء الله بأحبّ الصحف المرفوعة إليه:

كثيرون هم الذين نحبّ أن نلقى الله تعالى بمثل صحيفتهم، لما سطّروا فيها من الأعمال الصالحة، وكثير هم الرجال الأثبات في تاريخ هذه الأمة الذين يُتشرّف أن يكون المسلم على آثارهم، وأن يكون شعارنا قرآنياً في ذكرهم، وتعاملنا معهم كما قال الله تعالى في حقهم: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[1].

وكما علّم سبحانه وتعالى الأمة ونبيّها المكرّم ﷺ بقوله في القرآن: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾[2]، وكما سطّر جلّ جلاله في القرآن مفاخرهم، وما كان له الأثر في ضياء صحائفهم بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3]، وقوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[4] وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[5]،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٧ .

(٢) سورة الأنعام، الآية ٩٠ .

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٨ .

(٤) سورة آل عمران، الآية ١١٤ .

(٥) سورة النساء، الآية ١٥٢ .

وقولـه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (١) .

وفي بلوغهم رتبة الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، وبذل المستطاع في سبيله، ودفعهم السيئات بالحسنات، يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ (٢) .

واتضح أثر القرآن الكريم في سلوك أجيال الأمة السّابقة واللاحقة من خلال تنافسهم في الوصول إلى أعظم ما يُنال من رتب الآخرة ودرجاتها ومنازلها، وحرصهم على تحقق ذلك، والنجاح فيه بتحقيق أسبابه، وسلوك سبيله الحضاري بين الأُمم، ولاشك أنّ من أعظم ما يُبتغى في ذلك سِيَر الصحابة من المهاجرين والأنصار والشهداء والقادة والعلماء الأئمة، وسائر مفاخرهم وأعمالهم التي لقيت قبولاً عند الأمة، فهي مطمح كل مسلم، لما لها من دلالات قبول عند الله تعالى؛ وهي بالجملة مما يحبّ المسلم أن تُسجّل في صحيفته، وأن يتحفه الله تعالى بالتوفيق للسَّير على خطاهم؛ ومن هذه الصفحات الجميلة التي يُحبّ المسلم أن يلقى الله بها صفحة الإمام العابد الثقة محمد بن واسع بن جابر الأزدي البصري الزاهد، الذي قدّم منهج السّر في أداء الطاعات على العلانية، حتى قال فيه ابن شوذب: لم يكن لمحمد بن واسع كثير عبادة في العلانية، وكان يلبس طيلساناً وقميصاً مصرياً، وكانت فُتيا الناس إلى

(١) سورة الأنعام، الآية ٨٢ .

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٢ .

غـيره – يعنـي بالبصرة –، وإذا قلت: مَـنْ أفضل أهل البصرة ؟ قيل : محمد بن واسع[1] .

وحـدَّث الخرّاز بسنده إلى صالح المريّ قال: قال لي مالك بن دينار: أغـد عـليَّ يـا صالح إلى الجبّان – أي صانع الجبن– ، فإني قد وعدت نفراً من إخواني بأبي جهير مسـعود الضرير نُسـلّم عليه، قال صالح المري: وكان أبو جهير هذا رجـلاً قـد انقطع إلى زاويـة فتعبد فيها، ولم يكن يدخل البـصرة إلا يوم الجمعة في وقت الصلاة، ثم يرجع من سـاعته، قـال: فغدوت لموعد مالك إلى الجبّان، فانتهيـت إلى مالـك وقـد سـبقني ، وإذا معـه محمد بن واسـع، وثابـت البناني وحبيب، فلمّا رأيتهم قد اجتمعوا، قلت: هذا والله يوم سرور، فانطلقنا نريد أبا جهـير ، فـكان مالك إذا مرّ بموضع لطيف قال: يا ثابت صلّ ها هنا ، لعله أن يشهد لك غداً ، فكان ثابت يصلي[2] ، ثم انطلقنا حتى أتينا موضعه فسألنا عنه

---

(١) ينظر تاريخ مدينة دمشق ،لأبي القاسم الشافعي ٥٦/ ١٤٤ – ١٤٥ .

(٢) ولا شـك أن هـذا العمـل لـه سـابقة من هـدي النبي ﷺ ؛ فقـد جاء في الأثـر كما في المطالب العالية لابن حجر العسـقلاني ٩/ ٣٢١ ، برقـم (١٩٦٦) : أنّ أنس بن مالك رضي الله قـال: كان رسـول الله إذا نـزل منـزلاً لم يرتحل منه حتى يودعـه بركعتين . وفي مجمـع الزوائـد للهيثمـي ٢/ ٢٨٣ ؛ عـن فضالـة بن عبيـد قال : كان رسـول الله ﷺ إذا نـزل منـزلاً في سـفر، أو دخل بيته لم يجلـس حتى يركع ركعتـين . وأعقبه الهيثمي بقولـه: رواه الطـبراني في الكبير وفيه الواقدي وقد وثقه مصعـب الزبيري وغيره.. وجاء في المجمع أيضاً ٢/ ٢٨٣ عن عبد الله بن مسـعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يـا رسـول الله ؛ إني أريد أن أخـرج إلى البحرين في تجارة ، فقال رسـول الله ﷺ : « **صل ركعتين** » ، قال الهيثمي عقبه: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

فقالوا : الآن يخرج إلى الصلاة ، فانتظرناه فخرج علينا رجل إن شئت قلت: قد نُـشر من قـبره ، فوثب رجل فأخذ بيده حتى أقامه عند باب المسـجد فأذن، ثم أمهل يسـيراً، ثم دخل المسجد فصلى ما شـاء الله، ثم أقام الصلاة فصلّينا معه، فلمّا قضى صلاته جلس كهيئة المهموم فتوافر القوم في السّلام عليه .

قال صالح المرّي: فقمتُ إليه لأسلّم عليه، وأقبل على القوم فقال: انظروا كيف تكونون غداً بين يدي الله في مجمع القيامة، فسـلّمتُ عليه فردّ عليّ فقال: مَنْ أنت يرحمك الله ؟ قلت: أنا صالح المرّي ، قال: أنت الفتى القارىء ؟ أنت أبو بشير؟ قلت: نعم ، قال: اقرأ يا صالح ، فلقد كنت أحبّ أن أسمع قراءتك، قـال صالح : فحضرني والله ما كنت قد فقدته، فابتدأت فقرأت فما اسـتتممت الاسـتعاذة حتى خرّ مغشـياً عليه، ثم أفاق إفاقة قال: عُد في قراءتك يا صالح، فـإني لم أقطـع نفسي منها، وأضاف صالح : ورأيت شـيئاً عجبـاً لم أره من أحد من المتعبدين؛ كان إذا سـمع القرآن فتح فاه ، فعدتُ فقرأت :﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1] ، فصـاح صيحة ثم انكب لوجهه، وانكشـف بعض جسـده، فجعل يخور كما يخور الثور ، ثم هدأ فدنونا منه ننظر فإذا هو قد خرجت نفسـه كأنه خشـبة ! فخرجنا فسألنا : هل له أحد ؟ ، قالوا: عجـوز تخدمـه تأتيه الأيـام ، فبعثنا إليها فجـاءت، فقالت: مَا لَـه ؟ قلنا : قُرئ عليـه القرآن فـمات !! ، قالت: حُقّ له والله، مَنْ ذا الذي قرأ عليه؟ لعله صالح القـارئ هـو الـذي قرأ عليـه ، قلنا : نعـم ، وما يدريـك مَنْ صالـح ؟ قالت : لا أعرفه، غير أني كثيراً ما كنتُ أسـمعه يقول: إن قرأ عليّ صالح قتلني. قلنا : هو الذي قرأ عليه، قالت: هو الذي قتل حبيبي، فهيأناه ودفناه .

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٢٣.

وهـذا هـو سـلوك أصحاب محمد بن واسع فقد فارق أبو جهير الدنيا إلى حيـاة النعيم بآية من القـرآن .. وتجلت آثار هيبة القرآن عليه فخشـع وفارقت روحه بدنه من خشية الله تعالى .

وقـال سـليمان التيمي: مـا أحد أحـبّ إليّ أن ألقى الله بمثـل صحيفته إلا محمد بن واسع [1].

ر- تحصيل بشارة مَنْ قرأ القرآن الكريم وحافظ على قراءته :

إنّ القـرآن الكريم كتاب إعجـاز وحوار وهداية وتربية وتوجيه وحكمة، تصدّى لِـمَنْ أنكر مرجعيته لله تعالى، ودلل على صدق نبوّة سـيّدنا محمد ﷺ، وصادق على صحّة أخبار الرسـالات السـابقة ، ودعا إلى المحاور التي جاءت تعالجها، وأهمها: توحيد الله تعالى ؛ واسـتعمار الإنسـان للأرض وفق المنظومة التـي أرادها الله تعـالى لعباده ؛ وبرهن على حقيقة نهاية الكون المنظور، وأن الله تعـالى خلق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وإليه يرجع الأمر كله، وإلى الله تعالى عاقبة الأمـور .

والقرآن في الوقت نفسه يُعد رسالة الأمان والبشارة من الله تعالى للإنسانية المؤمنـة، وفيه البواعث على الازدياد من الإيمان، والحثّ على محافظة العبد على التوكل على الله عزّ وجلّ في سائر حالاته، والخشوع لعظمته جلّ جلاله في الظاهر

(١) ينظـر تاريـخ مدينة دمشـق ٥٦/ ١٤٧ - ١٤٨ . وانظـر الثقات للعجـلي برقم(١٦٥٦)، والثقـات لابـن حبـان٧/ ٣٦٦، برقـم(١٠٤٦٧) ، وموسـوعة أقـوال الدارقطني، برقم (٤٦٣).

والباطن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2].

قال سليمان بن شرحبيل الخولاني: سمعت أبا أمامة يقول: اقرؤوا القرآن، ولا يغرنّكم هذه المصاحف المعلّقة فإنّ الله لم يعذب قلباً وعى القرآن [3].

وبناءً على سلامة المنهج، والآلية الصحيحة في التعامل مع القرآن الكريم، والإيمان بما فيه، والتفكّر في مضامينه؛ تظهر الآثار النورانية على العبد المؤمن وسلوكه، وقد يكون من أبرزها: الخشوع والبكاء والتذلل بين يدي الله تعالى ببركة القرآن الكريم ونفحات الله تعالى فيه، يقول سبحانه: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٦.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٣، برقم (٣٠٠٧٩).

(٤) سورة الإسراء، الآيات ١٠٦ - ١٠٩.

وفي الأثر عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال: « **من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة** » [1].

وقال أبو سليمان عبد الرحمن الداراني الدمشقي (ت ٢١٥ هـ) يرحمه الله ، في بيانه لأمارات التفاعل مع النص الكريم وروحه، ونفي الخذلان عن النفس: « لكل شيء عَلَم، وعَلَمُ الخذْلان تركُ البكاء » [2].

ولا شك أن من أفضل البكاء كما قال أبو الحسن أحمد ابن أبي الحواري (ت ٢٣٠ هـ)رحمه الله: « بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير موافقة الحق تعالى فيما أراده منه، أو البكاء على ما سبق للعبد من المخالفة » [3].

وفي التزود بالطاقة الإيمانية، وظهور أَمَاراتها من البشارة وغيرها ، يقول ربّ العالمين جلّ جلاله: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [4].

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال:قال عبد الله: من قرأ القرآن فليبشّر [5]. أي مَنْ قرأ القرآن أمام الناس فليقرأ الآيات المبشّرات.

---

(١) الترغيب والترهيب ٤/ ١١٣ ، برقم(٥٠٢٣) . وقد علّق المنذري عَقِبَه فقال: رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد .

(٢) تنظر طبقات السلمي ، ص٨١، وحلية الأولياء ٩/ ٢٥٤-٢٨٠، وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٤٨-٢٥٠.

(٣) تنظر طبقات السلمي ، ص١٠٠، وصفة الصفوة ٤/ ٢١٢، ومرآة الجنان ٢/ ١٥٣ .

(٤) سورة التوبة، الآية ١٢٤ .

(٥) ينظر مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٣، برقم (٣٠٠٨٠).

ز) استحقاق مَنْ يؤخذ عنه القرآن المدح والتشجيع، وكذلك المتصدّر به:

لمّا جاءت الآثار النبوية الشريفة تحثّ على تعلّم القرآن الكريم، وتُظهر مكانة القرآن وأهله عند الله تعالى وعند الناس، عنيت في الوقت نفسه - وبالأسلوب النبوي المتميّز - برصد منظومة القراء، وممّن تؤخذ القراءة، وامتداحهم على الإجادة والتفنن في ذلك؛ فقد جاء في الأثر عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً** - وفي رواية **غضّاً** - **كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد** »[1] أي على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه . وروي عنه ﷺ أنّه قال:« **خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسالم مولى أبي حذيفة** »[2].

وحدّث عبد الله فقال : قرأت على رسول الله ﷺ، فقال لي: « أحسنت »[3].

وقد جاء في الأثر أيضاً عن قبيصة عن جابر قال: ما رأيت أحداً كان أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أعلم بالله من عمر[4].

وقال مجاهد : كنا نفخر على الناس بقارئنا عبد الله بن السّائب . وكنت

---

(١) ينظر مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٩ ، برقم (٣٠١٣٣ - ٣٠١٣٤) .

(٢) ينظر المصدر السابق ٧/ ١٨٣ .

(٣) ينظر المصدر السابق ٧/ ١٨٣ .

(٤) ينظر المصدر السابق، برقم (٣٠١٣٠) .

أتخذ الناس بالحفظ للقرآن حتى صلّيتُ خلف مسلمة بن مخلد - وكان أمير مصر، وأول من جُمعت له مصر والمغرب من الأمراء (ت ٦٢ هـ) فافتتح البقرة فما أخطأ فيها واواً ولا ألفاً[١].

وهذا المنهج في ذكر شمائل أهل القرآن والثناء عليهم، ومدح إجادتهم لقراءته وفهمه مما تحتاجه الأمة اليوم ليبعث الهمة في قلوب أبنائها على مواصلة المسيرة الصالحة، وإصلاح النيّة لله عز وجل، لتتذوق المجتمعات لذة الاشتغال بكتاب الله تعالى، ونشر معارفه، وطلب بركته، وتعود عليها آثار هذه الأعمال كلها.

س) تعلّم الأمة التعامل مع أشدّ الأعمال :

كان من منهج النبي ﷺ في التعامل مع الحق تعالى القيام بالعبادة على وجهها، والاجتهاد في شكر الله تعالى على ما آتاه من النّعم العظيمة، وبقاؤه على حال المراقبة الظاهرة والباطنة لسائر متطلبات التعامل مع الوحي حتى أتاه اليقين، والتحق بالرفيق الأعلى، وكذلك كان من هديه ﷺ وآثاره الظاهرة في سلوك الأمة؛ إدامته ذكر الله تعالى والإكثار منه على كلّ حال ، فمن ذلك ما روى أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها، فقلت: كيف كان رسول الله ﷺ يصلي في رمضان ؟ قالت: « **كانت صلاته في رمضان وغير رمضان واحدة، كان يصلي إحدى عشرة ركعة: أربع ركعات ، فلا تسأل عن**

---

(١) ينظر مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٩ ، برقم (٣٠١٣٠-٣٠١٣٢)، والمستدرك على الصحيحين ٣/ ٥٦٥، برقم (٦٠٨٩-٦٠٩٠).

حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاث ركعات، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟! فقال: إن عينيّ تنامان وقلبي لا ينام »[1] .

أمّا سلوكه ﷺ مع الخلق ، فقد كان مبنيّاً على مواساة المؤمنين بالمال، بعد مواساتهم بالقول والفعل والحال ، ولاسيما أصحاب الحاجة والفاقة والمؤلفة قلوبهم؛ فقد جاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فأمر له بغنم كثيرة فأتى الأعرابي قومه وقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر[2] .

وقد جسَّد الإمام الجدّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذا الحال النبوي الكريم والسلوك العظيم فقال في وصف الأعمال وشدتها: « **أشدّ الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله على كل حال ، ومواساة الأخ في المال** »[3] .

ودرجت الأمة على هذا الفضل والبذل في سبيل الله تعالى ومن أجل كتابه الكريم؛ من ذلك ما جاء في سيرة الإمام أبي الحسن الدمشقي المقرئ رشأ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ١٠٤ ، برقم (٢٤٧٧٦) و (٢٤٨٩٠) .

(٢) ينظر صحيح ابن حبان ١٠/ ٣٥٤ ، برقم (٤٥٠٢).

(٣) حلية الأولياء ١/ ٨٥ . وقد جاء مرفوعاً في مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٨٠ ، برقم (٣٤٣٤٠) عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: « **أشد الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال، والإنصاف من نفسك، والمواساة في المال** » . وكذا مرفوعاً في الزهد لابن المبارك ١/ ٢٥٧ ، برقم (٧٤٤) وفيه: « .. ومواساة الأخ في المال » .

ابن نظيف (ت٤٤٤هـ)رحمه الله تعالى، إذ كان ثقة مأموناً ، انتهت إليه الرياسة في قراءة ابن عامر، وله دار موقوفة على القراء ، صنعها لأهل القرآن، وسميت بدار القرآن الرشائية بدمشق، بباب الناظفيين - نسبة لاسمه وعائلته -[1]، بذلها رحمة الله عليه في سبيل القرآن، ليهيئ لأهل الله وخاصّته مركزاً لعلوم الكتاب المجيد ؛ يستبين فيه عباد الله سبيل الجنة والرضوان، وتفيض على الأمة أنواره ويكون مرجعاً لعموم المسلمين، ومواساتهم على كل حال، ولا سيما التذكير بالله تعالى، والفهم عنه جلّ جلاله من خلال تعلّم القرآن وتعليمه فيه، وهذا السلوك فيه عظيم إكرام لذات أبي الحسن وسائر مَنْ كان على أثره مِن أبناء الأمة، ولا سيما في البذل في سبيل الله، ورصد الأعمال العظيمة التي تعود على الأمة بالبركة والرحمة في الدنيا والآخرة .

ش) ظهور البَرَكة على مَنْ عاش في ظلال القرآن وتعاليمه في حياته :

تبيّن لقارئ الصفحات السابقة وأسطرها المشرقة كيف كان تعامل الأمة مع القرآن الكريم ، ومناهجها في فهمه، وأثر هذا الفهم والتعامل في سلوك أبناء الأمةوالأسرة والمجتمع.

ومن الأمور التي تُرصد في هذا الباب أيضاً، وفيها النفع لأولي الألباب؛ ما له الأثر في الأحوال، وأصبح جلي التأثير في سلوك أبناء الأمة ومجتمعها المسلم؛ مما جاء في أحوالهم من **البكاء والقنوت والفقر والتعفف في غالب حالاتهم؛**

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ، للذهبي ١/ ٤٠٢، برقم (٣٤٢)، وشذرات الذهب، لابن العماد ٣/ ٢٧١ .

فمن ذلك ما جاء في سيرة الإمام أبي بكر الخياط البغدادي المقرئ (ت٤٦٧هـ) رحمة الله عليه؛ إذ كان كبير القدر، عديم النظير، بصيراً بالقراءات، صالحاً عابداً ورعاً، بكاءً، قانتاً، خشن العيش، فقيراً متعففاً، ثقة فقيهاً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل[1].

وظهر ذلك الفقر والصلاح والتعفف في سلوك وحياة أبي الفضل الإمام أحمد بن الحسن البغدادي (ت٥٣٠هـ) رحمة الله عليه، حتى قيل في سيرته: كان إماماً مقرئاً مجوّداً، فقيراً صالحاً متعففاً[2].

وشاع التقلل من الدنيا وأثقالها عند مَنْ فهم مراد الله تعالى في القرآن الكريم، لاسيما وأن العديد من آياته تتحدّث عن أفضلية ما عند الله تعالى، وأن الآخرة خير من الأولى، وأن الله تعالى يمنح عباده المؤمنين ثوابَي الدنيا والآخرة بقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[3]، وقد فهموا يرحمهم الله حجم الدنيا ومكانتها بالنسبة لعظمة الآخرة ومتاعها وما أعدّه الله عزّ وجلّ لعباده الموحدين فيها؛ لما وعوه من خطاب الحق تعالى، ولاسيما قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) ينظر الوافي بالوفيات، للصفدي ٤/ ١٣٦، ومعرفة القراء الكبار، للذهبي ١/ ٤٢٦، برقم (٣٦٥)، وشذرات الذهب، لابن العماد ٣/ ٣٢٩.

(٢) ينظر المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ٦٢، ومعرفة القراء الكبار، للذهبي ١/ ٤٧٨، برقم (٤٢١).

(٣) سورة النساء، الآية ١٣٤.

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1] ، وكان ممن ذُكر في سيرته تقلله من الدنيا الإمام محمد ابن النّفّاح الباهلي البغدادي المقرئ (ت ٣١٤ هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ كان ثقة ثبتاً، صاحب حديث، متقللاً من الدنيا [2].

ومنهم أيضاً: الإمام الزاهد الحسن ابن صدقة الأزدي الصّقلي(ت٦٦٩هـ) يرحمه الله، ومما جاء في خبره أنّه كان من أهل القرآن ، ومن السّادات في زهده، وتعبّده، وتقلله، وافر الحرمة، ساعياً في قضاء الحقوق، له مهابة وقبول تام، وكان صاحب كرامات[3].

*** ومن آثار القرآن في سلوك أبناء الأمة: الأُنْس بالله تعالى في الحلّ والترحال؛** إذ جاء في سيرة شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن الرازي (ت ٤٥٤ هـ) رحمة الله عليه أنّه كان مقرئاً فاضلاً ، كثير التصانيف، حسن السيرة زاهداً متعبداً خشن العيش، قانعاً باليسير، يقرئ الناس أكثر أوقاته، ويروي الحديث، ويسافر ويدخل البراري، وما زال يتنقّل في البلدان على قدم التجريد والأُنس بالله تعالى ، ولياً من أولياء الله تعالى، صاحب كرامات، طوّف الدنيا مستفيداً ومُفيداً ، وإذا فُتح عليه بشيء آثر به. وكان بسيط الهيئة، ورغم بساطة هيئته أوقفه يوماً بعض قطّاع الطريق، وكان يحمل شيئاً من الخبز، فأرادوا أخذه

(١) سورة التوبة، الآية ٣٨.

(٢) ينظر تاريخ بغداد ٣/ ٢١٤ ، ومعرفة القرآء الكبار ١/ ٢٤٤، برقم(١٤٨) .

(٣) ينظر معرفة القرآء الكبار ٢/ ٦٧٥، برقم(٦٤٢)، وغاية النهاية ١/ ٢١٩، وشذرات الذهب ٥/ ٣٢٨.

منـه، فدفعهـم بعصـاه، وقال معللاً: إنـما منعتهم منه، لأنه كان حـلالاً، وربما كنتُ لا أجدُ حلالاً مثله[1].

*** ومـن ذلـك تحقـق الاسـتلذاذ بمناجـاة الله عـزّ وجلّ، وكثرة الخشـوع لـه، والورع من الشـبهات، وعودة بركة ذلـك كلّه عليهم في الحيـاة**؛ فقد جاء في الأخبـار مـا يُحـرر فضل قـارئ أهل البـصرة في عصره، الإمـام يعقوب بن إسحاق (ت٢٠٥هـ) رحمة الله عليه؛ إذ لم يُر في زمانه مثله، وكان عالماً بالعربية ووجوهها، والقرآن واختـلاف قراءاته، فاضلاً تقيّاً نقيّاً، ورعاً زاهداً، بلغ من خشـوعه أنّـه سُرق رداؤه عن كتفه في الصلاة، ولم يشـعر، ورُدّ إليه ولم يشـعر لشغله بالصلاة واستلذاذه بمناجاة ربّه[2].

وجاء في الأثر أيضاً ذكر أبي الفضل صافي بن عبد الله البغدادي (ت٥٤٦هـ) رحمة الله عليه، إذ ظهر في سـيرته الأثر التربـوي الإيماني للقرآن الكريم، فكان مع إقرائه الناس القرآن الكريم وبإسـناده العالي؛ كثير التعبد والأوراد والتربية الذاتية؛ فهو يجمع بين العلم والعمل، والفيض على الآخرين بمعانيهما[3].

*** ومن أثر القرآن في سـلوك أبناء الأمة ومجتمعها المسـلم انتشار الصلاح، وإشـاعة الزهـد، والتزام الجهـاد بين أبنائه**؛ من ذلك ما جاء في سـيرة أبي محمد

---

(١) تنظـر غايـة النهايـة ١/ ٣٦١-٣٦٣، والنجـوم الزاهـرة ٥/ ٧١، وشـذرات الذهـب ٣/ ٢٩٣.

(٢) تنظر طبقات ابن سـعد ٧/ ٣٠٤، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٩٠-٣٩٢، وتهذيب التهذيب ١١/ ٣٨٢.

(٣) تنظر معرفة القراء الكبار ١/ ٥٠٣، برقم(٤٥٤)، وغاية النهاية ١/ ٣٣١.

عبد الله بن خلف ابن بقي الأندلسي (ت ٥٤٣ هـ) رحمة الله عليه، أنّه مع براعته في القراءات ورئاسته فيها ، كان رأساً في الصلاح والزهـد والجهاد[١] .

*** ويتبـيّن أيضـاً مـن خـلال سـير السـلف أثـر القـرآن في سـلوك الأمة، وتأثـيره في منهجهـا العـام وتعاملها مع الخلـق بالوُد والتواضـع** ؛ فمن ذلك ما جـاء في سـيرة أحد أبنائها الإمـام أبي محمد عبد الله بن عـلي البغدادي النحوي (ت٥٤١ هـ) رحمـة الله عليه، إذ كان أطيب أهل زمانـه صوتاً بالقرآن الكريم، ورئيساً للمقرئين في عصره، وإماماً محققاً واسع العلم والاطلاع، متين الديانة، قليل المثل ، حتى سـمّاه أهل السّـير جمـال العراق، كان ظريفاً كريـماً، متواضعاً متوداً على كبر سنّه ومكانته[٢].

*** ومـن دلالات تأثـير النص القـرآني عـلى المنظومة البشرية وسـلوكها،** ولاسـيما أمة سـيدنا محمـد رسـول الله ﷺ المتبِعـة لما جـاء فيه، وحثّـه البشرية عامـة على العلم للوصول إلى الإيمان، وسـلامة إطلاق الحُكم ، وصحّة تطبيق الأحكام؛ **حرص أبناء الأمة على تلقي العلم وتحصيله والإقبال عليه ، للتمكّن من فهم القرآن ومعارفه، وحُسْن تطبيقه على الفرد والمجتمع المسلم**، والانطلاق برسالته إلى الناس كافة في سائر المجتمعات الأخرى، فمن هذا الحرص ما ذُكر في سـيرة الإمام المحـدّث عمر بن ظفر البغدادي (ت٥٤٢ هـ) رحمة الله عليه، أنّه طلب الحديث بنفسـه، ونسـخ الكثـير، وخَتم عليه في مسـجده خلق كثير،

(١) تنظر التكملة لكتاب الصلة ٢/ ٢٥٩، برقم(٧٥٠)، وغاية النهاية ١/ ٤٨١ .
(٢) تنظر التكملة لكتاب الصلة ٢/ ٢٥٩، برقم(٧٥٠)، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٨ .

وكان مـن أهل العلم والعمل، وهذا ما ظهرت معالمه على أغلب أهل العلم في الأمـة [1].

*** ومما سـجّله التاريخ في صفحات الأمة المشرقة، ولاسـيما في عظيم همّـة أبنائهـا الفضـلاء في طلـب العلـم، وحرصهم على تحصيـل الفوائـد، وانتظـام سـلوكهم في الرغبـة بالعلـم وبتلقيـه**، ما جاء في سـيرة الإمام يوسـف بن علي الـهُـذلي المغربي(ت٤٦٥هـ) رحمـة الله عليـه ؛ إذ بلغ عدد شـيوخه الذين قرأ عليهـم العلـم وطلبـه منهـم (٣٦٥) شـيخاً ، وقـد وثّق ذلـك لنفسـه، فقال: « فجملـة مَنْ لقيتُ في هذا العلم ثلاث مئة وخمسـة وسـتون شـيخاً ، من آخر المغـرب إلى بـاب فرغانة يميناً وشـمالاً وجبلاً وبحراً ، ولو علمـتُ أحداً يقدّم عـليّ في هذه الطريقة ، في جميع بلاد الإسـلام لقصدتـه »[2] . وقد كان رحمه الله يحضر مجلس أبي القاسـم القشـيري ، ويقرأ عليه في الأصول ، وكان القُشـيْري يراجعه في مسائل النحو.

*** وكذلـك مـن ظاهر بـركات القرآن الكريـم على الأمة، حـرص أبنائها وأُسَرِهـا ومجتمعاتهـا عـلى كتابة العلم وطلبـه، والتطور فيـه، وإن كلّفهم ذلك زهرة الشـباب ووقت قوّته، أو تعرّضت أجسـادهم وحواسّـهم لبعض الآثار السـلبية نتيجـة المثابـرة الجـادّة في طلـب العلـم** ؛ ومـن ذلـك ما حـدَّث بـه أبـو عمرو الداني عن شـيخه الإمام خلـف بن إبراهيم المـصري (ت٤٠٢هـ)

---

(١) تنظر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٩٣ ، العبر في خبر من غبر ٤/ ١١٥ .

(٢) تنظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٢٩ ، برقم(٣٦٧)، وشذرات الذهب ٣/ ٣٢٣ .

رحمة الله عليه ، وكان أحد الحُذّاق في القراءات، فقال: كان ضابطاً لقراءة ورش، متقناً لها مجوّداً، مشهوراً بالفضل والنُّسك، واسع الرواية، صادق اللهجة، كتبنا عنه الكثير من القراءات والحديث والفقه، سمعته يقول: كتبتُ العلم ثلاثين سنة، وذهب بصرُه دهراً ، ثم عاد إليه، وكان يَؤُمُّ بمسجد في مصر .

*** ويظهر أثر القرآن في مجتمع الأمة المسلمة من خلال سلوك أبنائها ، وتوجّههم نحو تربية الرّوح وتنقية البَدَن، والرُّقي بالعقل ليصل إلى أسمى مستوياته** ؛ فقد جاء في سيرة الإمام أبي محمد دعوان بن علي الجبي البغدادي الحنبلي (ت٥٤٢هـ) رحمة الله عليه، أنّه قرأ القراءات،وتفقّه فأحكم الفقه، وكان ذكياً عارفاً حافظاً، وثقة ديّناً ذا ستر وصيانة وعفاف، ومتصوفاً على طريقة السّلف المحمودة رحمهم الله رحمة عامّة؛ أي جامعاً بين العلم والعمل، ومتمسِّكاً بالثابت من هدي النبي ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال[1].

مات في ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ورُئي بعد موته بخمس وعشرين سنة في المنام وعليه ثياب شديدة البياض وعمامة مليحة ووجه عليه نور فأخذ بيد الرائي مشياً إلى صلاة الجمعة، فقال له: يا سيدي ما فعل الله بك ؟! ، فقال: عُرضت على الله خمسين مرة ، فقال لي: أيش عملت ؟ فقلت: قرأتُ القرآن وأقرأتُه، فقال لي: أنا أتولاك أنا أتولاك[2].

---

(١) ينظر المنتظم ١٠/ ١٢٧ ، برقم(١٨٩)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٥٠١، برقم (٤٥١).

(٢) تنظر غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ١٢٣ .

*** وتجسّد أثر القرآن والهدي النبوي في سلوك الأمة وأبنائها؛ من خلال حفظ الأوقات واستثمارها بالمفيد، واستعمال السنّة في غالب الأمور**، فمن ذلك ما جاء في سيرة وسلوك شيخ العراق في عصره الإمام أبي أحمد ابن سُكَيْنة البغدادي (ت٦٠٧هـ) رحمة الله عليه؛ إذ كان إماماً صالحاً قدوة، مجوّداً كثير المحاسن، عُمِّرَ حتى حدَّث بجميع مروياته مراراً، وقصده الطلبة من البلاد، وكانت أوقاته كلّها محفوظة، فلا تمضي له ساعة إلا في قراءة أو ذكر أو تهجّد أو تسميع، وكان كثير الحج والعمرة، والمجاورة، والطهارة، لا يخرج إلا لحضور جمعة أو عيد أو جنازة، ولا يحضر دُور الرؤساء، ويديم الصوم غالباً، ويستعمل السُّنّة في أموره، ويتواضع لجميع الناس، وكان ظاهر الخشوع، غزير الدَّمعة، وكان الله قد ألبسه رداءً جميلاً من البهاء، وحُسْن الخلقة، وقبول الصورة، ونور الطَّاعة، وجلالة العبادة، وكانت له في القلوب منزلة عظيمة، وَمَنْ رآهُ انتفَعَ برُؤْيته، فإذا تكلّم كان عليه البَهَاء والنور، لاَ يُشْبَعُ مِنْ مُجَالَسَتِهِ، صحبه ابن النجار قريباً من عشرين سنة، وتأدّب به، وخدمه، وكان طاف البلاد فما رأى أكمل منه، ولا أكثر عبادة، ولا أحسن سَمْتاً، كلّ ذلك ببركة القرآن وعلمه، وظهور أثره في سلوكه وسائر أحواله، رحمة الله عليه[1].

*** ومن فيض تعاليم القرآن، وأثرها المُشْرِق في سلوك المجتمع المسلم؛ تمسّك الأمة بالأوامر الإلهية** كالصلاة، والصيام، وسائر ما جاء الحثّ عليه في القرآن الكريم، كالقيام، والإنفاق على الأرامل والأيتام؛ مع الحرص على أن تكون سائر خطوات أبنائها مبنيّة على أسس صحيحة في العلم والمعرفة،

---

(١) ينظر سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٣-٥٠٤، برقم(٢٦٢)، وشذرات الذهب٥/ ٢٥-٢٦.

وهـو ما يحفظ لها مكانتهـا عند الله تعالى، ويعود بالبركة عـلى أبنائها في حياتهم وبعد وفاتهم؛ فمن ذلك ما أشرقت به صفحات التاريخ، وجاء في سـيرة شيخ القراء العلاّمة القُدوة أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البَلَنسي الزاهد (ت٥٦٤هـ) عن ثلاث وتسـعين سـنة رحمـة الله عليه، إذ تعلّم وسـمع وتفقّه حتـى انتهت إليه رئاسـة الإقراء في زمانه، وروى العلم نحواً من سـتين سـنة، وكان منقطع القرين في الفضل والدين والورع والزّهد مع العدالة والتواضع، والتقلـل والإعـراض عـن الدنيا، صوّامـاً قوّامـاً، كثير الصدقة عـلى الأرامل واليتامى، حتى قيل له : إنّك لتسعى بهذا في فقر أولادك ! فقال: لا والله بل أنا شيخ طمّاع أسعى في غناهم . إشارة منه إلى الادخار للآخرة[1] .

*** وظهر أثر المنهج القرآنيّ الكريم، والسلوك النبوي المبارك في أبناء الأمّة المسـلِمة وأُسَرِهـا ومجتمعاتها، كالتحـلي بالجود والإيثار والمحافظـة عليهما تجاه طـلاب العلـم، وإحيائهـما في الأمّة؛** فمن ذلـك ما أشرقت به سـطور التاريخ، وهي تروي سِيَر رجـال الأُمّة النجباء، ومنهم الإمام المفـسّر أبو بكر محمد بن الحسن النقّاش الموصلي (ت٣٥١هـ) رحمة الله عليه، فقد كان ممن انفرد بالإمامة في القراءات، والتفسـير، والسُّـنَن النبوية ، وطاف في البلاد طلباً للعلم وتعليماً له، مع ما ظهر من نُسُـكه وورعه، وسـخائه ، وحُسـن خُلُقِه ، وصِدق لهجته، واتسـاع معرفتـه ؛ وقد حدّث أبو الحسـن بـن الفضل القطّان أنّه حضر سـاعة وفـاة النّقـاش، وهو يجود بنفسـه، فجعل يُحرّك شـفتيه، ثم نـادى بعلو صوته:

---

(١) تنظـر تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٢٠، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥١٧، برقم(٤٦١)، وشـذرات الذهب ٤/ ٢١٢.

﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [1] ، يرددها ثلاثاً، ثم خرجت نفسه رحمة الله عليه[2].

ومن الذين ظهرت عليهم بركة القرآن وبشارته ساعة موتهم شيخ الشيوخ، الشيخ الصالح، أبو البركات، إسماعيل بن أبي سعد أحمد بن محمد، النيسابوري؛ إذ قال فيه السّمعاني: وقور مهيب، على شاكلةٍ حميدة، ما عرفتُ له هفوة، قرأتُ عليه الكثير، وكنت نازلاً برباطه..

وقال ابن النجار: سمعت ابن سكينة - أي أحمد سبط أبي البركات- يقول: كنت حاضراً لـمّا احتضر، فقالت له أمي: يا سيدي، ما تجد ؟ فما قدر على النطق، فكتب على يدها: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [3] ، ثم مات في عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، وعملوا لموته وليمة بنحو ثلاث مئة دينار [4].

وبهذه الإشراقة وغيرها كثير تستذكر الأمة أن مثل سلوك أولئك الفضلاء، ومناهجهم، مع كثرة البذل في سبيل الله تعالى، وإدامة المعروف، كلها تعصم صاحبها من مصارع السوء، وأن الاشتغال بالقرآن ، وتطبيق ما استحثّ الله تعالى الأمة على فعله فيه؛ هو من سبل تحصيل النجاح والفلاح ، والتوفيق لحُسن الخاتمة .

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٦١.

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٢٩٤، برقم(٢٠٩)، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٤٥- ١٤٦، برقم (١٣٠).

(٣) سورة الواقعة ، الآية ٨٩.

(٤) ينظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٦٠-١٦١، برقم(٩٥)، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٨ .

*** ومن بَرَكة كثرة الاشتغال بالقرآن التمتّع ببقاء الحواسّ سليمة صالحة ؛** فمن ذلك ما جاء في سيرة الإمام يحيى بن أحمد السّيْبي (ت ٤٩٠ هـ) رحمة الله عليه، مات وله مئة وسنتان، وكان قرأ القرآن ببغداد على شيوخها، وكان حسَن الإقراء مجوّداً عارفاً، خيّراً ديّناً صالحاً، ممتَّعاً بقواه [١]. وغير ذلك كثير وفير في تاريخ وسِير الأمة ممن طال عمره وحَسُن عمله؛ وفي فضل ذلك روى الإمام أحمد في المسند بسنده إلى عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟، قال: « **مَنْ طَالَ عُمرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ**، قال: فأي الناس شر؟ **قال: مَنْ طَالَ عُمرُهُ وَسَاءَ عَمَلُه** » [٢]. ولاشك أنّ الاشتغال بقراءة القرآن الكريم وتعلّمه وتعليمه يعد من أحسن الأعمال وأسماها.

*** ومن أثر القرآن في الفرد ظهور الفهم لمنظومة الخلق، وتوسع المعرفة في كيفية التعامل مع المنظومات الأخرى سوى البشرية، كالتعامل مع الليل والنهار بميزان القرآن الكريم، وظهور الاحتكام إلى منهجه الفياض الداعي إلى الحق، والهادي إلى النور، والخلاص من الظلم والشرّ والتشرّد،** ويتضح

---

(١) ينظر غاية النهاية ٢/ ٣٦٥، برقم(٢٠٩)، وقال صاحب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، في حوادث السنة الثالثة من خلافة المستعلي أحمد ، وهي سنة تسعين وأربعمائة : « وفيها توفي يحيى بن أحمد السيبي. مات في شهر ربيع الآخر وعاش مائة وثلاثاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر وأياماً؛ وكان صحيح الحواس، يقرأ عليه القرآن، ويسمع الحديث، ورحل الناس إليه. وكان ثقة صالحاً صدوقاً ».

(٢) ٣٤/ ٥٨، برقم (٢٠٤١٥)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون. وأخرجه الترمذي في السنن ٤/ ٥٦٦، برقم (٢٣٣٠). وقال عَقِبه: هذا حديث حسن صحيح.

ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[3]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾[4]، وقوله تبارك اسمه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[5]؛ إذ جاء في سيرة الإمام أبي بكر محمد بن الحسين البغدادي (ت ٥٢٧هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان من ثقات العلماء، الذين قرؤوا القراءات وجوّدوها وأجادوا تعليمها، وكان يرحمه الله ممن عاش في ظلال القرآن وتعاليمه، وقد ختم الله تعالى له الحياة بكرامة ما كان عليه من القيام والسّجود وملازمة القرآن، والمحافظة على الصلة به عزّ وجلّ؛ إذ الكريم تعالى أجرى عادته: أنّ مَنْ عاش على شيء مات عليه، ومَنْ مات على شيء بُعِث عليه كالشهيد الذي يعيش على أمل الشهادة، فيوفَّق إلى ذلك، ويسعى إلى الأخذ

(١) سورة الفرقان، الآية ٦٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٧٩.
(٤) سورة الروم، الآية ٨.
(٥) سورة ق، الآية ٦.

بأسبابها فيُقتل في سبيل الله، ويبعثه الله شهيداً بدمه[1]، فمات البغدادي ساجداً رحمة الله عليه، ، فكان ممن حَسُنَت خاتمته ببركة القرآن العظيم[2].

ومن الذين حفظوا قواهم وحواسّهم في ظلال منهج القرآن، ومتَّعوها في رياضه، وهذّبوا سلوكهم في ضوء تعاليمه ، فمتّعهم الله تعالى بها في كبرهم؛ الإمام هبة الله بن أحمد بن عمر الشيخ البغدادي (ت ٥٣١هـ) رحمة الله عليه، فقد عاش ستاً وتسعين سنة، قضاها في رياض القرآن الكريم [3].

وجاء في الأخبار أن أبا الفَرَج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) يرحمه الله، حدَّث عنه، وتحدَّث عن سيرته، فقال: كان صحيح السماع ، قوي التديّن، ثبتاً كثير الذِّكر والفكر، دائم التلاوة، كنتُ أجيء إليه في الحرِّ، فيقول: تصعد إلى سطح المسجد؟ فيسبقني في الدّرج، ومُتّع بسمعه وبصره وجوارحه إلى أن مات . وذكر المديني أنّه قد عمي ، ثم عاد بصيراً [4].

ولكل ما تقدّم وغيره كثير تظهر بركة القرآن الكريم على الأمة، وأثره في سلوك أبنائها من العلماء ومَنْ كان على أثرهم في سائر أحوالهم .

---

(١) وقد أخرج مسلم بسنده في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، برقم (٤٩٧٠)، أنّه ﷺ قال: « **لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله – والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجُرْحُه يَثْعَب** – أي يسيل – **اللون لون الدم، والريح ريح المسك** ».

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٨٤، برقم(٤٢٩)، وشذرات الذهب ٤/ ٨١ .

(٣) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٨٥، برقم(٤٣٠)، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٢، وشذرات الذهب ٤/ ٩٦-٩٧ .

(٤) ينظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٣٤٩-٣٥٠ .

ص) شفاعة القرآن ، وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته :

أمّا شفاعة القرآن ببركة العمل به ، وثمرة صرف الأوقات في تعلّمه وتعليمه، فإنها ظاهرة جلية ؛ فكما تتجلى على المشتغل به في حياته، فلاشك أنّ نفحاتها تعود عليه بعد موته ؛ إذ جاء في الأثر أنّ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام : أَيْ رَبِّ منعتُهُ الطعامَ والشهواتِ بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعتُهُ النوم بالليل فشفعني فيه ؛ فيشفعان »[1] .

وجاء في الأثر عن عمرو بن مرّة قال : سمعت مجاهد بن جبر يقول: القرآن يشفع لصاحبه يوم القيامة فيقول يا رب جعلتني في جوفه فأسهرتُ لَيْلَه، ومنعتُ جَسَدَهُ من شهوته، ولكل عامل من عمله عمالة فيوقف له عز وجل فيقول: ابسط يدك فتملأ من رضوان الله ، فلا يسخط عليه بعدها أبداً ، ويقال له: اقرأ وارقه فيرفع بكل آية درجة ، ويزاد بكل آية درجة[2] .

ومن بين الآثار الكثيرة المشرقة في تاريخ أمّة القرآن الكريم وعودة بركة آياته على أبنائها بعد وفاتهم كمكافأة على ما مضى من سلوكهم القرآني الحياتي؛ ما جاء في سيرة الإمام أبي منصور الخياط محمد بن أحمد بن علي الزاهد

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٧٤ ، برقم (٦٦٢٦) ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٤٠ ، برقم (٢٠٣٦) . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد ١/ ٢٧٨ ، برقم (٨٠٦) . وقال : أخرجه محمد بن نصر في قيام الليل.

البغـدادي (ت٤٩٩هـ)، وله ثمان وتسـعون سـنة: كان رجلاً صالحـاً قانتاً لله، صاحب أوراد واجتهاد، وله كرامات مشهودة، عالماً بالقراءات، انقطع لاقراء القرآن طول حياته، فقرأ ولقّن خلقاً كثيراً، حتى بلغوا العشرات. وكان له ورد بين العشاءين يقرأ فيه سُبعاً من القرآن، قائماً وقاعداً حتى طعن في السّن، وكان إمام مسـجد، اعتكف فيه مدّة يعلّم العميان كلام الله، ويسـأل لهم، ويطعمهم وينفق عليهم[١].

وظهرت بركة القرآن لأبي منصور في حياته؛ بما بارك الله تعالى له في عمره، وبما كتبه له من قبول الخلق وإقبالهم على التعلم والنفع منه، ثم تجلّت بعد وفاته كـما حدَّث ابن خيْرون فقال: ما رأيت مثل يـومٍ صُلِّي على أبي منصور الخياط، من كثرة الخلق والتبرك بالجنازة.

ونقل الذهبي عن السِّلَفي أنّه قال: ذكر له المؤتمن الساجي في ثاني جمعة من وفاة الشـيخ أبي منصـور: اليوم ختموا على قـبره (٢٢١) ختمة، ودعوا عقيب كل ختمة[٢].

وقـد رُئي البغدادي في المنـام بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي؛ بتعليمي الصبيان فاتحة الكتاب[٣].

---

(١) ينظر العبر في خبر من غبر ٣/ ٣٥٦، وغاية النهاية ٢/ ٧٤، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠٦، الأعلام للزركلي ٥/ ٣١٦.

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٨، برقم(٣٩٩).

(٣) ينظر ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي ١/ ٨٦.

وفاق الأمر وفاء التلامذة لشيخهم، وتسخيرهم وعامة الناس له بعد موته ببركة ما كان عليه من صحبة القرآن، وخدمة العميان، والصدق في صحبة التلامذة وعامة الخلق؛ ليصل إلى دخول مَنْ ليس من هذه الأمة في منظومتها، وأن يكون رحمة الله عليه سبباً في دخول البعض في الإسلام بعد وفاته؛ إذ يُحدّث علي العُكْبري وهو ممن حضر جنازة أبي منصور : أنّه لم يُر أكثر خلقاً منها، وأنّه استقبلهم يهودي، فرأى كثرة الزِّحام والخلق !، فقال: أشهد أنّ هذا الدين هو الحق، وأَسْلَم ؛ فرحمة الله على أبي منصور طاب حيّاً وميتاً، وهدى الله به الخلق في حياته وبعد مماته[1] .

* وفاضت بركة القرآن لتشمل سبط أبي منصور الخياط، وهو الإمام عبد الله بن علي البغدادي (ت٥٤١هـ) رحمة الله عليه ، فمع ما شهدت له الصفحات من نور وإشراق وسيرة حافلة بالعلم والعمل والاشتغال بالقرآن، وطيب صوته به مع كبر سنّه، وتواضعه، وتوده للخلق ؛ فاضت عليه هذه البركات بعد موته، وظهر ما منّ الله تعالى به على أجداده من العزّ والنعيم؛ فقد قال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) رحمه الله: ما رأيت جمعاً أكثر من جمع جنازته رحمه الله[2].

وقال ابن شافع: سار ذكر سبط الخياط في البلاط والأغوار والأنجاد ، ورأس أصحاب الإمام أحمد، وصار أوحد وقته ونسيج وحده، لم أسمع في

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٩، برقم(٣٩٩) .

(٢) ينظر المنتظم ١٠/ ١٢٢، برقم(١٧٨)، الأعلام للزركلي ٤/ ١٠٥ ،

جميع عمري من يقرأ الفاتحة أحسن ولا أوضح منه. وكان جمال العراق بأسره. وكان ظريفًا كريمًا لم يخلف مثله في أكثر فنونه[1].

وقد صلى عليه إمام الحنابلة في بغداد الشيخ عبد القادر الجيلي، ودُفن عند دكّة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما، وأغلق أكثر أهل البلد ذلك اليوم[2]، وكان الجمع يفوت الإحصاء .

وروى الذهبي بسنده إليه أبياتاً من الشِّعر يقول فيها:

أيّهـا الزائرون بعـد وفـاتي
جَـدَثـاً ضمَّني ولَـحْـداً عميقـا
سـترونَ الذي رأيـتُ مـن المـو
تِ عيانـاً وتسْلُكون الطَّريـقا[3]

* ومـن أولئـك الذين فاضت عليهـم نفحات بركة القـرآن بعد موتهم ؛ الإمام علي ابن هُذيل الزاهد (ت٥٦٤ هـ) رحمة الله عليه ، فقد بلغ - كما أشرنا سـابقاً - في التجويـد والإتقان والإمامة أسـمى المراتـب، وكان صدر المقرئين وإمـام المجودين، عمّر فانتهت إليه رياسـة الإقراء بـشرق الأندلس في عصره، متقنـاً ضابطاً مجوداً حسـن الأخذ على القراء، مشـهور الفضـل والزهد والثقة

(١) ينظر ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ١/ ١٨٩ .
(٢) أي تركـوا الاشـتغال بالتجـارة والبيـع والشراء لهول مـا أصابهم ، وانشـغالًا بما ألّم بهم، وحرصـاً عـلى حضور الجنـازة، وتحصيل الثواب ، ولاسـيما في أداء مـا أخبر النبي ﷺ بتحققه من عظيم الأجر في الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه .
(٣) معرفة القراء الكبار ١/ ٤٩٧، ونزهة الألباء ١/ ١٧٤، وشذرات الذهب ٤/ ١٢٨ .

والعدالـة، صالحاً متواضعاً خيّراً ، كثـير الحياء، صوّاماً قوّاماً، وكان متى توجه إلى ضيعتـه بغـربي بلنسـية صحبه طلبة العلـم إليها للقراءة عليه والسـماع منه، فيحمـل ذلك منهم ، طلـق الوجه منشرح الصدر جميل الصـبر، وينتابونه ليلاً ونهـاراً فلا يسـأم من ذلك ولا يضجر على كبرته حسـبما كان عليـه أمره معهم قبلها، ولّما توفي حضر سـلطان بلنسـية أبو الحجاج يوسـف بن سعد، وتزاحم الناس على نعْشـه، ليدركوه بأيديهم، ثم يمسحون بها على وجوههم ، متبركين بـه باكين فقده، وأتبعوه ثناء حسناً وذكراً جميلاً .

وقد رثاه ابن واجب بقوله:

لـمْ أَنْسَ يـومَ تهادى نَعْشَـهُ أَسَـفاً

أيـدي الورى وترامیها على الكفنِ

كزهـرةٍ تـتـهاداهـا الأكُـفُّ فـلا

تُـقـيـم في راحةٍ إلا على ظـعَـنِ[1]

فرحمـة الله عليـه كان أنموذجاً رائـداً في التعامل مع القـرآن، ورمزاً لـمَنْ ظهـر أثر القـرآن الكريم عليهم؛ بصفاته الحميدة، وخصالـه الفاضلة الفريدة، وتعاملـه مع النفـس والخلق بمنهج القرآن، وحرصه على بـثّ العلم والمعرفة، والغنـى عن النـاس بما يسّره الله تعالى له من سـبل العيش، ونـشر ثقافة الوداد والرحمة بين الخلق، ورعاية من أوصى الله ورسوله ﷺ بهم كالأرامل والأيتام، وطلبـة العلم ، والمحافظة على إنماء ذخيرة الآخرة ؛ بكثرة الصدقات، والدعاء

(١) السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ١/ ٣٧١ .

في الأوقات الفاضلة لتحقيق حسن الخاتمة والفوز بما فيها من مسرّات، فطاب حياً وميتاً ، وطيّب الله ثراه، وغفر له، ورفع مقامه، وجعلنا على أثره.

* ومن الذين فاضت عليهم بركة القرآن في حياتهم وبعد مماتهم؛ الإمام الحافظ الواعظ المفسِّر أبو الفَرَج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت٥٩٧ هـ) رحمة الله عليه، فقد استثمر عمره في العيش مع القرآن وفي ظلال معانيه، واستنباط أحكامه، وتعلّم وتعليم موعظته، واستلهام حِكْمَته؛ تجويداً وإتقاناً وتفسيراً، ووعظاً وإرشاداً حتى بلغ أسمى المراتب في تأليف ما يتعلّق بالقرآن وعلومه وتفسيره ومواعظه، وكان له التأثير الكبير والحضور المميّز في قلوب الخلفاء والوزراء والعلماء والأغنياء والفقراء، وكان مجموع مشايخه نيف وثمانون شيخاً قد خرّج عنهم، وكانت وفاته ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة في داره بقطفتا، وله سبع وثمانون سنة قضاها في صحبة القرآن والإفصاح عن مكنون معانيه، والصبر على البلاء احتساباً لما جاء في مضامين الكتاب العزيز من عظيم الثواب للمحتسبين الصابرين.

قال الإمام الذهبي: (وغسّل يرحمه الله وقت السَّحر ، وغُلّقت الأسواق، وجاء الخلق، وصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقاً ، لأن الأعيان لم يقدروا من الوصول إليه ، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور ، فصلوا عليه ، وضاق بالناس ، وكان يوماً مشهوداً ، فلم يصل إلى حفرته بمقبرة الإمام أحمد إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز، وأفطر خلق، ورموا نفوسهم في الماء، وأُنزل في الحفرة، والمؤذن يقول الله أكبر، وحزن عليه الخلق، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان

يختمون الختمات ، بالشمع والقناديل ، ورآه في تلك الليلة المحدّث أحمد بن سلمان في النوم وهو على منبر من ياقوت ، وهو جالس في مقعد صدق والملائكة بين يديه . وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا الأبيات:

يَا كَثِيْرَ العَفْوِ عَمَّنْ كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جَاءكَ المُذْنِبُ يَرْجُو الـ ـصَّفْحَ عَنْ جُرْمٍ يَدَيْهِ
أَنَا ضَيْفٌ، وَجزَاءُ الـ ـضَّيْفِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ)[1]

ض) إصلاح منظومة الأُسرة حضارياً :

شهدت الأُسرة في الإسلام أسمى رتب الامتياز في ظل التعاليم الإلهية المنظِّمة لطبيعة تكوينها، والمصلِحة لمنظومة كيانها من خلال آيات القرآن الكريم والآثار النبوية الشريفة؛ فالإسلام نظّم قضايا الأسرة المتنوّعة كالزواج ورعايته، وكيفية الانتقاء والبذل لإنجاحه، والعلاقة بين المكونين الرئيسين فيها -الزوج والزوجة-، وإنجاب الأولاد ورعايتهم، وتنظيم علاقة أبناء الأسرة بالأبوين وفيما بينهم، وكذلك دور الأسرة في المجتمع، وقضايا الطلاق وأساليبه، وعلاجاته، وآثاره، وكلّ ما يعد من الأسس التكوينية والاعتبارية للأسرة في الإسلام؛ ولسنا هنا في طور عرض إنجازات الإسلام العظيمة في مجالات الحياة الأسرية بقدر الوقوف على بعض المناهج والكلمات المشرقة التي دفعت صاحب القوامة - الرجل- إلى إحسان قيادة

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٠-٣٨١ ، برقم(١٩٢).

الأسرة، وضبط سلوكها وفق المنهج القرآني، ومن بين هذه السطور المنوّرة تتضح لنا بارقة عناية الأب بالابن للوصول به إلى مراتب الكمال في البنيان الجسماني والروحي والأخلاقي، وإعانته على البناء العلمي مع ما يضفيه عليه من رعاية في سائر مراحل بنيانه ؛ فقد كان من سنن الأولين الارتحال بأبنائهم لطلب العلم وعلى رأسه علم كتاب الله تعالى، وكذلك تعليمهم وإعانتهم على تحمّل مفارقة الأوطان والأهل من أجل نفع البشرية، وحفظ الدين، ولعل من أهم ما يُحافظ عليه في تنشئة الأبناء أن يكون بناؤهم قرآنياً، وأنّ من أجلِّ ما يتعلّمه الإنسان ، ولاسيما المسلم هو القرآن الكريم ؛ باعتباره العلم الذي لا شك فيه، ولا يتطرّق إليه احتمال وقوع الخطأ أو السهو، وهو مع ما فيه من علوم ومعارف تُصلِح نظام حياتنا، ومنظوماتنا الفردية والأسرية والاجتماعية والأممية ؛ فإنّ فيه من السُّبل التربوية، والأساليب التوجيهية، والمناهج التصحيحية لسائر سلوكياتنا المتنوّعة، ما يغني عن سائر المناهج البشرية القابلة للنقض، أو المحتاجة إلى تعديل وإتمام لما فيها من نقص وتناقض وأوهام، أو كونها نظريات مبنية على وقائع لا تتناسب مع طبيعة مجتمعاتنا ولا فطرتنا المسلمة؛ مما يجدر بكل عاقل أن يتتبع تعاليم القرآن ويتّبعها، ويأخذها بعين الاعتبار ، ويبذل جهده في تطبيقها والاستئثار بها ؛ فإنها إنما جاءت من لدن خبير بالإنسان واحتياجاته، عليم بما يصلحه ويحقق له السعادة الأبدية، وهو الله الملك القدوس جلّ جلاله، ومع كثرة ما جاء في السنّة النبوية المطهّرة من حثّ على تعلّم القرآن الكريم مما أشرنا إليه سابقاً ؛ فقد ورد في الأثر أيضاً عن أبي الضحى قال : كان الضحاك بن قيس يقول: « يا أيها الناس علّموا أهاليكم القرآن ؛ فإنه من كتب الله عز وجل له من مسلم أن يدخل الجنة من

ذكـر أو أنثـى ، أتاه ملـكان فاكتنفاه، فقالا له: اقرأ وارتـق في درج الجنة ، حتى ينزلاه حيث بلغ علمه من القرآن » [1].

ومن بين هـذه المواقف ولاسـيما المتعلّقة بمنظومة الأسرة والعنايـة بالابن فيها ما جاء في سـيرة الإمام محمد بن الحسـن الأندلسي (ت٥٤٧ هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ ارتحل بابنه إبراهيم ، لينال نصيبه من العلم والمعرفة ، وليحضر مجالس العلم مع والده فسمع من كبار أهل العلم والقرآن ، ثم تصدّر فيما بعد لإقراء القرآن الكريم والتحديث وتعليم العربية[2].

وفي صفحات رعاية الابن وإعانته على الرحلة بغية تحقيق مسـتقبل مشرق في العلم والمعرفة، وإتمام بنائه الثقافي جاء في سيرة الحسن بن سعيد (ت ٣٧١هـ) رحمـــة الله عليـه ، أنّـه قـد تكفّل به والـده الواعـظ والمُحدّث سـعيد بن جعفر العَبّاداني رحمة الله عليهما، وكان الوالد قد أدرك لذّة العلم وخدمة الدين، وتيقّن عظيم أجر العمل في سبيل الله عزّ وجلّ ، فأدى دوره الأبوي والرعوي، وأفاد مـن القرآن في بناء النظام السـلوكي الأُسري، فأعان ولده الحسـن على الرحلة في طلب العلم ، وذلل له الصِعاب، حتى اشتهر الولد بالقراءات، واعتنى بها، وتبحَّـر فيهـا، وتحققت له ثمرة الإكثار من الرحـلات في الأقطار؛ إذ لقي كبار الأسـاتذة في العلوم والفنون، وأصبح رأساً في القـرآن الكريم، وحفظه . قال

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ١٣٧ ، برقم (٣٤٧٩٣) ، بلفظ « **علموا أولادكم وأهليكـم** .. ». وأخرجـه ابـن أبي الدنيا في كتابـه العيـال ١/ ٤٨٢، برقم (٣١١) ، واللفظ له .

(٢) ينظـر معرفة القراء الكبـار ١/ ٥٠٥، برقم (٤٥٦)، وغايـة النهاية ٢/ ٢٢١- ٢٢٢، وشذرات الذهب ٤/ ١٤٤.

فيـه الإمـام الذهبي: أبوه كان سـبب إعانته على الرحلة، وقـد عمّر طويلاً ، إذ توفي وقد جاوز المئة عام رحمة الله عليه، قضاها في خدمة علوم الشريعة، ونفع الخلق، والتقرب من الله عزّ وجلّ بالعلم والتعليم[1].

وكمـا كان لأبي الحسـن الواعظ المحدِّث الأثر في نشـأة ولـده وتعليمـه؛ كان لأبي محمـد أحمـد السُّـلمي الدمشـقي الأثر في شـهرة ولده محمـد؛ إذ كان أحمـد السـلمي إمـام مسـجد سـوق الجبن في دمشـق، ولمّـا كبر محمـد بن أحمد (ت٤٠٨هــ) رحمـة الله عليه، ونال مما نالـه والده من الإمامـة، وبرع في العلم والقـراءات؛ وعاش يرحمـه الله عمراً حافلاً ببركة القـرآن وعلومه حتى جاوز الثمانين، وكان قد ذاع صيته وطافت شـهرته بأبي بكر الجُبْني الدمشقي المقرئ، نسـبة إلى ذلك السـوق الذي فيه مسجد والده -مسجد تل الجبن بدمشق-[2]، وهـذا يُذكّر الآباء بأن سـلوكهم وأحوالهم وأعمالهم ومواطنهـا كلّه مما له الأثر في الولد ونشـأته، وشـهرته، وبما يترتب عليهم من حُسن اختيارها، وضرورة سلامة اصطفائها قدر المستطاع.

ومنهـم مَـنْ خرج بصحبـة والده بنـاءً على رسـالة سـلطانية إلى بلد آخر ليتعلّم وينال نصيبه من المعرفة ، ثم فاضت عليه بركات الله تعالى فأصبح إماماً ومتصدّراً في إقراء القرآن ، وثقة ، شـاعت سـيرته الحسنة في الأمصار، كالإمام هبة الله بن أحمد البغدادي (ت ٥٣٦ هـ)رحمة الله عليه ؛ فمما جاء في سـيرته أنه

---

(١) ينظـر معرفـة القراء الكبـار ١/ ٣١٧، برقم(٢٣٧)، وغاية النهايـة ٢/ ٢١٣- ٢١٥، وشذرات الذهب٣/ ٧٥.

(٢) ينظر طبقات المفسرين ، للداوودي ٢/ ٧٤-٧٥، برقم(٤٣٨).

صحب أباه أحمد بن عبد الله وانتفع بآثار هذه الصحبة ، وكذلك نال مما ناله من الحظوة التي أولاه إياها السلطان ؛ إذ خرج إلى العراق مع أبيه في رسالة السلطان تاج الدولة تتش إلى السلطان ملكشاه. ثمّ وفّقه الله تعالى فجلس يؤدّب النّاس ويؤمّهم ويحدّثهم بما كان يُفتَح عليه من فهم القراءات والحديث الشريف[1].

*** ومن أثر القرآن الكريم في إصلاح بقيّة منظومة الأسرة ، ورعايتهم في ضوء منهجه وتعاليمه** ؛ جميل ما أشرقت به صفحات الأُسرة المسلِمة في تاريخ هذه الأمة، ولاسيما حرص رعاتها على أداء واجب الوقت، وتحمّل المسؤولية تجاه الأبناء وأمّهم من حيث العموم، وعنايتهم بهم في التعليم، والمعرفة، واكتساب الخبرات؛ فمن ذلك ما جاء في سيرة الإمام أحمد بن عبد الله اللَّخْمي المغربي (ت٥٦٠ هـ) رحمة الله عليه، أنّه قدِم من فاس فسَكَنَ الإسكندرية بمصر، وقرأ الفقه والعربية، وتصدَّر للإقراء، وتأهّل للقضاء، وذاع صيت صلاحه وعبادته وتعففه والتزامه بما عليه أهل السُّنّة والجماعة، وكان لا يقبل لأحد شيئاً، ولايرتزق على الإقراء، وتزوّج ؛ فرعى أسرته رعاية نفسه في العلم والفنّ، وعلّم زوجته الخط، ثم وُلدت له بنت، فعلّمها الخط، كأحسن ما يكون حتى كانتا تكتبان مثله سواء، وقد شاع مدح خطه فكان مرغوباً فيه لإتقانه وجودته، ثم كان هو وبنته وزوجته، ينسخون في الكتاب الواحد، فلا يُفرّق بين خطوطهم، وهذا من عجيب الاتفاق والإتقان، وحُسْن التوفيق، فرحمة الله تعالى عليهم أجمعين، وهو في الوقت نفسه أثر من آثار البركة

---

(١) تنظر طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٣٢٤، برقم(١٠٢١).

القرآنية الشاملة لمفهوم العناية بمنظومة الذريّة وشقيقة المودة والرحمة، وتطبيق لسمات الوقاية في الدنيا والآخرة التي أوضحتها آيات الكتاب المجيد [1].

ظ) رغبة المجتمع المسلم وسعيه إلى الكسب الحلال، والزهد بما سواه:

لا شك أن تشريع قانون يوضّح للإنسان مسار كسبه، ويصنّف جهده، ويفْصل في كون هذا الكسب إما من الحلال أو الحرام، وينبهه على وجود أمور مشتبهات تقع بين الاثنين؛ يُعد من بين أهم الأسس في إقامة العدالة الإلهية في الحياة الدنيا والتي جاءت في القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه تلحظ البشرية كيف حثّت الآيات الكريمة الناس على السَّعي من أجل تحقيق الحلال وتحرّيه، واجتناب الحرام والتخلي عنه، والوقاية من الشُّبَه الموقِعَة فيه قدر المستطاع، وهذا الحثّ والتشريع يمهّد للأُمم سبيل السعادة في الدنيا والآخرة؛ بكتاب الله الخاتم لسائر رسالاته المبشِّرة بالإسلام فيمن سبق، المنزّل بلغة العرب إلى النّاس كافة إلى يوم الدِّين؛ يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾[2]، ويقول تبارك اسمه: ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾[3]، ويقول عزّ وجلّ:

---

(١) تنظر وفيات الأعيان ١/ ١٧٠ - ١٧١، برقم(٦٩)، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥٢٦، برقم(٤٧٠)، وشذرات الذهب ٤/ ١٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ٨٨.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[1].

*** وفي حثّه عزّ وجلّ على التزام المنهج الحق الذي علّمه لعباده، وعدم الانسياق وراء الأهواء في الحُكْم على الأشياء بغير علم،** أو تصنيفها حلالاً أو حراماً دون أن يرد من الله تعالى أو رسوله ﷺ توجيه بذلك، يقول سبحانه مذكّراً ومقيّداً لحالة أكثر ما تكون اليوم مشاعة في مجتمعاتنا: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾[2].

وأوضح جلّ وعزّ لعباده ما قرّره في القرآن الكريم، ولاسيما في حق مَنْ تمادى في إطلاق الأحكام بناءً على الرغبة النفسية، أو النظرة القاصرة، أو الهوى المشترك بين منظومتي الإنسانية والشيطانية، فقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[3].

ولا بد للعبد من الاستعانة بالله تعالى على طلب الحلال، والتوكل عليه في تحقيقه؛ فالعبد أحوج شيء إلى مولاه، ولاسيما في طلب إعانته على فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدور، وتحصيل ما ينفعه في حياته وآخرته، وأن يعمل جاهداً على أن تكون استعانته المطلقة بالله تعالى

---

(١) سورة النحل، الآية ١١٤.

(٢) سورة يونس، الآية ٥٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٤٠.

وعـلى كلّ حـال؛ فهو تعالى الباعث على الطاعة والمعـين عليها وعلى أدائها على أحسـن وجـه يرتضيه من عباده، ومما جاء في الأثـر عن معاذ بن جبل رضي الله عنـه، أن رسـول الله ﷺ أخذ بيده يوماً ثـم قال: « **يا معـاذ، والله إني لأحبّك،** فقـال معـاذ : بأبي وأمي يا رسـول الله ﷺ، وأنـا والله أحبّك، فقـال: **أوصيك يـا معـاذ لا تدعنّ في دبر كل صـلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشـكرك وحسن عبادتك** »[1] .

وكذلـك دعوتـه ﷺ الأمة أن تتمسّـك بهـذه الكلمات؛ إن تمسّـك الناس بالذهـب والفضـة أو شـغلتهم الدنيـا، فمما جـاء في الأثر عن شـداد بن أوس رضي الله عنه، أنّه قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: « **إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسـألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرّشـد، وأسـألك شكر نعمتك ، وأسألك حسـن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، واستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب** »[2] .

ومما لا شك فيه أنّ ما ذُكِر من هذه الوصايا النبوية لا ينافي القيام بالأسباب فإنها من جملة سـؤال الله والاسـتعانة به، وأن مَنْ طلب رزقه تعالى بسـبب من أسباب المعاش المأذون فيها؛ رُزق من جهته فهو منه تعالى، وإن حُرم فلا يدري لعل ذلك لمصلحة لا يعلمها، والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد.

---

(١) أخرجـه الحاكم في المسـتدرك على الصحيحـين ١/ ٤٠٧ ، برقـم (١٠١٠) ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٢٣ ، برقم (١٧١٥٥) .

ولا شكَّ أيضاً أن الكسب الممدوح المأجور فاعله عليه هو ما كان لطلب الكفاية له ولمن يعوله، أو الزائد على ذلك إذا كان يعدّه لقرض محتاج أو صلة رحم أو إعانة طالب علم أو نحوه من وجوه الخير . أمّا غير ذلك فإنما هو من الاشتغال بالدنيا، وفتح باب محبّتها الذي هو رأس كل خطيئة ، وفي ذلك جاءت العديد من الأقوال المأثورة التي تحثّ على الوقاية من الاستكثار الشاغل عن أمر الدين، ولاسيما مَنْ عرف من نفسه أو خاف عليها التوغل في الدنيا والانشغال عن ذكر الله تعالى ؛ فمنها ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: « **لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا** »[1] ، أمّا مَنْ لم يخف ذلك من نفسه، ووثق من قيامه بالأوامر الإلهية على حسب وجهها، وفي وقتها، فله أن يتخذ ما شاء من الأراضي كما اتخذ النبي ﷺ الأراضي واحتبس من الضياع ؛ فيكون بذلك من الرجال الذين امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿ .. **رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾[2]. ومما هو معلوم أن طلب الحلال وكسبه مندوب أو واجب وجهاد إلا للعالم المشتغل بالتدريس، والحاكم المستغرقة أوقاته في إقامة الشريعة، ومَنْ كان من أهل الولايات العامة كالإمام؛ فترك الكسب بهم أولى، لما فيه من الاشتغال عن القيام بما هم فيه[3].

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ ٢٩٧ ، برقم(٣٧٧)، والحاكم في مستدركه ، كتاب الرقاق ٤/ ٣٥٨، برقم(٧٩١٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وجاء تعليق الذهبي في التلخيص: صحيح .

(٢) سورة النور، الآية ٣٧ .

(٣) ينظر سبل السلام ٤/ ١٧٧ .

ومما جاء في الأثر عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، دلّني على عمل إذا عملته أحبّني الله وأحبني النـاس؟ فقال ﷺ: « **ازهد في الدنيا يحبُّك الله، وازهد فيما عند النّاس يحبك الناس**»[1].

والمعنى – والله أعلم – : دلّني على عمل جامع نافع في باب المحبة، إذا أنا عملته أحبنـي الله وأحبني الناس ، قال: ازهـد في الدنيا ، أي: بترك حبّها والإعراض عـن زوائدهـا، والإقبـال على الآخـرة وعوائدها ؛ يحبّك الله تعـالى – أي لعدم محبتك ما يكرهه الله تعالى، ولاسـيما أعداءه وما يظهر أو يبطن ولايتك لهم– ، وازهـد فيما عنـد الناس – أي من المال والجاه– ؛ يحبّك الناس لتركك محبوبهم، وعدم المزاحمة على مطلوبهم، وأنشد بعضهم :

ومـا الزهـد إلا في انقطاع الخلائق
ومـا الحـق إلا في وجـود الحقائـق
وما الحـب إلا حب مـن كان قلبه
عن الخلق مشـغولاً برب الخلائق

ولا شك أن شيئين إذا عملهما المسلم أصاب عز الدنيا والآخرة ؛ التحمل لمـا يكـره إذا أحبّه الله تعـالى، والترك لما يحـبّ إذا كرهه الله تعـالى، فهو بذلك يسلم من شرٍّ كبير، ويحظى بخير وفير، والله يتولى توفيقه والإحسان إليه .

---

(١) جاء في كتب الحديث : حديث حسـن، وقد رواه ابن ماجه وغيره بأسـانيد حسنة. وقد ذكره صاحب البيان والتعريف ١/ ٩١ ، برقم(٢١٢) .

ومما نلحظه أنّ السّلف يرحمهم الله تعالى بينوا معاني الزهد الواردة في هذا الحديث؛ أنّه انصراف النّفس عن الدنيا مع القدرة عليها لأجل الآخرة خوفاً من النار، أو طمعاً في الجنة، أو ترفعاً عن الالتفات إلى ما سوى الحق، ولا يكون ذلك إلا بعد شرح الصدر بنور اليقين ، و قد لا يتصور الزّهد ممن ليس له مال ولا جاه [1].

ومما جاء عن حكيم الزمان الإمام يحيى بن معاذ الرازي (ت٢٥٨هـ) رحمة الله عليه ، أنّه قال: « الزهد يورث السَّخاء بالمُلك، والحبّ يورث السَّخاء بالروح »[2] .

وسئل الإمام الجنيد بن محمد البغدادي يرحمه الله عن الزّهد ؟ فقال: « خلو اليّد من المُلك، والقلب من التتبع، وخلو القلب عمّا خلت منه اليد »[3].

وقال بعضهم لمالك بن دينار رحمه الله : يا زاهد ، قال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيم زهدت ؟! [4].

ولاشك أنّ هذا فيه بيان لكمال الزّهد كما قال صاحب « فتح القوي

---

(١) ويرى آخرون: أنّ الزهد مرتبة قلبية ؛ فهي تشمل الفقير والغني .

(٢) الرسالة القشيرية، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧ .

(٤) وروى أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٥٧، بسنده إلى مالك بن دينار ، أنه قال : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها ، وجاء في الزهد لابن أبي الدنيا برقم(٥٢٩) : أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها .

المتين»، وإلا فأصل الزّهد : هو عدم الميل إلى الشيء، وهو في الحقيقة لا يحصل إلا بنفحة إلهية تصرف السّالك عن الأمور الفانية، وتشغله بالأحوال الباقية .

وغايتـه: أن النَّفـس مدعية للزهـد ، ولا يظهر صدقها مـن كذبها إلا عند القدرة على الدنيا ووجهها ، وأما عند فقدها فالأمر دائر بين أحد الاحتمالين.

وثمرته: القناعة من الدنيا بقدر الضرورة من زاد الطريق ؛ وهو مطعم يدفـع الجـوع ، وملبس يسـتر العـورة ، ومسـكن يصون عن الحـرِّ والبرد ، وأثاث يحتاج إليه.

وكذلك فيه دليل على أن الزّهد أعلى المقامات، وأفضلها؛ لأنه ﷺ جعله سبباً لمحبّة الله تعالى، وأنّ مُحبّ الدنيا متعرّض لبغض الله سبحانه .

وأنّ الزّهـادة في الدنيـا ليسـت بتحريم الحـلال ولا إضاعة المـال، ولكن الزَّهـادة في الدنيـا أن لا تكـون بما في يديك أوثق منك بـما في يد الله تعالى ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصِبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك.

وأن الزّهـد في الدنيـا يريـح القلب والبـدن، والرّغبة في الدنيـا تطيل الهمّ والحزن، وأنّ أصحاب رسـول الله ﷺ أحـرصُ الناس على فعل كلِّ معروف، وأسبقُ الناس إلى كلِّ خير، وقد حرص الصحابيُّ في الحديث السّابق على معرفة ما يجلبُ له محبَّةَ الله ومحبَّة الناس، فبادَر إلى سـؤال النَّبي ﷺ هذا السـؤال، ومما يُلحـظ أن هـذا التسـاؤل يتجدد للمسـلم في أي عصر ومِصْر؛ فعليـه أن يقدّم محبَّة الله عزَّ وجلَّ على أي شيء، ويحرص على أسباب تحصيلها، ولاسيما بالزّهد في الدنيا، وترك كلّ ما يشغله عن الله تعالى.

وجـاء في الأثر عن أبي سـليمان الـداراني ، أنّـه قـال: « اختلفوا علينا في الزّهـد بالعـراق، فمنهم مَـنْ قال: الزهد في ترك لقاء النـاس، ومنهم مَنْ قـال: في ترك الشـهوات، ومنهم مَـن قال: في ترك الشّـبع، وكلامهم قريب بعضُـه مـن بعض، قال: وأنا أذهب إلى أنَّ الزهدَ في ترك ما يشـغلك عن الله عزَّ وجلَّ. وهذا الذي قاله أبو سـليمان حسن؛ وهو يجمع جميع معاني الزهد وأقسامه وأنواعه » [1].

وفي الأثر المرفوع جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: « **يـا أيهـا النـاس إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلا طيبـاً، وإن الله أمر المؤمنـين بما أمر به المرسـلين فقـال:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[2]، **وقـال:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾[3]. **ثـم ذكر الرجل يطيل السَّفر ، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام ، وغذّى بالحرام؛ فأنّى يُستجاب لذلك ! »** [4].

وكان أبو يوسف الغسولي رحمه الله يلزم الثغر، ويغزو في سبيل الله، فكان إذا غـزا مـع الناس ودخلوا بلاد الروم أكل أصحابـه من ذبائحهم، وفواكههم

---

(١) جامع العلوم الحكم (٢/ ١٨٦) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٧ .

(٤) أخرجـه الإمـام مسـلم في صحيحـه ٢/ ٧٠٣، برقـم(١٠١٥) ، والإمام أحمد في مسـنده ٢/ ٣٢٨ ، برقم (٨٣٣٠) .

وهو لا يأكل، فيقال له: يا أبا يوسف أتشك أنّه حلال ؟ فيقول: لا، فيقال له: فَكُلْ من الحلال ، فيقول : إنما الزهد في الحلال [١].

وجاء عنه أنه قال: ليَكْفيني في السنة اثنا عشر درهماً في كل شهر درهم، وما يحملني على العمل إلا السُّنّة ؛ هؤلاء القراء يقولون: أبو يوسف من أين يأكل ؟! أنا أتفقّه في مطعمي من ستين سنة [٢].

وجاء في الأثر : أن بشر بن الحارث رحمة الله عليه قال: سمعت المعافي ابن عمران يقول: كان عشرة فيمَنْ مضى من أهل العلم ينظرون في الحلال النَّظر الشديد، لا يُدْخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفوا التراب، ثم عدَّ بشر؛ إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وعلي بن الفضيل، وأبا معاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وداود الطائي حتى عدّ العشرة . وقال بشر: ينبغي للرجل أن ينظر خبزه من أين هو ، ومسكنه الذي سكنه أصله من أي شيء هو ، ثم يتكلّم – أي بالموعظة والزّهد والورع بين الناس – [٣].

وقال محمد بن مقاتل: ينبغي للرجل أن ينظر رغيفه من أين هو ، ودرهمه من أين هو [٤].

---

(١) ينظر مختصر شعب الإيمان، للقزويني، ص ٨٤ .

(٢) ينظر الورع، لأبي بكر المروذي، ص ١٤، برقم(٣٣) . وقد قال ابن حبان في الثقات ٩/ ٢٨٤، برقم(١٦٤٥٧): « اسمه يعقوب بن المغيرة، من عبّاد أهل الثغر، ممن لا يأكل إلا الحلال المحض، فإن لم يجد استفّ الرملة ».

(٣) ينظر الورع، لأبي بكر المروذي، ص ١٥، برقم(٣٧) . وتاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٢٠١ .

(٤) ينظر الحث على التجارة والصناعة والعمل، لأبي بكر ابن الخلّال الحنبلي، ص ٤٤، برقم (٣٦) .

ومن الكلمات المشرقة في صفحات الأمة ووصايا رسولها الكريم ﷺ ؛ ما جاء في الأثر عن الحسن قال: قالوا يا رسول الله: أي الأعمال أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال: « **كسب الحلال ، و أن تموت و لسانك رطب من ذكر الله عزَّ وجَلّ** » [1] .

ومن المعلوم أن المسؤولية الكبيرة في هذا الباب إنّما تترتب على أهل العلم وحملته ، ولاسيما في تذكير الناس بطلب الكسب الحلال، والتعامل مع هذا الجانب من خلال ميزان الشريعة، وإظهار مدى تأثير القرآن الكريم في ضبط سلوك الأمة ، وتوجّهات أبنائها.

وعلى أهل العلم كما قال الفقيه أبو الليث رحمه الله تعالى: أن يحافظوا على الخشية، والنصيحة، والشفقة، والاحتمال، والصبر، والحلم، والتواضع، والعفّة عن أموال الناس، والدوام على النظر في الكتب لمراجعة ما تعلّموه من المسائل، وأن لا ينازعوا أحداً ، ولا يخاصموه في غير حق ، وأن يشتغلوا بما يُصلح النفس والأمّة ، وإن أرادوا أن يرغموا أنف عدوّهم فليحصّلوا العلم وفنون هذا الإرغام، وأن لا يترفوا أنفسهم في المطعم والملبس، ولا يبالغوا في التجمّل بالأثاث والمسكن، بل يؤثروا الاقتصاد في جميع الأمور ، ويتشبّهوا بالسَّلف الصالح، وكلّما ازداد إلى جانب القلّة ميلهم ازداد قربهم من الله سبحانه وتعالى؛ لأن التزين بالمباح وإن لم يكن حراماً – لِمَن أسرف في الخوض فيه – يوجب الأنس به حتى يشقّ تركه، فالحزم اجتناب ذلك لأن مَنْ خاض في الدنيا لا يسلم من مهالكها مع كونها مزرعة الآخرة؛ إذ فيها الخير والشر.

---

(١) أخرجه أبو بكر عبد الله القرشي في إصلاح المال ١/ ٧٢، برقم (٢٠٨) .

وجاء في صفحات الأمة المشرقة أنه قد قيل لمعروف الكرخي (ت٢٠٠هـ) رحمة الله عليه : أوصِ؛ فقال: إذا متُّ فتصدّقوا بقميصي هذا، فإنّي أُحبُّ أن أخرج من الدنيا عُرياناً كما دخلتُ إليها عُرياناً[١] .

ولاشكّ أن استثمار المال بوجهه، ومعرفة رتبته في إصلاح أمور الدنيا من أجل الآخرة، تقود إلى النعيم؛ فنعم الصالح منه للصالح إذا جعله خادماً لا مخدوماً ، والمال مطلوب لتقوية البدن بالمطاعم وستره بالملبس، ولكسب المعارف والعلم الذي هو المقصد الأسمى، ومن أهم ما يؤكَّد عليه في هذه الفقرة مراعاة جهة الدخل فمَنْ قدر على كسب الحلال الطيّب فليترك المشتبه به، وإن لم يقدر فلا يأخذ من المشتبه به إلا قدر الحاجة.

وعلى المسلم أن يلتزم المنهج الوسط في سائر أموره ؛ فإنّما هو المنهج الصحيح الذي علمنا إيّاه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[٢].

وقد جاء عن إمام السّلف سعيد بن المسيب يرحمه الله ، أنّه قال: لا خيرَ في مَن لا يطلب المالَ يقضي به دَيْنَه، ويصون به عِرْضَه، ويقضي به ذِمامَه- الحقوق التي عليه- ، وإن مات تَرَكه ميراثاً لمَن بعده[٣].

---

(١) ينظر حلية الأولياء ٨/ ٣٦٢، وطبقات الأولياء ص ٢٨٥ .

(٢) سورة الإسراء، الآية ٢٩ .

(٣) ينظر الحث على التجارة والصناعة والعمل، لأبي بكر ابن الخلّال الحنبلي، ص ٥٠، برقم (٥١) .

وعليه: فلابد أن يقدّم المسلم النيّة في مدخولاته ومصروفاته المالية، وأن يستعين بها على الطاعة والعبادة، وعلى توظيفها وطاقاته في سبيل الله عزّ وجلّ؛ فهذا خير ما تصرف فيه النوايا، ومنه تعالى التوفيق والإعانة .

*** وفي القناعة بما منّ الله تعالى به من الرّزق، والتسليم لإرادته تعالى في ذلك، وترك التكلّف للناس، بما لا يطيقه المسلم، أو يُثقل عليه في دخله، وأسلوب حياته؛** يظهر أثر القرآن الكريم في سلوك النبي ﷺ وأُمّته، من خلال قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1] ، واتضح أثر ذلك في تعليمه ﷺ لأُمّته ؛ إذ جاء في الأثر عن أنس رضي الله عنه قال: أُتي النبي ﷺ: بقَعْب - أي قَدَح -فيه لبن ، وشيء من عسل، فقال: « **أُدمَان في إناء لا آكله، ولا أحرمه** » [2] ، دلالة على القناعة والاكتفاء بنوع واحد من الطعام، لئلا يقع في الإسراف أو التبذير ، فالحلال لا يحتمل السّرف.

ويلحظ المسلم أثر القرآن في توجيهات النبي الخاتم ﷺ ؛ إذ جاءت إرشاداته ﷺ تبث روح الوعي بمعاني القرآن ومراميه، وتنشّط الأمة، وتبعثها على القناعة بالإسلام ديناً ومنهجاً وعلى العيش في ظلاله، والاسترزاق في كنفه ؛ فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: « **أفلح من هُدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به** » [3].

---

(١) سورة ص، الآية ٨٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٦ ، برقم (٧١٤٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٦ ، برقم (٧١٤٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقد أخرجه ابن ماجه في سننه ،باب القناعة ٢/ ١٣٨٦ ، برقم (٤١٣٨).

* وفي ظهور أثر القناعة والتقلل على المجتمع المسلم، وضرورة مواصلة تذكير الأُمة به؛ جاء في صفحات الأمة المشرقة أن بشر بن المبارك الراسبي قال: ذهبت مع جدي في وليمة فيها غالب القطان، قال : فجيء بالخوان - شيء يؤكل عليه أو المائدة- فوضع، فمسك القوم أيديهم!! ، فسمعتُ غالب القطان يقول: ما لَهُم لا يأكلون ؟! ، قالوا : ينتظرون الأدم[1]؛ فقال غالب: حدثتنا كريمة بنت همام الطائية عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « **أكرموا الخبز ، وإن كرامة الخبز أن لا يُنتَظر به** » فأكله وأكلنا [2].

وفي ذلك أيضاً : **واقعة تعلّم ضرورة ترك التكلّف، وإصلاح سلوك المجتمع المسلم وأفراده وأُسره ، ولاسيما في علاقاتهم فيما بينهم ومع الآخرين، وتحثّ على ترك المجاملة إذا كانت على حساب الالتزام بمنهج النبي ﷺ في السلوك الحياتي** ؛ فقد جاء عن الأعمش عن شقيق قال: دخلتُ أنا وصاحب لي على سلمان رضي الله عنه ، فقرّب إلينا خبزاً وملحاً ، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ نهانا عن التكلّف لتكلّفت لكم ، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا سعتر!؛ فبعث سلمان بمطهرته إلى البقال ، فرهنها فجاء بسعتر فألقاه فيه ،

---

(١) أي ينتظرون أن يقدِّم بين أيديهم ما يخلطونه بالخبز كاللحم أو المرق ليُستساغ في عُرف الإطعام .

وفي لسان العرب١٢/ ٩: الأُدْمُ، بالضم: ما يؤكل بالخبز أَي شيء كان .

وقد جعل اللحم أُدْماً والبعض لا يجعله أُدْماً ، والجمع آدِمةٌ وجمع الأُدْمِ آدامٌ، وقد ائتَدَم به . و أَدَمَ الخبز يَأْدِمُه، بالكسر، أَدْماً: خلطه بالأُدْم . وقد أنشد ابن بري:

إذا ما الخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فذاك أمانَة الله الثّريدُ

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٦ ، برقم (٧١٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

فلمـّـا أكلنـا ، قال صاحبي : الحمد لله الـذي قنّعَنا بما رزقنا ، فقال سـلمان: لو قنعتَ بما رُزقت ، لم تكن مطهرَتي مرهونة عند البقّال![1].

ولاشـك أن المسـلم يتشـوّف إلى معرفة الحِكَـمِ من هـذه التعاليم ، وهي ليسـت بقليلـة ؛ ولعـل مـن أظهـر هذه الحِكَـم ما جـاء في الأثر عـن أبي أمامة رضي الله عنـه أن النبـي ﷺ قـال: « **إن أغبط الناس عنـدي لمؤمن خفيف الحاذ - أي الظَّهَر- ذو حظ من الصلاة، أحسـن عبادة الله، وأطاعه في السِّر ، غامضاً في النّاس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك . ثم نفض رسول الله ﷺ بإصبعه، وقال: عجلت منيّته، وقلّت بواكيه ، وقل تراثه** »[2].

ط) تنمية ثقافـة فهم القـرآن بلغـة القـرآن؛ للتأثر بمناهجـه التربويـة والحضارية، والسلوكية :

إنّ وصـول الفـرد إلى مرحلة الفهم السـليم للخطاب القـرآني، وتحليل أبعـاده، والرقي بالروح إلى المسـتوى الإيماني الـذي أراده الله تعالى للعباد من خـلال آيـات كتابه الكريم ، وسـلوك منهجه السـوي في عبـور الدنيا بنجاح وتميّـز؛ هو غاية عظمى في دراسـة العلوم، والاطـلاع على المعارف، وخوض

---

(١) أخرجـه الحاكـم في المسـتدرك عـلى الصحيحـين ٤/ ١٣٦ ، برقـم (٧١٤٦)، وقال: هذا حديـث صحيـح الإسـناد ولم يخرجـاه، وله شـاهد بهذا الإسـناد وسـاقه في ٤/ ١٣٧ ، برقـم(٧١٤٧) عن عبـد الرحمن بن مسـعود العبدي، قال: سـمعت سـلمان الفارسي رضي الله عنه يقول : نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٣٧ ، برقم (٧١٤٨)، وقال: هذا إسناد للشاميين ، صحيح عندهم ، ولم يخرجاه .

تجارب الحياة والفنون، والإفادة من تجارب الأمم المتّبعة للهدى ، ولاسيما في التعامل مع الرسل والرسالات على تنوّع أزمانها وأماكنها ، واختلاف أعراقها ، ومن بين هذه العلوم والمعارف علوم العربية التي هي أس فهم القرآن الذي نزل بها.

ولاشك أن الشِّعر والنَّظْم في القول عند العرب من الأعمدة المحافِظة على تراثهم، وبهما تحفظ المجتمعات العربية أصالة انتمائها - لفظاً ومعنى - إلى العربية لغة القرآن الكريم وأسلوب التعبير عن معانيه ومراد الله تعالى بآياته، وأنّ الاستمرار والنجاح في المحافظة على العربية ومقوماتها ؛ هو ثبات في الحفاظ على المعاني الهادفة في نتاج الفكر العربي، وما تشهده المجتمعات العربية والمسلمة من نهضة في مجالاتها التوعوية والإرشادية هو انعكاس لهذه النتيجة وسير في خطى النجاح المأمول.

وبالنتيجة: فإنّ جميع ما أشرنا إليه يُسْهِم في جعل المنظومة الفكرية والسلوكية للمجتمع المسلم تسير في ضوء منهج الوحي الإلهي ومراده، وستنال الأُمة الإسلامية الجمع بين جميل النظم وعظيم المعنى، وبين بديع القول وشريعة التوحيد الموجهة إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وبذلك تتحقق إذاعة ثقافة الفهم للقرآن ومعانيه بلغة كتابته، ليُتوصّل إلى تحقيق فهم مراده،وتطبيق تعاليمه بأقصر طريق، وأسرعه[1].

---

(١) وقد بيّن الإمام محمود شكري الآلوسي البغدادي(ت١٣٤٢ هـ) رحمة الله عليه في كتابه (إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد): أنّ الكلام الذي يُستشهد به على نوعين: شِعْرٌ ونثر ؛ والقائلون للشِّعر على طبقات ؛ الأولى : الجاهليون :=

ونبّه الأوّلون السّابقون على أهمية العناية بشِعر العرب ؛ لتتوصّل الأمة إلى فهم معاني الكتاب المجيد، وتستعين به على تحفيز مَلَكة الحفظ، وتصقل بمنطقه ألسنة أبنائها بما ينسجم مع أصول بنْيَة العربية ، وكذا قواعد تكوين بنيته الحرفية التي لا تخرج في غالبها عن لغة القرآن، مع إطباق الأمة وإجماعها على الفارق في مرجعية كل منهما – القرآن والشعر –؛ فالقرآن إلهي لا خطأ يعتريه من حيث اللفظ أو المعنى، أما الشعر فهو بشري يعتريه الخطأ، ويأتي أهله الباطل من حيث انتماءاتهم، أو أعراقهم، أو تقاليدهم الموروثة والمتناقلة عبر الأجيال والتاريخ .

وتقرر أنّ القرآن قاموس لغة العرب المحيط، وأنه الفيصل في الحكم

= وهم الذين لم يدركوا الإسلام، كـ(امريء القيس، والأعشى)، والثانية: المخضرمون : وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كـ(لبيد ، وحسان) ، والثالثة: المتقدّمون، ويقال لهم: الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كـ(جرير، والفرزدق) ، والرابعة: المولَّدون، ويقال لهم: المـحْدَثُون، وهم من بعدهم إلى زماننا هذا كـ(بشار بن بُرْد، وأبي نواس) ؛ فالطبقتان الأُوْلَيان يُستشهد بشعرهما في جميع علم الأدب، يعني علم اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع وغيرهما بالإجماع. وأما الثالثة، فالصحيح: صحة الاستشهاد بكلامها، ولاشك أن كل قديم من الشعراء مُحْدَث في زمانه ، نظراً إلى مَنْ كان قبله، وأما الرابعة : فالصحيح أنّه لا يُستشهد بكلامها مطلقاً، وقيل : يُستشهد بكلام مَنْ يُوثق به منهم، واختاره الزمخشري، وتبعه المحقق الرضي ..

أما النوع الثاني : فهو النَّثر ، فالمقبول فيه ما كان من الطبقات الثلاث الأول من طبقات الشعراء التي تقدّم ذكرها .

وذكر ابن سلام الجمحي في كتابه « طبقات فحول الشعراء » تفصيلاً لهذه الطبقات وللشعراء ، وزاد عليها تفريعات أخرى مفيدة، فلينظرها مَنْ أراد التوسع والفائدة .

عـلى مرجعية الفصاحـة والبلاغة في لغتهم لا العكس، وجـاء في الأثر عن أمّ المؤمنـين عائشـة رضي الله عنها، أنّها قيـل لها : هل كان رسـول الله ﷺ يتمثّل بـشيء من الشـعر؟ قالـت: « كان يتمثل بشـعر ابن رواحة، ويتمثـل ويقول : ويأتيك بالأخبار من لم تزود »[1] .

وحـدّث عبـد الرحمن بـن صخـر رضي الله عنه في فضل شـاعر الأمة ابن رواحـة رضي الله عنـه فقـال: إن أخاً لكم لا يقـول الرفث - يعنـي بذلك ابن رواحة - قال :

وفينـا رسـول الله يتلـو كتابـه
إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانـا الهـدى بعـد العمـى فقلوبنا
بـه موقنـات أن مـا قـال واقـع
يبيـت يجـافي جنبـه عـن فراشـه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع[2]

وروى الـبراء بـن عـازب رضي الله عنه قـال: رأيت رسـول الله ﷺ ينقل الـتراب يـوم الخنـدق ، حتى وارى التراب شـعر صـدره ، وهو يرتجـز بكلمة عبد الله بن رواحـة يقول :

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٥/ ١٣٩ ، برقم (٢٨٤٨). والقول لطرفة بن العبد (ت ٥٦٤ م).
(٢) تهذيب الآثار ٢/ ٦٧٠ ، برقم (٩٨٦) .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

يمد بها صوته [1] .

---

(١) جاء في طبقات فحول الشعراء (١/ ٣٠ - ٣١) : عبد الله بن رواحة، عظيم القدر في قومه، سيد في الجاهلية، ليس في طبقته التي ذكرنا أسود منه (أي أكثر سيادة وشرفاً). شهد بدراً، وكان في حروبهم في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم. وكان في الإسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول الله ﷺ .
ومما جاء في الأثر: أن عبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، يقودها، وقد اجتمع أهل مكة وغلمانهم ينظرون إليه، فقال:

خَلُّوا بَني الكُفَّار عن سَبِيلِهِ خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ مَعْ رَسُولِهِ
نَحنُ ضَرَبناكُمْ على تَأْوِيلِهِ كما ضَربنَاكُمْ على تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عن مَقِيلِهِ ويُذْهِلُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ

وقد روى عمر بن أبي زائدة قال: سمعت مدرك بن عمارة يقول: قال عبد الله ابن رواحة : مررت بمسجد رسول الله ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فأضبّ القوم - أي تكلموا جميعاً -: يا عبد الله بن رواحة ! يا عبد الله بن رواحة ! فعرفت أن رسول الله ﷺ دعاني، فانطلقت إليهم مسرعاً، فسلَّمت، فقال: ههنا. فجلست بين يديه فقال - كأنه يتعجب من شعري - : كيف تقول الشعر إذا قلته ؟ قلت: أنظر في ذلك ثم أقول. قال: فعليك بالمشركين. قال: فلم أكن أعددت شيئاً، فأنشدته، فلما قلت:

فَخبِّرُوني أَثْمانَ العَبَاءِ متَى كُنْتُم بَطَاريقَ أودَانتْ لكم مُضَرُ ؟

قال: فكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهة إذ جعلت قومه أثمان العباء فقلت: =

ومما جاء في الأثر في مدح الشِّعر قوله ﷺ : « **أشعر كلمة تكلّمت بها العرب كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل** »[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: « **أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل** » [2].

وجاء عن عمرو بن الشريد عن أبيه سويد الثقفي الصحابي رضي الله عنه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال : **هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئاً**[3] ؟ قلت: نعم ، قال: **هيه**، فأنشدته بيتاً ، فقال: **هيه**، ثم أنشدته بيتاً،

= نُجَالِدُ النَّاسَ عَنْ عُرْضٍ فَنَأْسِرُهم ... فِينَا النَّبيُّ وفينَا تُنْزَلُ السُّوَرُ
وقد عَلمتم بأَنَّا ليسَ غَالِبَنَا ... حيٌّ من الناس إنْ عَزُّوا وإن كَثُروا
يَا هَاشِمَ الخَيرِ إنَّ اللهّ فَضَّلكم ... عَلَى البَرِيَّة فَضلاً مَالَهُ غِيَرُ
إنّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الخيرَ أعرِفُهُ ... فِراسةً خَالفتْهُمْ في الّذي نَظَرُوا
ولوْ سألتَ أَو اسْتَنْصَرتَ بَعْضَهُمُ ... في جُلِّ أَمْرِكَ ما آوَوْا وَما نَصَرُوا
فَثَبَّتَ الله مَا آتَاكَ من حَسَنٍ ... تَثْبِيتَ مُوسى ونَصْراً كالّذي نُصِرُوا

فأقبل عليَّ بوجهه متبسماً . ثم قال: وإيَّاك فثبّت الله.
وأرسله رسول الله ﷺ إلى مؤتة ثالث ثلاثة أمراء: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وابن رواحة. فلما قتل صاحباه، كأنه تكره الإقدام فقال:

أَقْسَمتُ يا نَفْس لَتَنْزِلِنَّهْ ... طَائِعَةً أوْ لتُكْرَهِنَّهْ
فَطَالما قَدْ كُنْت مُطْمَئِنَّهْ ... مَا لي أرَاكِ تَكْرَهِينَ الجنَّةْ؟

فقتل يومئذ ، رحمة الله عليه.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٢ ، برقم (٢٢٥٦) .
(٢) معتصر المختصر ٢/ ٣٢٤ ، (في التمثل بالشعر والرجز).
(٣) وقوله ﷺ : « **هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئاً** »، هكذا وقع في معظم النسخ (شيئاً) بالنصب ، وفي بعضها (شيء) بالرفع، وعلى رواية النصب يقدّر =

فقال: **هيه**، حتى أنشدته مائة بيت، قال: **إن كاد ليسلم**». وفي رواية: «**فلقد كاد يسلم في شعره**»[1]. ولعل مما يلحظه القارئ في ذلك: أن النبي ﷺ استحسن شعر أمية، واستزاد من سماعه لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، وهذا السلوك النبوي يبعث رسالة واضحة للأُمة فيها جواز إنشاد الشعر الذي لا فُحش فيه، وسماعه سواء أكان شعر الجاهلية أو غيرهم، وأن المذموم هو الإكثار منه، أو أن يكون غالباً على الإنسان، فأما يسيره الذي لا فُحش فيه فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه.

وجاء في بعض الآثار أنّه ﷺ قد ذمّ أحد الغلاة في الشِّعر، ممن يقولونه في غير محلّه، أو يتفحّشون فيه؛ فروى ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً**»[2].

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ؛ إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله ﷺ: «**خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً**»[3].

قال الشعبي: يعني من الشعر الذي هُجي به النبي ﷺ. وقال أبو عبيد: والذي عندي في هذا الحديث غير هذا القول؛ لأن الذي هُجي به النبي ﷺ

= فيه محذوف أي: هل معك من شيء فتنشدني شيئاً. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٢، برقم (٢٢٥٥)، (كتاب الشعر).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١١، برقم (٢٢٥٥)، (كتاب الشعر).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٢٧٩، برقم (٥٨٠٢)، وغيره.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٧٦٩، برقم (٢٢٥٩)، (كتاب الشعر).

لو كان شطر بيت لكان كفراً ، ولكن وجهه عندي: أن يمتلئ قلبه حتى يغلب عليه فيشغله عن القرآن وعن ذكر الله ، فيكون الغالب عليه من أي الشعر كان . حتى روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّها لمّا سُئلت عن تناول الرسول ﷺ الشِّعر ، وعلاقته به ، قالت: كان أبغض الحديث إليه[1].

وقد نقل الإمام القرطبي في تفسيره لآية الشعراء عن العلماء قولهم : (وإنما فَعَل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما عَلِم مِن حَاله ، فَلعل هذا الشاعر كان ممن قد عُرِف مِن حَاله أنه قد اتَّخَذ الشِّعْر طَريقًا للتَّكَسُّب ، فَيُفْرط في المدح إذا أُعْطِي ، وفي الهجو والذَّمّ إذا مُنِع ، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم . ولا خلاف في أنّ مَن كان على مثل هذه الحالة فكل ما يَكتسبه بالشعر حرام، وكل ما يقوله من ذلك حَرام عليه ، ولا يَحِلّ الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ... ولا يَحِلّ له أن يُعْطَى شيئاً ابتداء ؛ لأن ذلك عَون على المعصية)[2].

قال السّهيلي : فإن قلنا بذلك ، فليس في الحديث إلا عيب امتلاء الجوف منه ، فلا يدخل في النهي رواية اليسير منه على سبيل الحكاية، ولا الاستشهاد به في اللغة [3].

وسماه شيطاناً باعتبار إطلاقها – أي كلمة الشيطان – على كل عات متمرد من الإنس والجن والدواب، والعرب تسمي الحية شيطاناً .

---

(١) أخرجها البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢٤٤-٢٤٥ ، برقم (٢٠٩٣٥-٢٠٩٣٦) ، (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن) .

(٢) ١٣/ ١٥٠ .

(٣) ينظر فتح الباري ١٠/ ٥٤٨- ٥٤٩ ، (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله) .

وفي قوله تعالى: ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[1] ثلاثة أوجه: أحدها: أنه شبه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، والثاني: أن العرب تسمي بعض الحيات شيطاناً وهو ذو عرف قبيح، والوجه الثالث: قيل إنه نبت قبيح يسمى رؤوس الشياطين [2].

وبيّن الإمام النووي رحمه الله : بأنّ المراد أن يكون الشِّعر غالباً ومستولياً عليه، بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى ، وهذا مذموم من أي شعر كان ، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا يضرّ حفظ اليسير من الشعر معه ، لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً .

واستدلّ بعض العلماء بالحديث المتقدّم على كراهة الشعر مطلقاً قليله وكثيره، وإن كان لا فُحش فيه، وكذلك بما يظهر من أحوال الشعراء من الإسْرَاف وَالكَذب ؛ لأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى الشُّعَرَاءِ قِلَّةُ الدِّينِ، وَالْكَذِبُ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ ، وَهِجَاءُ الأَبْرِيَاءِ ، سيما مَنْ كان في ابتداء الإسلام ممن يهجو المسلمين ويهجو النبي ﷺ ويعيب على الإسلام، ويمدح الكفار فوقع الذم على الأغلب [3] .

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

(٢) قاله الفراء ، ينظر مختار الصحاح ١/ ١٤٢ ، (شطن) ، ومعجم البلدان ٣/ ٣٨٤ .

(٣) ينظر المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، حكم الحداء والشِّعر، ١٢/ ٤٤ .

وذهب الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره إلى أنّ أحسن ما قيل في تأويل الحديث المتقدّم : « إنه الذي قد غلب عليه الشِّعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذّكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول . ومن كان الغالب عليه الشّعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنيّة، لحكم العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لمّا بوّب على هذا الحديث (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر) »[1].

ورأى أغلب العلماء أنّ الشِّعر مباح ما لم يكن فيه فحش ونحوه ، وعللوا ذلك بأنه كلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، وهذا هو الصواب فقد سمع النبي ﷺ الشِّعر ، واستنشده ، وأمر به حسّان في هجاء المشركين، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[2] نلحظ أنّه تعالى استثنى من الشعراء من لا يفعل الخصال المذمومة؛ فالآية دليل على إباحة الشِّعر ومدح أهله المتصفين بالصفات الجميلة. وقيل معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفِّر لما سبق من أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وقوله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٥١ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

تعالى: ﴿ وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ ﴾ ، قال ابن عباس: يردّون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين، وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد[1].

وكما جاء في الصحيح أن سعيد بن المسيب قال: مرَّ عمر في المسجد وحسان ينشد، فقال: كنت أنشد فيه وفيه مَنْ هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: **أجب عني، اللهم أيده بروح القدس** ، قال: نعم [2] .

وكذلك استدلوا بما حدَّث به البراء رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ لحسان : « **اهجهم أو هاجهم وجبريل معك** »[3] .

وكذلك استُدِلَّ على إباحة الشِّعر ما لم يكن فيه فحش ونحوه بما أنشده

---

(١) ينظر المغني (حكم الحداء والشِّعر)، لابن قدامة ١٢/ ٤٤ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٧٦ ، برقم(٣٠٤٠) . هذا وقد جاء ما يفهم منه النهي لحسّان في هذا الباب ؛ إذ ذكر محمد بن فتوح الحميدي في كتاب الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم ٣/ ٢٥ ، برقم (٢٢١٠) ، حديث (٤٣)؛ فيما جاء عن الزهري عن سعيد بن المسيب قال : (مرّ عمر في المسجد وحسان ينشد الشعر ((**فلحظ إليه**)) فقال كنت أنشد..) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٧٦ ، برقم (٣٠٤١) . وفي ذلك إباحة للمسلم بأن يهاجي المشركين ؛ إذ الردّ بالقول ومنه الشِّعر أحد الجهادين ؛ فقد أخرج ابن حبان في صحيحه ١١/ ٥ ، برقم (٤٧٠٧)، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال: يا رسول الله ما ترى في الشِّعر ؟ ، قال : « **إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل** » ، وفيه رواية أيضاً ١٣/ ١٠٢ ، برقم (٥٧٨٦) : « **لكأنما ترمونهم نضح النبل** » .

الصحابة بحضرته ﷺ في الأسفار وغيرها، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السَّلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه ، وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه ، وأما تسمية هذا الرجل الذي سمعه ﷺ ينشد شيطاناً، فلعله كان كافراً ، أو كان الشِّعر هو الغالب عليه ، أو كان شعره هذا من المذموم ، وبالجملة فتسميته شيطاناً إنما هو في قضية تتطرق إليها الاحتمالات المذكورة وغيرها ، ولا عموم لها فلا يحتج بها [1].

ووظّف العلماء الشِّعر في فهم القرآن، وإيضاح معانيه للأُمّة، ولاسيما بعد أن ضَعُفَت في الإنسان إمكاناته الإدراكية ، وقلّت قابليته على الحفظ والفهم، واختلط أهل لغة القرآن بغيرهم ممن لم يكن له سابق عهد بها ، فشاع ضعف إدراك أصول العربية، أو التحدّث بها ، وفقدت المجتمعات ما كانت عليه في مجتمع الوحي من الفصاحة والبلاغة وفقه اللغة ، ولاسيما في كثير من أمصار العرب والمسلمين اليوم .

ومما جاء في صفحات الأمة المشرقة استثمارها الشِّعر في تقوية هذا الجانب فيها ؛ إذ استعمل الشّعر كوسيلة لتنمية الثقافة، وحفظ العلوم، لاسيما في فهم القرآن الكريم، والتأثر بمناهجه الأدبية، وأساليبه في التوجيه والتربية، وإيصال المعرفة، والبناء اللغوي والنقدي وإشاراته السّلوكية .

* **ومن ذلك: حفظ الشِّعر كشواهد لفهم القرآن الكريم وتفهيمه**، وهو ما جاء في سيرة العلامة ابن الأنباري البغدادي (ت٣٤٠هـ) رحمة الله عليه كان يحفظ ثلاث مئة ألف بيت شاهداً في القرآن[2].

---

(١) ينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤-١٥ .

(٢) ينظر المنتظم ٦/ ٣١١، برقم (٥١٢)، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٢٨٠، برقم(١٩٣)، والبداية والنهاية ١١/ ١٩٦ .

وجاء في الآثار أنّ الإمام عبد الله بن عطية الدمشقي المفسِّر (ت٣٨٣ هـ) رحمة الله عليه، كان يحفظ خمسين ألف بيت شعر في الاستشهاد على معاني القرآن الكريم واللغة[١] .

وذكر الخطيب البغدادي في سيرة أبي الحسن الدارقطني البغدادي (ت٣٨٥هـ) رحمة الله عليه، أنّه مع كونه فريد عصره ، وإمام وقته في علم الأثر، ومعرفة العلل، والقراءات، ومذاهب الفقهاء، والأدب، والشِّعر ؛ كان يحفظ دواوين جماعة من الشعراء كديوان السيّد الحميري[٢].

وجاء في سيرة تلميذ ابن شنبوذ البغدادي ؛ أبي الفَرَج محمد بن أحمد البغدادي الشطوي المقرئ (ت٣٨٨هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان من أعلم الناس بالتفسير، أستاذاً مكثراً من كبار أئمة القراءة، جال البلاد والتقى الشيوخ وأكثر عنهم تلقي العلم، ولكنه اختص بابن شنبوذ وحمل عنه وضبط حتى نُسب إليه، وقد اشتهر اسمه وطال عمره فبلغ الثمانين، وانفرد بعلو الإسناد، ومعرفة علل القراءات، وكان حافظاً نبيلاً حاذقاً يحفظ خمسين ألف بيت من الشِّعر شاهداً للقرآن واللغة[٣].

وبهذه النماذج وغيرها كثير في صفحات الأمة؛ يتضح للأجيال حجم المسؤولية المترتبة عليهم في حفظ مقومات هذا الدين ومنها لغته، وضرورة

---

(١) ينظر تاريخ دمشق ٣١/ ٣٠ ، وطبقات المفسرين للسيوطي ١/ ٤٥.

(٢) ينظر تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥ ، برقم(٦٤٠٤) ، وشذرات الذهب ٣/ ١١٦.

(٣) ينظر النشر في القراءات العشر ١/ ١٢٣.

التنبه لفضل هـذه الوسـيلة -الشِّـعر-في المحافظة على لغـة القرآن، والوصول من خلالها إلى فهم معانيه، والسعي إلى تنمية القدرات في حفظ الموروث الديني والحضاري والقومي لأُمّة العرب نواة أمّة الإسلام الخاتم، والله المستعان.

ع) ظهور أثر القرآن في أبناء المجتمع من الأعيان، وتعزز مكانة أهل القرآن عندهم:

اتضـح من خـلال ما تقـدّم أنّ أهل القرآن هـم أهل الله تعـالى وخاصّته، وأنّهم أشراف هذه الأمة، وسـادة المجتمع، لا سـيما بالمنظور الإيماني، ولاشك أنّ مـن أسـمى ما يتمتع به بعـض أبناء هذه الأمة هو الجمع بين عراقة النَّسَـب وشرف المنتسَـب ؛ فمـن ذلـك مـا ذكره الإمـام أبو الثنـاء الآلـوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) يرحمه الله تعالى، في تفسـيره روح المعاني[1]، قـال: « ورأيت في بعـض الكتـب أن الحبر ابن عباس رضي الله عنهما كان يذهب إلى أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه، فيقف عند الباب ولا يدقّ الباب عليه حتى يخرج!! فاسـتعظم ذلك أُبيّ منه ، فقال له يوماً: هلا دققت الباب يا ابـن عبـاس . فقال ابن عبـاس: العالِـم في قومـه كالنبيّ في أمتـه، وقد قال الله تعالى في حقّ نبيّه ﷺ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، وقد رأيتُ -أي الآلوسي-هذه القصة صغيراً فعملتُ بموجبهـا مع مشـايخي، والحمـد لله تعالى على ذلـك ». فانظر يا رعـاك الله إلى

---

(١) ٢٦/ ١٤٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٥.

أثر القرآن في سلوك الأجيال المسلمة ومجتمعاتها، وعمق معانيه في نفوسهم، وإن بعدت الأوطان، أو طال العهد واختلف الزمان.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في سيرة الشّريف أبي الفضل عبد القاهر بن عبد السلام المكي (ت٤٩٣هـ)رحمة الله عليه ، أنّه كان نقيب بني هاشم بمكة، سكن بغداد، وأقرأ القرآن على القراءات وكان ضابطاً لها، وكان على أحسن طريقة سلكها الأشراف، من دين مكين، واشتغال بالقرآن والعلم، قراءة وتحديثاً، فقد جمع يرحمه الله العلم مع إكرام الله تعالى له بشرف النسب[1].

ونال هذا الفضل وتمتع به أصحاب الأمراء وولاتهم ومواليهم؛ إذ هم أولى الناس عناية بكتاب الله تعالى وأهله ، ومن ذلك ما جاء في سيرة أبي داود سليمان بن أبي القاسم المقرئ مولى الأمير المؤيد بالله ابن المستنصر الأموي الأندلسي (ت٤٩٦هـ) رحمة الله عليه، إذ أصبح شيخ الإقراء وعمدة أهل الأداء ، وباتت له تواليف كثيرة في معاني القرآن الكريم، حتى قال فيه الذهبي: قرأت بخط بعض تلامذته تسمية الكتب التي صنّفها .. ككتاب « البيان الجامع لعلوم القرآن » في ثلاث مئة جزء، ..و« عقود الديانة »، وهو عشرة أجزاء، وعدد هذه الأرجوزة ثمانية عشر ألف بيت، وأربع مئة وأربعون بيتاً. ثم ذكر أن تلميذه سمَّى مؤلفات أبي داود المقرئ تتمة ستة وعشرين مصنفاً. وحظي يرحمه الله بآثار كرامة خدمة القرآن ؛ فمات في السادس عشر من شهر رمضان، شهر القرآن، وتزاحم المسلمون على نعشه رحمه الله وإيّانا [2].

---

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤٤٧، برقم (٣٨٦)، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠٠.

(٢) ينظر معرفة القراء ١/ ٤٥٠-٤٥١، برقم (٣٨٩)، وغاية النهاية ٢/ ٣١٦، وطبقات المفسرين ، للداوودي ١/ ٢١٣، برقم (١٩٨) .

وجاء في سيرة أبي العلاء الحسن بن أحمد الهمداني العطار (ت٥٦٩هـ) رحمة الله عليه ؛ أنّه ممن نال فضل استثمار ماله وجاهه في سبيل تحصيل علم القرآن وخدمته وبثّه؛ إذ كان من أبناء التجار، وأنفق جميع ما ورثه في طلب العلم حتى سافر إلى بغداد وأصبهان ماشياً، وهو يحمل على ظهره كتبه، وقد حدّث عنه الحافظ عبد القادر الرُّهاوي : أنه كان يبيتُ ببغداد في المساجد، ويعيش على الخبز، حتى عظم شأنه وحصّل العلوم النفيسة، وانتهت إليه مشيخة العلم ببلده، مع براعة في القراءات والحديث؛ إذ يقرئ نصف نهاره القرآن والعلم، ونصفه الآخر الحديث، ولا يمس الجزء من الحديث إلا على وضوء[1].

وببركة مجاهدته لنفسه، وعظيم بذله لماله، وتضحيته بجاهه من أجل القرآن وأهله، وحرصه على تعلّمه وتعليمه، ورعايته العلوم الشارحة لكتاب الله تعالى، وبثّها في الناس ابتغاء وجه الله؛ ظهر أثر ذلك كلّه في سلوكه، إذ كانت السُّنّة شعاره ودثاره اعتقاداً وفِعلاً، وكان لا يخشى أحداً ولا تأخذه في الله تعالى لومة لائم، وفاضت عليه بركات القرآن وأنواره، وكان إذا مرّ ببلد لا يبقى أحد رآه إلا قام ودعا له حتى الصبيان واليهود . وتعذّر وجود مثله في أعصار كثيرة، وأربى على أهل زمانه في كثرة السّماعات وإتقان ما كتب، وتحوّل رحمة الله عليه من أبناء التجار إلى إمام أهل الدِّين والدنيا في سائر

---

(١) ينظر المنتظم ١٠/ ٢٤٨، ومعرفة القراء ٢/ ٥٤٢-٥٤٤، برقم(٤٨٩)، وغاية النهاية ١/ ٢٠٤، وطبقات المفسرين ، للداوودي ١/ ١٣٢، برقم (١٢٧) .

الأمصار، وقد بذل عمره في استنفاذ ما في المحابر فسخّر الله تعالى له – في نشر فضائله– أصحاب المعرفة والعلم والمنابر[1].

غ) مكانة أهل القرآن عند الملوك والأمراء والوزراء والدولة:

ومما سجّله التاريخ في صفحات الأمة المشرقة تمتع أهل القرآن بالمكانة العظيمة، والتكريم والاحتفاء والتقديم عند أمراء المسلمين وعامتهم؛ فكما سبقت الإشارة إلى الإشراقات النبوية في بيان فضل أهل القرآن ومكانتهم عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ؛ تشرق في هذه السطور أنوار آثارهم عند عامة المسلمين، بل وتظهر جليّة في معاملة الملوك والأمراء لهم .

وإنّ مما يُسجّل في صفحة هذه المعاملات أنّها جاءت محررة بأحرف من نور تعرِّف الأمم والشعوب كيف كان سلوك عامة أبناء الأمة المسلمة مع أهل القرآن، وتحرِّر حثّ رسول الإسلام الخاتِم ﷺ على إكرامهم، وتُظهر آثار آيات القرآن الكريم على المجتمعات، وكيف أصبح أثر القرآن جلياً على عموم أبناء الأمة المسلمة الخاتمة؛ بما انتهجوه من سلوك تجاه أهل القرآن، وبما بسطوه بين أيديهم من التبجيل والتوقير، والحرص على حفظ مكانتهم، والاعتراف بحقوقهم، والعرفان بعظيم قدرهم، وسمو مكانتهم، وتقديم الأدب في حضرتهم، وأنَّ ذلك كلّه من القربات عند الله تعالى؛ ومن الوقائع العظيمة،

(١) ينظر معرفة القراء ٢/ ٥٤٢، برقم (٤٨٩). وقد جاء في المنتظم ١٠/ ٩٣، برقم (١٢٣) عن الإمام محمد بن عبد الباقي البغدادي (ت ٥٣٥هـ)، يرحمه الله تعالى ، أنّه قال: « مَنْ خدم المحابر خدمته المنابر » .

والآثار السلوكية الكريمة ما جاء في سيرة إمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) يرحمه الله، وهو يحدِّث عن نفسه فيقول: وجّه إليَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ) يرحمه الله، يسألني أن أُحدّثه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ العلم يُؤتى ولا يأتي ؛ فصار الرشيد إلى منزل الإمام مالك، وبينما هو ينتظر علم مالك استند معه إلى الجدار، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين: إنّ من إجلال الله تعالى إجلال ذي الشيبة المسلم، فتحوّل الرشيد، وجلس بين يدي الإمام مالك ، وبذلك تظهر آثار القرآن الكريم في تهذيب الأرواح، وتزكية النفوس، والتواضع لأهل العلم؛ فالرشيد سيّد الدنيا في عصره يتواضع بين يدي عالم المدينة؛ ليحقق في رفع الذين أوتوا العلم درجات بما رفعهم الله تعالى به[1].

ولمّا التقاه بعد زمن قال له الرشيد: يا أبا عبد الله، تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم غيرك فلم ننتفع به[2] .

(١) ومن الكلمات المؤثّرة التي تمسّ واقع حياتنا اليوم ما نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية ٢/ ٥٢، فقال: « وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : لو أنّ أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله؛ لسادوا أهل زمانهم ، ولكنّهم وضعوه عند أهل الدنيا لينالوا من دنياهم ؛ فهانوا عليهم. رواه الخلال » .
وجاء عن الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) يرحمه الله ، كما في المجموع، للنووي ص ٣٥، أنه قال : « لا يطلبُ أحد هذا العلم بالمُلك وعزّة النّفس فيفلح، ولكن مَنْ طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح ».

(٢) ينظر الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي الهلال العسكري ١/ ٨٤ ، والآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي، ٢/ ٥٣، « فصل في طلب العلم وما يبدأ به ».

وفي هـذا المعنى قدّم الشاعر نصيحة فقال[1]:

قُـل للأميـر نصيحـة لا تـركنـن إلى فقـيـه
إنّ الفقـيـه إذا أتـى أبوابكـم لا خـير فيـه

ومـن الوقائع العظيمة التي تدلّ على عظيم أثر أهل القرآن في المجتمعات وأثـر القـرآن فيهـم؛ ما جاء في سـيرة أبي الحسـن الـدَّاراني إمام جامع دمشـق ومقرئـه (ت ٤٠٢ هـ) رحمة الله عليـه، إذ تنافـس عليه أهل دمشـق وداريا[2] لمـا لـه مـن فضـل علـم القـرآن وإقرائـه، فمـما يُذكـر في السِّـيَر أنّ القـاضي أبا محمد العلوي وجماعة من الشيوخ خرجوا إلى داريا لـمّا مات إمامهم؛ يطلبون الإمام الداراني وكان إماماً عظيم القدر؛ فلبس أهلُ داريا السـلاح، وقالوا : لا نمكنكم من أخذ إمامنا !، فقال أبو محمد ابن أبي نصر: يا أهل داريا ألا ترضون أن يُسمَع في البلاد أنّ أهل دمشق احتاجوا إليكم في إمام؟، فقالوا: قد رضينا، فقُدّمـتْ له بغلـة القاضي أبي محمد العلوي فأبى، وركـب حماره، فأخذوه ليؤم

(١) جـاء في قصـة هذيـن البيتـين: أن الأمـير عز الدين موسـك، بعـث إلى الإمـام المقرىء الزاهد العابد القاسـم بن فيرة الأندلسي الشـاطبي (ت ٥٩٠ هـ) رحمة الله عليه، يدعوه للحضور عنده، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتبها إلى الأمير . تنظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٧٣، برقم(٥٣١)، ونفح الطيب ١/ ٣٣٩، وشذرات الذهب ٤/ ٣٠١.

(٢) داريـا : قريـة كبـيرة مشـهورة مـن قرى دمشـق بالغوطة، والنسـبة إليهـا : داراني على غـير قياس، وقـد نزلها بعض الصحابة كبـلال مؤذن النبي ﷺ، سـكنها وتزوّج امرأة مـن أهلهـا، ونزلها العديد مـن التابعين وتابعيهم من الفقهـاء والعلماء. ينظر معجم البلـدان، لياقوت الحموي ٢/ ٤٣١، وتاريخ داريا ، لعبد الجبار الخولاني « ذِكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ».

بجامع دمشق، وكان أبيّاً لا يأخذ على الإمامة رزقاً، وانتهت إليه رئاسة قرآء الشاميين [1].

وبهذا - وغيره كثير في تاريخ أمتنا المشرق - يظهر سلوك الأمة في التعامل مع حملة الوحي، وحرص أبنائها على إكرامهم، وإظهار تمسّكهم بأئمتهم، وإن كلّفهم ذلك الكفاح ومواجهة المجتمعات والأمم من أجل المحافظة على وجودهم وعلومهم بين ظهرانيهم، فرحمة الله تعالى على السّابقين، وبعث هذه المعاني في نفوس اللاحقين، وجدد هذا السلوك تجاه الأئمة وأهل القرآن في الآخرين .

* ومن الأثر أيضاً: **حظوة أهل القرآن بفرصة شرف تصحيح مفاهيم الأمراء والملوك، واندفاع أصحاب السُّلْطة والحُكم إلى التزوّد بمعارفهم ،** ولاسيما بما أراده الله تعالى في كتابه، وأقرّه رسوله الخاتِم ﷺ في سنته ، وما يتعلّق بالمعاني والمفاهيم القرآنية والشرعية؛ فقد جاء في سيرة الإمام محمد الشَّنَبُوذي البغدادي (ت٣٨٨هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان مشهوراً نبيلاً عالماً بالقراءات والتفسير، يكثر من التجوّل في البلدان؛ وقد دخل على عَضُدِ الدولة زائراً ، فقال له - باعتبار شهرته وكونه من أعلم الناس بالتفسير -: يا أبا الفَرَج، إنّ الله تعالى يقول: ﴿ .. يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. ﴾[2]، ونرى العسل يأكله المحرور، فيتأذى به ، والله الصادق في

(١) ينظر تاريخ دمشق ٤١/ ٤٧١، معرفة القراء ١/ ٣٦٦، برقم(٢٩٥) ، وشذرات الذهب ٣/ ١٦٤ .

(٢) سورة النحل، من الآية ٦٩.

قوله؟ [1] قال: الشنبوذي البغدادي: أصلح الله الملك إنّ الله تعالى لم يقل: فيه الشفاء للناس، بالألف واللام اللذين يدخلان لاستيفاء الجنس، وإنما ذكره مُنَكَّراً، فمعناه: فيه شفاء لبعض الناس دون بعض [2].

---

(١) ومن السُّنّة ما أخرجه الإمام البخاري يرحمه الله في صحيحه ٥/ ٢١٥٢، برقم (٥٣٦٠) عن أبي المتوكل عن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال ﷺ: « **اسقه عسلاً** »، ثم أتاه الثانية، فقال: « **اسقه عسلاً** »، ثم أتاه الثالثة، فقال: « **اسقه عسلاً** »، ثم أتاه فقال قد فعلت ؟!، فقال ﷺ: « **صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً** »، فسقاه فبرأ. وفي رواية أخرى ٥/ ٢١٦١، برقم(٥٣٨٦)، (باب دواء المبطون) عن أبي المتوكل عن أبي سعيد قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه ؟ فقال: « **اسقه عسلاً** »، فسقاه، فقال: إني سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً ؟، فقال ﷺ: « **صدق الله وكذب بطن أخيك** ».

وفي رواية الجامع لمعمر بن راشد الأزدي ١١/ ١٥٣، برقم(٢٠١٧٣) عن قتادة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قد كان أخوه اشتكى بطنه فقال له رسول الله ﷺ: « **اسق أخاك عسلاً** »، فرجع إليه فقال: ما زاد إلا شدة ؟!، فقال له النبي ﷺ: « **اسق أخاك عسلاً** »، فقال مثل مقالته الأولى حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال النبي ﷺ: « **صدق القرآن، وكذب بطن أخيك** »، قال فسقاه عسلاً فكأنما نشط من عقال ».

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه٥/ ٦٠، برقم (٢٣٦٨٩) عن الأسود قال: قال عبد الله: « **عليكم بالشفاءين القرآن والعسل** ». وبرقم(٢٣٦٩٠) عن ابن جريج قال: أتى رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه بطن أخيه، فقال: « **عليك بالعسل** »، ثم عاد إليه فقال: كأنه.. ، فقال: « **كذب بطن أخيك وصدق القرآن، عليك بالعسل** ». قال صاحب لسان العرب ١/ ٧٠٩، في قوله: « **كذب بطن أخيك** » استعمل الكذب ههنا مجازاً، حيث هو ضد الصدق، والكذب يختص بالأقوال، فجعل بطن أخيه حيث لم ينجع فيه العسل كذباً لأن الله تعالى قال: « **فيه شفاء للناس** ».

(٢) ونقل الذهبي في معرفة القراء الكبار (١/ ٣٣٤) عن الداني قوله: الصواب أنّ الألف واللام في قوله: (للناس) لا يستغرقان الجنس كلّه كما لا يستغرقانه =

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة الإمام محمد بن علي، أبي عبد الله الخبازي (ت٤٤٩ هـ)يرحمه الله، كان مقرئ نيسابور ومسندها، إماماً كبير القدر، بارعاً في تحقيق العلوم، واستحضارها، صنّف التصانيف وتصدَّر للإقراء، وذاع صيته في الآفاق، وتخرج على يده ألوف بنيسابور وغزنة ؛ دخل غزنة أيام السلطان محمود بن سبكتكين فكان يكرمه غاية الإكرام . وكان يحدّث عن نفسه فيقول: أول ما قدمت على السلطان سألني : عن آية أوّلها غين ؟ فقلت: غافر الذنب، وثنتان اختُلف فيهما ، عدَّهما الكوفي ولم يعدّهما البصري (غلبت الروم..) و(غير المغضوب..) [1].

فانظر يا رعاك الله إلى الثقة بين السائل والمجيب، وكيف أن الإنسان – ولاسيما المسلم – وإن ارتفعت رتبته الدنيوية لا يأبه أن يتعلّم العلم، أو أن يزداد منه، أو يسأل عما يُشكل عليه، ويحرص على حفظ منازل الناس، ولاسيما أهل القرآن ؛إذ هم الذين يستحقون مثل هذه الرعاية والعناية والمداراة والتمكين، فهم أهل الله النّاطقين بقوله، والعالمين بفحوى خطابه، وأنّ أهل الحُكم والرئاسة

= في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ..﴾ سورة آل عمران، من الآية (١٧٣) ، وقوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ..﴾ سورة آل عمران ، الآية (٣٩) ، وفي : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ سورة التوبة، الآية (٣٠)، وشبهه.

(١) ينظر غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٠٧. وقد علّق ابن الجزري رحمه الله بعد نقله لقول الخبازي هذا ، بقوله: قلت: أما قوله :(غير المغضوب ..) أن الكوفي عدّها ، فليس كذلك، وإنما عدّها غير الكوفي والمكي فأعلم.

هـم أولى النـاس بهـذا الواجـب تجاههـم، وأحرصهم عـلى نيل هـذا الفضل والتقرب لله تعالى بإكرامهم .

*** ومن أثر القرآن في سـلوك الأُمراء والوزراء حضورهم مجالس العلماء، وأهل القرآن، والإعجاب بهم** ؛ فقد جاء في سيرة الإمام أبي الطيّب ابن غَلْبُون عبـد المنعـم بن عبيد الله بن المبـارك المقرئ (ت٣٨٩هـ) رحمـة الله عليه، وكان مشـهوراً بحفظه وضبطه لقراءة القرآن الكريم، وكثرة تلامذته وشـهرتهم، مع ظهـور صلاحـه، والإجماع على عفافه ونسـكه وفضله؛ أنّـه لمـا له من مكانة في أداء القرآن وتعليمه وعلمه ومعانيه وإعرابه وتفننه في سائر علوم الأدب، كان الوزير جعفر بن الفضل معجباً به، وكان يحضُرُ عنده المجلس مع العلماء [1].

*** ومن ذلك أيضاً : حفظ حرمتهم عند الدولة ووفرتها** ؛ إذ جاء في سـيرة إمـام دار الهجـرة مالـك بن أنس رحمـة الله عليـه ، أنّه لا يُحدِّث أحـداً بحديث رسـول الله ﷺ إلا بعـد أن يتطهّر ويتطيّـب ويجلس لذلك، وأنـه كان صاحب حرمـة مرعيّة ، ومكانة عليّة ، يُسـمع ويُطاع، وحدّث ابـن مهدي أنّه مشي مع مالك يوماً إلى العقيق من المسجد، فسأله ابن مهدي عن حديث فانتهره الإمام مالك، وفي رواية فالتفت إليه وقال : كنتَ في عيني أجلّ من هذا، أتسألني عن حديث رسـول الله ﷺ ونحن نمشي!؟!. فقال ابـن مهدي: إنا لله، ما أراني إلا وقد سـقطتُ من عينه، فلما قعد مالك في مجلسـه بعدت منه، فقال: ادن ها هنا،

---

(١) ينظـر وفيات الأعيـان ٥/ ٢٧٧، ومعرفة القـراء الكبار ١/ ٣٥٦، برقـم (٢٨٢)، وغاية النهاية ١/ ٤٧٠ . وقد سبقت الإشارة في الصفحات السّابقة إلى إجلال وتكريم الكبراء لأهل العلم والقرآن .

فدنـوتُ، فقـال : قد ظننتُ أنّا أدبناك تسـألني عن حديث رسـول الله ﷺ وأنا أمشي، سـل عما تريد هاهنا. قال ابن مهدي: وسـألوا مالكاً بموسم الحج وهو قائم فلم يحدِّثهم .

قال أبو مصعب: وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائـم فأمر بحبسـه . فقيـل له: إنّه قـاض!!، فقال: القاضي أحـق أن يؤدّب، احبسوه فحُبس إلى الغد)[1].

ولا شـك أن اجتهاد الإمام مالك يرحمه الله في ذلك ، وصلاحيته في أن يحبـس ويطلق بناءً على متطلبات المصلحة العامة وأولها المحافظة على أصول الدين ؛ ليُعلّم الأُمّة ضرورة حفظ الأدب مع رسـول الله ﷺ وما صدر عنه، بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى كما كان يُحفظ معه في حياته ﷺ ، وأنّ التزام الأدب حالة لا تتجزأ ولا يمكن لها أن تتغير، وإن تغير وجه الزمان ، وثقافة الأجيال المتعاقبة عليه ، أو بَعُد عهدها عن عهده ﷺ ؛ وهذا الحفظ منبعه قرآنـي وآثـاره من آثار التعليم الإلهي لآلية السـلوك معـه ﷺ ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[2].

ومـن حفـظ مكانة أهل العلم والقرآن عند الدولة؛ ما جاء في سـيرة قارئ أهـل البـصرة في عـصره الإمـام أبي محمـد يعقوب بـن إسـحاق (ت٢٠٥هـ)

(١) ينظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١/ ٤٨ .

(٢) سورة الحجرات، الآية ٢.

رحمة الله عليه، أنّه بلغ بعلمه في العربية ووجوهها، والقرآن وإقرائه، والزهد في الدنيا أنّه لم يُر في زمانه مثله ، وبلغ من جاهه ووفرة حرمته بالبصرة أنّه كان يَحْبِس ويُطلق [1].

وكذلك ما جاء في سيرة مقرئ نيسابور ومسندها أبي عبد الله محمد ابن علي الخبازي (ت٤٤٩هـ) رحمة الله عليه، أنّه قد ذاع في الآفاق زهده وعبادته، وتهجّده، وإجابة دعوته، مع براعته في علم قراءة القرآن وفهمه، ولما تقدّم من شمائله ومحاسن فضائله، وحضور وجاهته؛ كان ذا حُرمة وافرة عند الدولة، لكثرة ما يحيي من الليل بالقراءة والدعاء والبكاء حتى قيل إنه لم ير بعده مثله [2].

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة شيخ الإسلام عبد الرحمن بن أحمد الرازي ، أبي الفضل العجلي الزاهد(ت٤٥٤هـ) رحمة الله عليه، كان فاضلاً كثير التصنيف، عارفاً بالقراءات والأدب والنحو ، ولكثرة اشتغاله بالقرآن وأُنْسه بالله تعالى من خلال آياته، وصدق مناجاته له؛ ذاع ذِكْرُه على الملأ، وعُرف بسمته ونوره، وأنّه مما أفاض الله تعالى به على أوليائه، وبكثرة تجواله في البلاد مفيداً ومستفيداً، وحصل له أنّه دخل كرمان في هيئة رثّة، فحمله بعضهم إلى الملك، وقالوا: هو جاسوس!!، فسأله الملك: ما الخبر ؟ فقال: إن كُنْتَ تسألني

---

(١) ينظر الطبقات الكبرى، لابن سعد ٧/ ٣٠٤، ووفيات الأعيان ٦/ ٣٩٠، ومعرفة القراء الكبار ١/ ٣٥٦، برقم (٢٨٢)، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٦ .

(٢) ينظر تبيين كذب المفتري٢/ ٢٦٤، ومعرفة القراء الكبار١/ ٤١٣، برقم (٣٥١)، وغاية النهاية ٢/ ٢٠٧ ، وشذرات الذهب ٣/ ٢٨٣ .

عن خبر الأرض، فكل مَنْ عليها فان، وإن كنت تسألني عن خبر السماء، فكلَّ يوم هو في شأن [1] - وفي ذلك إشارة إلى كونه رحمه الله يتعامل بالقرآن ويعيش في ظلاله - فتعجّب الملك من كلامه، وهابه، ولمّا علم مكانته أكرمه، وبسط له في الإجلال والتقدير، وعرض عليه المال الكثير، فلم يقبله رحمة الله عليه. وله أشعارمليئة بالفوائد والدلائل، منها(من السريع):

يا موت ما أجفاك من زائر تنزل بالمرء على رغمه
وتأخذ العذراء من خدرها وتسلب الواحد من أمه [2]

*** ومن الأثر أيضاً: منح أهل القرآن استحقاقهم في المجتمع من حيث الإمامة والإدارة ؛** فقد جاء في سيرة أبي القاسم الهذلي المغربي الرَّحال (ت٤٦٥هـ)، رحمة الله عليه، أنّه لـمّا فتح الله تعالى عليه بالعلوم والمعارف وكثرة الأساتذة والرحلة إليهم، وبلغ رتبة الأكابر في المعارف ؛ أرسله نظام الملك الوزير ليجلس في مدرسته النظامية بمدينة نيسابور سنة (٤٥٨هـ)، وليظهر فضله في الناس، وتتبيّن رتبته عند العلماء، فقعد سنين أفاد منه العلماء وطلاب العلم، رغم ما قيل من ابتلائه بفقد البصر في أواخر عمره[3].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ في سورة الرحمن، الآية ٢٦، وقوله: ﴿ يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ في سورة الرحمن أيضاً، الآية (٢٩) .

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٤١٧-٤١٩، برقم (٣٥٦)، بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، للسيوطي ٢/ ٧٥، برقم (١٤٧٦) .

(٣) ينظر الإكمال، لابن ماكولا ١/ ٤٥٨، و معرفة القراء الكبار ١/ ٤٢٩-٤٣٣، برقم (٣٦٧)، وتوضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة، للقيسي ٩/ ١٣١، وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي ١٠/ ١٨٢، والأعلام ، للزركلي ٨/ ٢٤٢ .

*** ومن أثر القرآن في سلوك الملوك والأمراء إكرامهم لأهل القرآن، وإعلاء رتبتهم، وتقديمهم للإمامة عليهم في الصلاة ؛** فقد جاء في سيرة أبي الخطاب علي بن عبد الرحمن بن الجرّاح البغدادي (ت٤٩٧هـ) رحمة الله عليه، أنّه كان من أئمة اللغة، ورأساً في قراءة القرآن الكريم، ومصنِّفاً، بارعاً في النظم، وإنّ فضائله كثيرة وفيرة، ولذلك ولغيره كان أمير المؤمنين المستظهر بالله تعالى يقدّمه فيصلي به إماماً في صلاة التراويح، وأمّ من بعده بولده الخليفة المقتدي، وتلا عليه القرآن والعلم أمم كثيرة [١].

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة الإمام أبي الحسن علي بن عساكر البَطَائحي (ت٥٧٢هـ) رحمة الله عليه ؛ إذ حفلت صحف التاريخ المشرقة بسيرته، وأنه أحد أئمة العراق بقراءة القرآن الكريم والعربية، وبما له رحمه الله من معرفة عظيمة في الإقراء، ورصد لأخطاء القراء، وقوّة بيان وتمحيص لادعاءاتهم، ولاسيما في الأسانيد رغم كونه ضريراً ؛ إذ وفّقه الله تعالى أن يُظهر خطأً، وتدليساً كاد يُمرر على الوزير عون الدين ابن هُبيرة في مجلسه، وأوقف منح الوزير سنداً مكذوباً في القراءة؛ إذ اعترض البطائحي بجرأة العالم المتقن، وكشف الخطأ الواقع، ولمّا تبيّن للوزير صدق اعتراض البطائحي بالدليل جعله مقصداً لقراءة القرآن وإقرائه، وقرأ الوزير عليه، وأسند عنه القراءات، وعلا قدره، وحظي رحمه الله بالإكرام العريض، وتهنئة الناس، ووقف كتبه بمسجد ابن جرارة ببغداد، وتوفي يرحمه الله وقد نيف على الثمانين [٢].

---

(١) ينظر المنتظم ٩/ ١٤٠، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ١٧٤، برقم (٩٥)، وغاية النهاية ١/ ٥٤٨، وشذرات الذهب ٣/ ٤٠٦ .

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٤١، برقم (٤٨٨)، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٩٦ ، وغاية النهاية ١/ ٥٥٦، وشذرات الذهب ٤/ ٢٤٢ .

*** ومـن الأثر أيضـاً : اتخاذ أهل العلم والقرآن مشـاورين ورفقاء لهم ؛** إذ جاء في سـيرة الإمام ابن حزم إليسـع بن عيسى الغافلي الأندلسي (ت٥٧٥هـ) رحمـة الله عليـه، أنّـه تعلّم قراءة القـرآن وفنونها عـلى أبيه، وكان أبـوه من جلّة المقرئـين، وأصبح الأندلـسي فقيهاً ومقرئـاً ومُحدّثاً وحافظاً نسّـابة، ومن أبدع النـاس خطّاً، ولـمّا رحل إلى مصر أقرأ بها القرآن والعلم؛ فاشـتمل عليه الملك صـلاح الديـن، وبات مشـاوراً له، ورتّب له دخـلاً وافراً، وأكرمه وشـفَّعه في مطالـب الناس، ونال حظوة القرب والإكرام من الملك مع ما امتاز به من علم ومكانـة عنـد الناس؛ وقـد كان رحمة الله عليه له السـبق والإقـدام في أداء أول خطبة على منابر العُبيدية عند نقل الدعوة العباسية حين تهيّب ذلك سواه[1] .

ومـن ذلك أيضاً : ما جاء في السّـير أنّ الملك المعظّم صاحب دمشـق كان ينزل إلى شيخ القراء والنحاة بدمشق العلامة تاج الدين زيد بن الحسن الكندي البغـدادي (ت٦١٣هـ) رحمة الله عليه، ويقرأ عليه العلوم:كـ(كتاب سـيبويه، وكتاب الحماسـة، وكتاب الإيضاح)، وغيرها الشيء الكثير، وكان يأتيه ماشياً إكراماً له من القلعة إلى درب العجم، والمجلد تحت إبطه[2].

وكان الكِنْـدي البغـدادي رحمـة الله عليه قد قرأ القـرآن بالروايات العشر وهـو ابن عشر سـنين، حتى قال الذهبي في حاله هـذا : « وما علمتُ هذا وقع لأحـد أصلاً ، وأعجب من ذلك أنّه عمّر الدَّهر الطويل، وانفرد في الدنيا بعلو

---

(١) ينظـر التكملة لكتاب الصلة ٤/ ٢٣٧، برقـم (٦٦٠)، ومعرفة القراء الكبار ٢/ ٥٤٤، برقم(٤٩٠)، وغاية النهاية ٢/ ٣٨٥، وشذرات الذهب ٤/ ٢٥٠ .

(٢) ينظر سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧ .

الإسناد وعاش بعدما قرأها بعدة كتب ثلاثاً وثمانين سنة، وهذا لا نظير له في الإسلام »[1] .

وجاء في سيرته يرحمه الله أنّه عانى في شبيبته التجارة والأسفار، وغادر بغداد وسكن حلب مدّة، وصحب بها الأمير حسن ابن الداية النوري واليها. ثم نزل دمشق، وصحب نائب دمشق الأمير عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين، واستوزره، واختص به هو وابنه الملك الأمجد صاحب بعلبك من بعده، وكان أوحد الدهر فريد العصر، وتردد إليه بدمشق الملك الأفضل علي، وأخوه المحسن ابنا صلاح الدين، وابن عمه الملك المعظّم عيسى بن العادل، ومنّ الله عليه بالتصدّر والجاه عند الملك صاحب دمشق، والدنيا العريضة، واتخاذ المماليك والدار الكبيرة، مع حظوة القرب وعلو المكانة عند السلطان ببركة الاشتغال بالقرآن، وكان بهيّاً وقوراً، أشبه بالوزراء من العلماء، توفي يرحمه الله وله ثلاث وتسعون سنة وشهران، وكان قد متعه الله تعالى بطول العمر ، وسلامة سمعه وبصره وقوّته، وعلو المنزلة عند الملوك والأمراء والفقهاء والأعيان وجلالة مَنْ كان يتردد إلى مجلسه ومنزله حيث كان[2] .

ومن ذلك أيضاً : ما جاء في سيرة الوزير الأعظم في عهد الخلافة العثمانية مصطفى باشا الكوبريلي، حيث فاضت أخبار إكرامه العلماء، ومنهم الإمام

---

(١) ينظر معرفة القرآء الكبار ٢/ ٥٨٧.

(٢) ينظر الذيل على الروضتين ، لأبي شامة المقدسي ٩٥-٩٩، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٤٠، برقم (٢٤٩)، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٥-٤١، برقم (٢٨) ، وغاية النهاية ١/ ٢٩٧.

زيـن الدين بن محمـد البصروي الشـافعي الدمشـقي(المتوفى بعـد ١١٠٢هـ) رحمة الله عليه، وكان الإمام زين الدين قد نزل في دار الخلافة قسطنطينية، وكان المترجم بها، وتولى المدرسـة الصلاحية وإفتاء الشافعية بالقدس، ثم صار إماماً بدار الخلافة من الروم لدى الوزير المذكور؛ فصحبه معه في سفره وقتاله، وشهد معه فتح بلغراد سنة ١١٠٢هـ، وتوفي رحمه الله في المحرّم في منزلة يعزونه رابع مرحلـة عن بلغراد راجعاً إلى إسـلامبول لأنه كان مع الوزير الأعظم مصطفى باشا الكوبريلي في السّفر وحضرفتح نيش، ودفن في المنزلة المذكورة وبنى عليه قبراً من الأحجار على قارعة الطريق الآخذ إلى بلغراد[1].

*** ومن أثر القرآن في سـلوك الملوك والأمراء أيضاً: بسـط رعايتهم لأهل القرآن، وإن كان سرّاً**؛ إذ جاء في سـيرة محمـد بن النّضر المعروف بابن الأخرم النَّيْسَابوري (المتوفى بعد سنة ٣٤٠هـ) رحمه الله، أنّه قرأ على الأخفش، فقال فيه الشـنبوذي: قرأت عليه فما رأيت شـيخاً أحسن معرفة منه بالقرآن، ولا أحفظ لـه منـه، وكان مع ذلك يحفظ تفسـيراً كثـيراً، ومعاني، وقـال لي: إنّ الأخفش الدمشقي لقّنه القرآن.

وجاء في سيرته أيضاً: أنّ أباه النّضر بن مرّ بن الحُرّ الرِّبعي كان وسيط خير في إكرام الأخفش عند السلطان، ولاسيما في تخليص رزقه لكلّ سنة؛ إكراماً له عـلى تعليم ولده والناس القرآن والعربيـة، وحفظاً لمكانته بين العلماء والناس، وحجباً له عن سؤال الناس ما في أيديهم.

---

(١) ينظـر سـلك الـدرر في أعيـان القرن الثاني عـشر، للمـرادي، (حرف الـزاي المعجمة)، ص: ٢٥٣.

ولِـما بذلـه الوالد من وسـاطة الإكـرام لأسـاتذة ولده لدى السـلطان ؛ أكـرم الله تعـالى الولد -ابـن الأخـرم- بعلوم القـرآن وبركته، وأطـال عمره، وارتحـل النـاس إليه، ولمّا حضرته الوفـاة صلى الناس عليه بعـد الظهر، في يوم صائـف، وشـهدوا صعود الغمامة عـلى جنازته من المصـلى إلى أن دفن في قبره؛ فكانت شِبْه الآية له يرحمه الله وإيانا [1].

ومن ذلك أيضاً : ما ظهر في سلوك الوزير ابن المسلمة يرحمه الله تجاه أهل القـرآن الكريم، وإطعامه لهـم، وحرصه على إكرامهم ومعلمـي الناس الخير، وإنفاقه في السرِّ عليهم؛ إذ جاء في سيرة الحسن بن الفضل المؤدّب (ت٤٥١هـ) رحمـة الله عليـه، أنّه تحوّل علمـه ومعرفته بالقرآن وقراءاته لـه إلى واقع عريض من الزهد، والفهم لمرحلة الدنيا، فدفعه ذلك إلى الإقـلال منها، وبلغ به الحال إلى الاكتفاء بالمنبوذ من الطعام، وإخفاء ذلك عن الناس، والإيواء إلى المسجد؛ فاتفـق أن ابن العـلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقـد نزل إلى دجلة وأخذ من أوراق الخس ما يرمي به أصحابه، وجعل الحسـن يأكله فشـق ذلك عليه، فأخـبر الوزيـر، فقال له: أرسـل إليه شـيئاً ، فقال ابن العلاف: مـا يقبله، فقال الوزيـر: نتحيّل لذلـك، وأمر غلاماً لـه أن يعمل لذلك المسـجد مفتاحاً آخر، وقـال : احمل إليه كلّ يوم رغيفاً ودجاجة، وقطعة حلاوة، فكان الحسـن يجيء فيفتح، فيجد ذلك فيعجب ، ويقول: لعل هذا من الجنّة، وكتم أمره، فأخصب

(١) ينظر معرفة القراء الكبار ٢/ ٢٩٠-٢٩٢، برقم(٢٠٦)، وغاية النهاية ٢/ ٢٧٠، وطبقات المفسريـن، للسـيوطي ٤٠، وطبقـات المفسريـن، للـداوودي ٢/ ٢٦٤، برقـم(٥٩١)، وشذرات الذهب ٢/ ٢٦١.

جسمه وسمن، فقال له ابن العلاف: ما لَكَ قد سمنت؟! فتمثّل المؤدّب بقول الشاعر:

مَـنْ أطلعوهُ عـلى سرٍّ فباحَ بهِ لَمْ يأمَنُوهُ على الأسرارِ ما عَاشا

ولم يصرّح له بشيء، فما زال به ابن العلاف حتى أخبره الشـيخ بالكرامة، فقـال له ابـن العلاف: ينبغي أن تدعـو للوزير ابن المسـلمة، ففهم ابن الفضل القضيّة، وأن هذا الطعام والإكرام كان من الوزير؛ وانكسر قلبه، ولم يدم عليه شروق شمس الدنيا بعدها طويلاً رحمه الله[1].

ومما يُلحظ من هذه القصة أن الوزير رحمه الله أراد إدامة الصلة والرعاية لابـن الفضل، دون الاكتراث بمعرفته، أو طلب شـكره، بـل دبّر ذلك ليكون سِرَّاً، فهو أنسـب لحال الشـيخ ومكانته، رحمهما الله، وأن المبادرة بإفشاء الأمر، ومصارحة ابن الفضل بسبب النّعمة والصِّلات كانت من اجتهاد ابن العلاف وهو اجتهاد له آثاره السلبية التي نزلت بابن الفضل، كما أن إخبار الوزير بحال الشيخ كان من اجتهاد ابن العلاف أيضاً، وهذا من الاجتهاد الذي تحمد عقباه، والله أعلم.

وهـذا الأمر والحـال متكرر وقوعه لأهل العلم في أزمنة كثيرة؛ فلاشـك أن عـلى بطانـة الملوك والأمـراء والـوزراء ومستشـاريهم مسـؤولية عظيمة في تذكيرهـم بواقـع احتياجـات النـاس والعلماء، ولاسـيما أهل القـرآن وحفظة

(١) ينظـر تاريـخ بغـداد ٧/ ٤٠٢، برقـم (٣٩٤٦)، والمنتظـم ٨/ ٢١٣، ومعرفـة القـراء الكبار ١/ ٤١٢، برقم (٣٤٩)، وغاية النهاية ١/ ٢٢٧.

الوحـي والشريعـة، وإعلامهـم بما تعانيـه هذه الثلـة المؤمنة في سـائر أحوالها، ومـا يُعـد مـن متطلبات ديمومـة عطائهم؛ فـإنّ القيام بذلك كلّـه مما يدخل في المسؤولية الشرعية التي يترتب عليها حفظ الدين، وإقامة الشريعة بين الناس. وهنا يصدق قول الشاعر:

إذا نـسي الأمـير قضـاء حـقٍّ فـإنَّ الذنـب فيـه للوزيـر
لأنّ عـلى الوزيـر إذا تـولى أمـور النّـاس تذكـير الأمـير

وعـلى ولاة الأمر أن يتفقّدوا النـاس، وينظروا في إعانتهم على أمور الدنيا ومعاشـها، وأن يبسـطوا إلى العلماء يد الرعاية، وينفحوهـم بوافر العناية، ولا يحوجوهم إلى الخلق، أو يجعلوهم عالة على غيرهم؛ فهم أهل الله وخاصته.

شَـكَر الله تعالى الوزير ابن الـمَسْـلمة على سـعيه وبذله ورعايته، وسـائر مَـنْ كان على هذه السـمة، ممن سـبقه أو لحق بركبه؛ ولاسـيما مَـنْ تحمّلوا أمانة قيـادة الأمة، وملكوا حق التصرّف في أموالهـا العامّة أو الخاصّة في المجتمعات الـمُسْلمة، وأثاب الله تعالى ابن الفضل على صبره، وحُسن ظنّه بربه عزّ وجلّ، وسـائر مَـنْ صان نفسـه عن سـؤال الناس، وسـار عـلى هذا المنهـج في حياته، ورَحِـم الله تعالى ابن العـلاف على تذكيره الأئمة بعلماء الأُمّـة، وغفر له وأثابه على نواياه، وأثاب أصحاب المبادرات في سائر العصور الذين دأبوا على تذَكير الأمـة وأعيانهـا ورُعاتهـا بواجـب الـشرع والوقت تجـاه أهل الله ودعـاة الحق والفضيلة في الإنسانية، أو أعانتهم على حفظ مكانتهم في حياتهم وبعد مماتهم.

ف) تجدد الأمل بهذه الأُمَّـة وأجيالها ومقدّراتها :

بعـد رصدنا لكثـير من الصفحـات المشرقة في سـلوك أبنـاء المجتمعات المسـلمة، وحرصنـا عـلى إظهارشُـععها لتمثّـل بمجموعهـا وموضوعاتهـا ومضامينهـا الأثـر الحقيقـي للقـرآن الكريـم في سـلوك المجتمـع المسـلم مـن حيـث العموم؛ لابـد أن نُذكّر ببقـاء هـذا النور في الأمّـة وأجيالها ومجتمعاتها، وأنّ ذلـك كلّـه إنّما يتأتـى ببـركة تمسّـكها بالعـروة الوثقى - القـرآن الكريم، ومقـدار هـذا التمسّـك وقوّتـه، قـال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1]؛ ولا غـرو فـإن الأمل متجـدد في أبنـاء وأحفاد أجيـال هذه الأمة، ولاسـيما في مواصلـة المسـيرة في ضـوء المنهـج النبـوي، والتفاعل مـع القـرآن الكريم كما أراد الله تعـالى، وتحكيمـه في حياتهم، وسـائر شـؤونهم، وأن تظهر عليهم بركة أثره، واسـتدامة تعهّده لتحقيـق الهدى، والاعتصام به مـن الضلال والردى ؛ إذ جـاء في الأثـر عن ابـن عبـاس رضي الله عنهما قال: خطب رسـول الله ﷺ في حجـة الـوداع فقـال: « **يا أيهـا الناس: إني قـد تركت فيكم مـا إن اعتصمتم بـه فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسـنتي** »[2]، و كذلك فـإنّ على أبناء هذه الأمة أن يعملـوا عـلى إفـادة الأرواح والأبدان من نـوره المبين، ويحوّلـوا تعاليمه إلى

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ، ٢/ ٨٩٠ ، برقم (١٢١٨).

سلوك واتباع، وفي ذلك روي عن الإمام الجدّ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه ، مرفوعاً أنّه قال: « عليكم بكتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومَنْ اتبع الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه، مَنْ قال به صدق، ومَنْ حكم به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم »[1].

ولا شك أنّ العلم والعمل والتفاعل بينهما في إطار منظومة الفهم الصحيح والتطبيق السليم لتعاليم كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ، والتسليم لما جاء فيهما؛ كلّه مما يرشد إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وفي الوقت نفسه يُعد نتاجاً لمخزون اليقين بعظمة الله تعالى، وسعة قدرته في القلوب والأرواح، وعلى قدر هذه الثقة المتجددة بإمداده تعالى لهذه الأمة، وحسن الظن به سبحانه تظهر النتائج المرجوّة في الحاضر والمستقبل، كما ظهرت في العديد من صفحات تاريخ الأُمة وسير رجالها السّابقين يرحمهم الله؛ وكما قال الشيخ أحمد بن

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ٧٠٣ رقم (٧٠٤)، قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده ضعيف جداً من أجل الحارث . رواه الدارمي في سننه٢/ ٥٢٦، برقم(٣٣٣١) ، ورواه الترمذي في سننه برقم(٢٩٠٨)، وقال : هذا حديث في إسناده مجهول وفيه الحارث ثم قال: ليس لهذا الحديث إسناد صحيح ، ولكن معناه صحيح .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره ١/ ٢١ : « وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وقد وَهِم بعضهم في رفعه إلى النبي ﷺ، وهو كلام حسن صحيح ..».

عبد الحليم(ت٧٢٨هـ) يرحمه الله: « وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم - أي السّلف الصالح - اعتصامهم بالكتاب والسنّة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يُقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا بذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البيّنات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم »(١).

ولا شَكّ أيضاً أنّ الله عزّ وجلّ هو المتكرّم والمتفضّل على الأُمة الخاتمة بعصمتها من الخزي، وبما أفاضه جلّ جلاله عليها من المِنَح، على تنوّع ظروفها وامتداد أزمنتها، واتساع أمصارها، واختلاف أزَمَاتِها ؛ وقد جاء في الأثر عن الرَّسول الخاتِم سيّدنا محمد بن عبد الله ﷺ ، وهو يبعث الأمل في الأُمّة ببقائها في سمو وعزّ، وأنّها عزيزة بالله تعالى، وبطاعته، وطاعة رسوله ﷺ ، وأنّ نسبتها إليه ﷺ من أهم هذه الامتيازات عند الله تعالى، أنه ﷺ قال: « .. **ولن يخزي الله أُمّة أنا أوّلها** .. »(٢).

وكذلك فإن من الأمل بهذه الأمة، وأجيالها ومقدّراتها ؛ ما جاء في الصحيح من تصريح رسول الله ﷺ وأمله في أجيال أمّته المتعاقبة، إذ حدّث عروة أن عائشة رضي الله عنها، حدثته: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: « **لقد لقيتُ من قومك ما**

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٨ .

(٢) قال فيه ابن حجر العسقلاني في الفتح ٧/ ٦، برقم (٣٤٥٠): وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير أحد التابعين بإسناد حسن ؛ وساق الحديث.

لقيت!، وكان أشدّ ما لقيت منهم، يوم العقبة ؛ إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني ؛ فنظرت فإذا فيها جبريل ؛ فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم؛ فناداني مَلَكُ الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي الجبلين المحيطين بمكّة - ؟ ، فقال النبي ﷺ: « **بل أرجو أن يُخرج اللهُ من أصلابهم مَنْ يعبدُ الله وحده لا يشرك به شيئاً** »[1].

ولاشك أنّه ﷺ كان يعيش على أمل الهداية لمجموع هذه الأمة، وسائر مَن انتسب إليها من السابقين واللاحقين، وأنّ أمله هذا قد تحقق، بمَنْ حمل هذه الرسالة منذ عصره إلى يومنا هذا ؛ بل وإلى قيام الساعة، وأنّ دعاة الأمة ومفكريها، وحملة الفضيلة وحماتها فيها على أمله ﷺ في أن يهيئ الله تعالى أسباب الصَّلاح لسائر المجتمعات المسلمة، وأن يمكّن الله تعالى لظهور جيل صالح في الأمّة منهجه القرآن والسُّنّة؛ لا يحيد عنهما بشيء من المناهج الغريبة عن مجتمعاتنا المسلمة.

فالأمل متجدد بهذه الأُمة، ولاسيما بعد توكّلها على الله تعالى، وسعيها الحثيث لتحقيق مراده، وحُسن تدبيرها لأمورها؛ واستمرارها في حمل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١١٨٠ ، برقم (٣٠٥٩) . والإمام مسلم في الصحيح ٣/ ١٤٢٠ ، برقم (١٧٩٥) .

رايـة التوحيـد والإصـلاح وبثّهما بـين الأمم، والتضحيـة من أجلهـما، وإثراء مخزونهـا بحُسـن الظـنّ بـالله تعـالى، واليقين بصـدق وعـده، وحُسـن الاتباع لرسـوله ﷺ ومحبّتـه، والعيش في ظـلال مناهج الصّالحين من السّـابقين الذين صدقـوا الله في أحوالهـم وأقوالهـم وأفعالهم ما عاهـدوه عليه، وقرنـوا الآمال بالأعـمال، والأقـوال بالأفعـال والأخـلاق، وحُسْـن الظـنّ بحسـن التدبير، والإقـدام والمبـاشرة بالتخطيط المسـبق وإيثـار الآخرة؛ فصـحّ عملهم بصحّة رجائهم، وشـهدت لهم الأمة بحسـن الخواتيم، لسـلامة سـلوكهم، ووضوح منهجهم، وظهور أثرهم بمن حولهم.

ثم إنّ الأخذ بسائر الأسباب المثمِرة، والوقوف على أهبة الاستعداد لإنجاز واجـب الوقت، وفهـم ضرورة المرحلـة، وذبّ العادات السـيئة والرواسـب النفسـية عـن الأسر والمجتمعـات المسـلمة، وانتشـار السـلوكيات المنضبطة، وتشـجيعها، وبعث الأجيال على التخلّق بها، والتحلي ببهائها ؛ كل ذلك مما له الأثر في النهوض الشـامل بالأُمّـة، وعلى سـائر مستويات أبنائها، ودرجاتهم ؛ بل سيظهر أثر توجيه القرآن ومنهجه في السمو بسلوك الأمّة على جميع أفرادها ومؤسسـاتها ومناحـي الحياة فيها، وسـيجنّبها الوقوع في الآمـال الفارغة التي تقود إلى التمني على الله تعالى دون عمل، وسيبعثها على الإقدام لتحقيق طاعته جلّ وعزّ والسعي في سبيل رضوانـه .

ولهـذا ولغيره فـإنّ الأمل بأجيـال الأمة القائمـة واللاحقـة القادمة يبقى مـا بقي الليل والنهار، لاسـيما وهي تشـهد نهضة شـاملة، وإقبالاً عـلى الثقافة بمناهـج القـرآن، وتـزوداً من معارفه، وسـعياً حثيثاً من مؤسسـاتها في سـبيل

إصلاح المنظومة الاجتماعية والحياتية لأفرادها والقائمين على ثغورها؛ وتحقيق الانسجام في إيمانها وسلوكها العقلي والعملي مع مراد الله تعالى لها، وسيكون المجتمع المسلم قرآني المنهج، نبوي السّلوك، وهو سبحانه ولي التوفيق لذلك، والفعال لما يريد.

ومما يُلحظ في التاريخ أن هناك العديد من المآثر التي تبعث الأمّة على التجدد، وتحرّض أجيالها على الإقدام من أجل إصلاح آثار تراكمات الاختلاط بالمجتمعات الأخرى ورواسبه، وتهذّب السلوكيات العامة والخاصة لأبنائها، ولاسيما التي لا تنسجم مع توجيهات ديننا الحنيف، وتوجهات مناهجه؛ وقد تأتى ذلك كلّه من خلال حثّ العلماء وحرصهم على إمداد الأجيال بما يحرر كيانهم من مخلّفات الإخفاق في المسيرة العامة للأمة، ثم بترك الازدراء للذات والقدرات، وإعانتهم على التخلّص من الاستهانة بالمعطيات والمقدّرات التي أودعها الله تعالى في بنية هذه الأمة -حاملة رسالة الإسلام إلى الإنسانية كافّة-؛ إذ التجدد سمة من سمات هذه الأُمة ، بل ميزة خير فيها؛ وكم ترك الأوّل للآخر من طريقة استنباط، أو وسيلة تعليم، وكم نحا المتأخر سبيلاً أكثر شمولية من السّابق، في علاج القضايا الاجتماعية وغيرها؛ لما اجتمع للمتأخرين من ذخائر أعمال المتقدمين ونفائس تجاربهم، وما منَّ الله تعالى به عليهم من وسائل سبر وإحصاء واختصار للأعمال واستثمار للأعمار؛ فأعملوا عقولهم في الجمع بينها واستنباط الصالح منها لبقية الأمة وعموم الإنسانية ومجتمعاتها؛ بوسائل تنسجم مع معطيات العصر ومتطلّباته، وتحفظ للأوائل حقوقهم، وتستحضر أن المِنَح الإلهية ليست حكراً على عصر دون عصر، أو

على جيل دون جيل؛ إلا ما كان سمة اختصاصية كالتفضيل بالرتبة أو القرب والإنابة التي اختص الله تعالى بها مَنْ شاء من عباده، فقررها في القرآن أو صرّح بها رسول الله ﷺ من خلال سنته وهديه، فلا بد من المحافظة على استحقاق كل عصر وأهله، لا سيما ما امتازوا به من صبغة خدمة الإسلام، وأداء واجب الدعوة إلى الله، وحماية الأرواح والمقدسات، ونشر العلم والفضيلة، وفي هذه المعاني قال ابن مالك الأندلسي (ت٦٧٢هـ) رحمه الله تعالى في مقدّمة كتابه التسهيل: « .. وإذا كانت العلوم مِنَحَاً إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستَبْعد أن يُدَّخَر لبعض المتأخرين ما عَسُرَ على كثير من المتقدّمين .. »[1] .

ولاشك أنّ المؤمن الموصول القلب بالله تعالى، هو مَنْ يفهم عنه تعالى، ويتمسّك بتحقيق مراده جلّ وعزّ، وهو الذي يحفظ لكل ذي حق حقّه وهو في حالته الإيمانية هذه يبقى ندي الرُّوح، شاعراً بنفحاته تعالى، غير يائس من رَوْحه، ولو أحاط الكرب به أو اشتدّ به الضيق؛ بل ينعم هو وأُسرته وبيئته

---

(١) وقد جاء عن ابن عابدين (ت١٢٥٢هـ) رحمه الله تعالى في حاشيته ؛ إشارة توضيحية لتوظيف فهم هذه المِنَح العقلية والتنظيمية، وهو يقول: « .. وأنت ترى كتب المتأخرين تفوق كتب المتقدّمين في الضبط، والاختصار، وجزالة الألفاظ وجمع المسائل، لأن المتقدّمين كان مصرف أذهانهم إلى استنباط المسائل وتقويم الدلائل؛ فالعالِم المتأخر يصرف ذهنه إلى تنقيح ما قالوه، وتبيين ما أجملوه، وتقييد ما أطلقوه، وجمع ما فرّقوه، واختصار عباراتهم، وبيان ما استقرّ عليه الأمر من اختلافاتهم، ..فالفضل للأوائل كما قال الشاعر:

كالبَحْر يَسْقيهِ السّحابُ ومَا لَهُ فَضْلٌ عَلَيْهِ لأنّهُ مِنْ مَائِهِ

نعم فضل المتأخرين على أمثالنا من المتعلمين، رحم الله الجميع، وشكر سعيهم .. آمين » .

في راحة وأمل وتجدد، لما له من ذخيرة إمداد الله تعالى ونفحاته، مستمداً هذا الخير والفأل الحسن والأمل المتجدد من التوحيد الخالص لله سبحانه، والاستسلام التام له عزَّ وجلّ، والعزة بانتمائه إلى الإسلام الدِّين القيّم، والشعور بالعدالة، والعيش في ظلال حكم القرآن وأحكامه، وحُسن الاتباع لسيّدنا رسول الله ﷺ؛ فالمؤمن منعّم بما لا ينعم به أحد غيره، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

وقد قال النبي الخاتم ﷺ: « **عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّه خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن** » [2] .

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٩ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٢٩٥، برقم (٢٩٩٩)، وابن حبان في صحيحه ٧/ ١٥٥، برقم (٢٨٩٦)، واللفظ له .

خاتمـــة
ووصــيّة

خاتمة و وصيّة

الحمد لله على منّه وفيض كرمه، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله خير خلقه، أُنموذج الكمال في العبادة والصلاح والاستقامة، ونبراس الهداية والنور للناس كافة، وشمس إيمان الرأفة والرحمة بالمؤمنين، الهادي إلى صراط العزيز الحميد، وعلى آله وأصحابه ومَنْ اهتدى بقوله وفعله وحاله، واتبع منهجه، وتحلى بشمائله، وتزوّد بفضائله، وتأسى بسلوكه وأخلاقه إلى يوم الدين.

وبعـــــد:

فقد تَشَعْشَعَت صفحات الكتاب، وما فيه من إشراقات منيرة، وصفحات مضيئة، ولاسيما في بيان أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم، والتنبيه على ما كان عليه رجال الأمة المسلمة من مناهج صحيحة أسست لبناء علاقة سليمة مع الله تعالى من خلال القرآن الكريم، وكيفية التعامل معه، وتقعيد معانيه وإرشاداته وإشاراته وتقريراته على واقع الأمة؛ ليتمكّن أبناؤها من الفهم الصحيح لمضامينه، والانتفاع بحِكْمَته، وتحويله إلى نظام حياة، مع كونه الدليل المُعْتَمَد للآخرة وعوالمها، والسبيل الرئيس لتحقيق سعادتها.

وكذلك أتت على بيان ما رسموه للأجيال المسلمة من مناهج فكرية، وميدانيّة عملية توضّح معالم الطريق إلى معرفة الله تعالى، والتعرّف على مراده، وحُسْن عبادته، ومحاولاتهم إصلاح منظومة الأمة المسْلمة، والإنسانية بشكل

متكامل، وظهور أثر هذا الإصلاح على الفرد والأُسرة والمجتمع من خلال كتاب الله عزّ وجلّ، وسنّة رسوله ﷺ .

ولا شك أن قراطيس تاريخ الإسلام وسِيَر المسلمين، وخصوصاً العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله تعالى بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البرّ والبحر، مليئة بالأخبار والوقائع والآثار التي تحيي هذه المعاني العظيمة في الأمة، وتوقد العزيمة في أبنائها، وتبعثهم على السّعي الحثيث من أجل تحقيق ما أراده الله تعالى منهم لأنفسهم ولغيرهم، واستثمار تعاليم القرآن الكريم، الذي يمثّل الجامع لأُصول رسائل الحبّ، والتزكية، والتعريف بذاته جلّ جلاله، وبعظيم قدرته، وتوصلهم إلى حقيقة أن سائر ما فيه من معارف وعلوم ووسائل ورسائل وضوابط في التربية والأخلاق وسمو الأرواح وتنزيه الأبدان وسلامة الأفكار إنما جاءت لتعين الإنسان على تحقيق السّلامة والنجاة، وتحصيل النجاح والفلاح والفوز المبين برضوان الله تعالى ونعيمي الدنيا والآخرة.

ويتأتى ذلك أيضاً من خلال اتباع أنموذج السّلوك الحق؛ القائم في الأمة المتمثل بشخص الرّسول الخاتم سيّدنا محمد ﷺ، ومَنْ كان على أثره من آل بيته الأطهار، وصحابته الأخيار، وسائر مَنْ جاء بعده ممن تبعه وحرص على ضبط السّلوك، والفكر، ودوافعها ونتاجها في ضوء منهجه ﷺ، وربطها بما حضّ عليه الأمّة، في سنته القولية أو الفعلية أو التقريرية وهو يقودها نحو مرضاة الله جلّ جلاله، والجنة التي فيها النعيم المقيم.

وتناولت صفحات هذا الكتاب محاور مهمّة في حياة الأُمة، وعالجت من خلال ما ورد فيها من الوقائع والأقوال والتعامل مع القرآن الكريم وعلاقة أبناء الأُمة به كيفية استثمار الوقت، والإفادة من الحياة على نحو ما أراده الله عزّ وجلّ، وعالجت في سطورها قضايا رئيسة؛ لبعث النفوس على التحقق في رضوان الله الملك القُدُّوس، وتحقيق آثار ذلك في العلم والعمل والسّلوك والأخلاق.

وتبيّن للقارىء كيف كان تمسّك الأمة بكتاب الله تعالى وتعهّده وقراءته، وانبثاق المدارس لتعليم القرآن وحُسن تفهيمه، وتنوّع مناهج السَّلف يرحمهم الله في فهم القرآن والتعامل معه، وتهيئة الأجيال وتأهيلها للفهم عن الله عزّ وجلّ.

ثم ظهور أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن في سلوك الأمة تجاه سيّدنا رسول الله الخاتم ﷺ من خلال الالتزام بما جاء عنه، واعتبار الكتاب والسنّة المرجع الرئيس في الحياة، وفي حل مشكلاتها، في سبيل الوصول إلى الآخرة بنجاح ونجاة وبلوغ درجاتها، وكيف نبتت ثقافة النّصح والتناصح في الأُمّة، وتبنّتها أجيالها المتلاحقة في العديد من المجتمعات المسلمة، وظهر فيها أثر الفهم الصحيح للقرآن وتعاليمه من خلال الالتزام بالاستقامة على ما تقدّمت الإشارة إليه، وموافقة ظاهرها لباطنها، وحفظ الأدب مع الخلق بعد أن حفظته مع الحق جلّ جلاله، والاستعانة بالصبر على سراء الحياة وضرائها، وسائر مراحلها.

ثم ظهر للقارىء أثر القرآن في سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع من حيث معرفة النفس وتقصيرها، وعدم الركون إليها، وإعمال الحذر منها، ومعرفة علامات السعادة والشقاء، واجتناب ما يعد من أعظم الذنوب، والمحافظة على تذكير قراء القرآن بواجبهم، ومكانة السّابقين من أئمة المسلمين، الذين هم خلفاء الرّسول ﷺ في أُمّته، والمحيون لما مات من سنّته، بهم عُلِم الكتاب وبه علموا، وتحقيق السلوك السويّ الذي نُقل عنهم بناءً على تعاليم الكتاب والسنّة، والحرص على الدعاء، وحُسن الظنّ بإجابته، والاستغفار للنفس والولد، ومحافظة أهل القرآن على العقل، وتعلّم التعامل مع أشد الأعمال، وظهور البركة على مَنْ عاش في ظلال القرآن وتعاليمه في حياته، وشفاعة القرآن لقارئه، وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته، وأثر القرآن في إصلاح منظومة الأُسرة حضارياً، وبعث المجتمع المسلم إلى السّعي من أجل الكسب الحلال، والزّهد بما سواه، وتنمية ثقافة فهم القرآن بلغة القرآن، وظهور التأثر بمناهجه التربوية والحضارية والسلوكية، وظهور تفاعل أبناء المجتمع من الملوك والأُمراء والوزراء والأعيان مع القرآن وأهله، وتجدد الأمل بهذه الأُمة ومقدّراتها وأجيالها؛ كلّ ذلك النفح مما يندرج في الأثر، ويُسجّل له الحضور، ويتسلّق مسك عبيره ليمتزج بمداد ما جاء في صفحات الكتاب من سطور، فيخطّ لسائر الأُمم والمجتمعات عنواناً مشرقاً يرشد إلى أمّة القرآن، أمّة الأخلاق والسّلوك، أمّة العلم والعمل، أمّة الحضارة والإنسانية السويّة.

ثم **أوصي جيل المجتمع المسلم** - الحاضر والقادم- فأقول ما قاله ويقوله أهل البصيرة والحكمة عليهم رحمة الله تعالى : همّتك فاحفظها، فإنَّ الهمَّة مقدّمة

الأشياء، ومَنْ صَلحت له همَّته، وصدق فيها، صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال، ولا شك أن قيمة الإنسان بقدر همّته ؛ فإن كانت همَّته الدنيا مفرّطاً بالآخرة، فلا قيمة له، ومَنْ كانت همّته رضاء الله تعالى، فلا يمكن استدراك غاية قيمته، ولا الوقوف عليها . والزم طريق التزكية فهو طريق التآلف والتعاطف، وضبط الحواسّ، ومراعاة الأنْفَاس. واستحضر أنّ صحبة أهل الصلاح، تورث في القلب الصَّلاح، وصحبة أهل الفساد تورث فيه الفساد، وأنّ أسعد الأصحاب؛ أعظمهم لحرمات الله تعالى رعاية، وألهَجهم بذكر الله عزّ وجلّ، وأقومهم بحقِّ الله تبارك اسمه، وأسرعُهم مبادرة في مرضاة الله جلّ شأنه، وأعرفهم بنقصان نفسه، وأكثرهُم تعظيماً لما عظَّم الله من حُرْمة عباده. وأنّ أفقههم مَنْ كان على هدي رسول الله الخاتم سيّدنا محمد ﷺ في العلم والعمل والأخلاق ؛ فقد كان خُلُقُه القرآن كما تُحدِّث أم المؤمنين عائشة بنت الصّدّيق أبي بكر رضي الله عنهما [1] . وإيّاك والسّكون للأسباب ؛ فإنّ السّكون

(١) لما أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ١١٥ ، برقم (٣٠٨) بسنده إلى يزيد بن بابنوس، قال دخلنا على عائشة رضي الله عنها، فقلنا: يا أم المؤمنين ؛ ما كان خُلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت: « **كان خلقه القرآن** ». والخُلُق: الطبع و الدين و المروءة ؛ بمعنى أنّه ﷺ كان متمسكاً بآداب القرآن وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والأوصاف، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، وكان أجود الناس وأرأفهم وأرحمهم، وأحسنهم خَلْقاً وخُلُقاً، وألينهم كفّاً، وأطيبهم ريحاً، وأحسنهم عشرة، وأعلمهم بالله وأشدهم لله خشية، ولا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها، وإنما يغضب إذا انتُهكت حرمات الله عز وجل فحينئذ يغضب ولا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق، وإذا غضب أعرض وأشاح، وكان أكثر الناس تواضعاً، يقضي حاجة أهله، ويخفض جناحه للضَّعَفة، وما سُئل شيئاً قط فقال لا، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها، والقريب والبعيد والقوي والضعيف عنده في الحق سواء . وهو بهذا التمسك =

إلى الأسباب يقطع القلوب عن الاعتماد على الـمُسَبِّب الحقيقي الذي هو الله سبحانه.

وعليك أن تعرف الله تعالى بكمال الربوبية، وتعرف نفْسَكَ بالفقر والعبودية، وتعلم أنَّ الله تعالى الأوَّلُ قبل كلِّ شيء، وبه يقوم كلّ شيء، وإليه مصير كلِّ شيء، وعليه رزق كل شيء، فلا بد من توحيده تعالى بالمعرفة، وتوحيده بالعبادة، وتوحيده بالرجوع إليه في كلّ ما لَكَ وعليك، وتعلمَ أنّ أوصافه مباينة لأوصاف خلقه، باينهم بصفاته قِدَماً كما باينوه بصفاتهم حدثاً، وأن الصَّادق هو الذي يَسْكن إلى مضمون الله تعالى له، وعلامة ركون القلب وسكونه إلى الله تعالى أن يكون قويَّاً عند زوال الدنيا وإدبارها عنه، وفقده إياها، ويكون بما في يد الله أقوى وأوثق منه بما في يده، وإذا سكن الخوفُ من الله تعالى في القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه. وأنّ المعجب بعمله مستدرَج، والمستحسِن لشيء من أحواله مَمْكور به، والذي يظن أنّه موصول فهو مغرور، وأنَّ أحسن العبيد حالاً مَنْ كان محمولاً في أفعاله وأحواله؛ لا يثق إلا بواحد، ولا يأنس إلا به، ولا يشتاق إلا إليه، فسبحان الله الملك القدُّوس ذي الجلال والإكرام رب العرش العظيم.

= يوضّح أن جميع ما قصّ الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق – مما قصّه من أخبار نبيّ أو ولي، أو حثّ عليه أو ندب إليه– ؛ كان ﷺ متخلّقاً به . وإن كلّ ما نهى الله تعالى عنه في القرآن ، ونزّه أولياءه عنه كان ﷺ لا يحوم حوله . فلا شيء أحسن من آداب القرآن الكريم التي دعانا الله تعالى إليها، وقد كان ﷺ أنموذجاً جامعاً لها غير خارج عنها إلى ما سواها في شيء ؛ فصلى الله عليه في الأولين، وصلى عليه في الآخرين، وصلى عليه في الملأ الأعلى إلى يوم الدين .

وعلينا جميعاً: أن نستذكر ونحفظ فضل من مضى من السَّابقين باستحضار جهودهم، وجهادهم في سبيل الله عزّ وجلّ، واجتهادهم في إيصال المعرفة والعلم والدّين إلى سائر أجيال الأمة المتعاقبة على أكمل وجه، وكذلك شكرهم، والدعاء لهم بالمثوبات والرَّحَمات، كدعائنا لأنفسنا بالثبات على الدين وحسن الخاتمة، وأن نحذر من الوقوع في قبح التقصير معهم ؛ بتضييع ما أفنوا أعمارهم من أجل توضيحه أو إيصاله إلينا جيلاً بعد جيل، أو بترك الدعاء لهم أو عدم الترحّم عليهم؛ يقول الإمام رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي البغدادي(ت ٤٨٨هـ) رحمة الله عليه: « يَقبُحُ بكم أن تستفيدوا منّا، ثم تَذكُرُونا ولا تترحَّموا علينا »[1].

فرحمة الله تعالى على السّابقين، والأولين والآخرين، ونفحنا من بركات ما نفحهم به، وألحقنا بركبهم ثابتين على الحق، غير خزايا ولا مفتونين.

فرحمة الله على من مضى وبارك الله على من بقي

وغفر الله لنّا ولهم، ورفع مقامهم في عليين؛

فـ(أولئك قومٌ شَيَّد اللهُ فَخْرَهُمُ فما فوقَه فَخْرٌ وإن عَظُمَ الفخرُ)

﴿ .. رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

---

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص ٩ .

(٢) سورة الحشر ، من الآية ١٠ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] . ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[2].

هـــذا .. وصلَّى الله على نبيِّنا مُحَمَّدٍ كلَّما ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ، وغَفَل عن ذِكْرِهِ الغافِلُـونَ . وصلَّى الله عليه في الأوَّلين والآخرين، أفضلَ وأكثرَ وأزكى ما صلَّى عـلى أَحَدٍ من خَلْقِـهِ . وزكَّانا وإيَّاكم بالصَّلاة عليه، أفضـلَ ما زكَّى أحدًا من أُمَّتِهِ بصلاته عليه . والسَّلام عليه ورحمةُ الله وبركاته . وجزاه الله عنَّـا أفْضَلَ ما جزى مُرْسَـلاً عن مَنْ أُرْسِـلَ إليه ؛ فإنَّه أنقَذَنا به من الهَلَكَة، وجعلنا في خير أُمَّةٍ أخرجـت للنّاس، دائنينَ بدينـه الذي ارتضى، واصطفى بـه ملائكتَه ومَنْ أنعم عليـه مِنْ خلقـه، فلم تُمْسِ بنـا نعمةٌ ظهـرتْ ولا بطنتْ، نلنا بهـا حظًّا في دِينٍ ودُنْيـا، أو دُفِـعَ بها عنَّا مكروهٌ فيهما، أو في واحدٍ منهما : إلا ومحمَّدٌ صلى الله عليه سببُها، القائدُ إلى خيرها، والهادي إلى رُشْدِها، الذَّائدُ عن الهَلَكَة وموارد السَّوْءِ في خلاف الرُّشْـدِ، المُنَبِّـهُ للأسـباب التـي تُورد الهَلَكَة، القائـمُ بالنصيحـةِ في الإرشـاد والإنـذار فيهـا . فصَـلَّى الله على محمَّدٍ وعـلى آل محمَّدٍ، كمـا صَلَّى على إبراهيم وآل إبراهيم، إنَّـه حميدٌ مجيدٌ [3]. والحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥٣ .

(٣) هذه الصيغة من الصلاة ذكرها الإمام الشافعي في كتابه الرسالة، ص ١٦ – ١٧ .

أهـــم
المراجـع والمصـادر

أهم المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عمر القيام، الناشر مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، بيروت .
- إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد ، للآلوسي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٨٢م .
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، دار ابن كثير، دمشق .
- إحياء علوم الدين ، للغزالي، دار المعرفة ، بيروت.
- الأدب المفرد ، للبخاري ، دار البشائر، بيروت، ١٩٨٩م .
- الإصابة في معرفة الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ، دار الجيل، بيروت.
- إصلاح المال ، لأبي بكر القرشي، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٤هـ .
- بصائر ذوي التمييز ، للفيروزآبادي ،القاهرة ، ١٣٨٥هـ.
- البيان والتعريف ، لإبراهيم الحسيني ،دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ،دار الكتب العلمية ، بيروت .
- تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم ابن عساكر الشافعي ،دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- التبيان في بيان آداب حملة القرآن، للنووي ، دار الكتاب العربي، ١٩٩٥م.
- تخريج الأحاديث والآثار ، للزيلعي،دار ابن خزيمة ، ١٤١٤هـ .
- الترغيب والترهيب ، للمنذري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، للخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ٢٠٠٦م.
- تفسير ابن كثير الدمشقي، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .
- تفسير أبي سعود العمادي ، دار إحياء التراث، بيروت .
- التفسير والمفسرون، للذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة .
- الحث على طلب العلم، لأبي هلال العسكري ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ .
- الدر المنثور ، للسيوطي ، دار الفكر ، بيروت .
- الرسالة، للإمام الشافعي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزهد لابن المبارك ، أبي عبد الله المروزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- السنن الصغرى، للبيهقي، مكتبة الدار ، المدينة المنورة، ١٤١٠هـ .
- العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني ، دار الجيل، بيروت.
- العمر والشيب، لابن أبي الدنيا ، مكتبة الرشد ، الرياض، ١٤١٢هـ .
- العيال ، لابن أبي الدنيا ، دار ابن القيم، الدمام، ١٤١٠هـ .
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي، مطبعة البابي، مصر .
- المستدرك على الصحيحين، للحاكم القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- المطالب العالية، لابن حجر العسقلاني، دار العاصمة ، السعودية، ١٤١٩هـ.
- المعجم الكبير ، للطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٩٨٣م .

- النهاية في غريب الأثر ، لابن الأثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٣٩٩هـ .
- تفسير الرازي ، دار الكتب العلمية ، ١٤٢١هـ .
- تفسير السمعاني ، دار الوطن ، الرياض ، ١٩٩٧م .
- تفسير الطبري ، دار الفكر ، ١٤٠٥هـ .
- تفسير القرطبي ، دار الشعب، القاهرة .
- تفسير الكشاف، للزمخشري ، دار إحياء التراث، بيروت .
- تفسير روح المعاني ، للآلوسي ، دار إحياء التراث، بيروت .
- جامع العلوم الحكم ، لعبد الرحمن ابن رجب البغدادي ، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ .
- حاشية ابن عابدين، محمد أمين،دار البشائر، ٢٠٠٠م.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ، مطبعة السعادة، ١٣٥٧هـ .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي ، مطبعة بولاق ، القاهرة.
- سبل السلام ، لمحمد الصنعاني ، دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٧٩هـ .
- سنن ابن ماجه، القزويني، دار الفكر ، بيروت .
- سنن أبي داود السجستاني ، دار الفكر ، بيروت .
- سنن الترمذي السلمي، دار إحياء التراث، بيروت .
- سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ .
- سنن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م .
- سنن سعيد بن منصور ، دار العصيمي ، الرياض، ١٤١٤هـ .

- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ .
- شعب الإيمان، للبيهقي، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- صحيح ابن حبان ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م .
- صحيح البخاري ، دار ابن كثير، ١٩٨٧م .
- صحيح مسلم ، دار إحياء التراث، بيروت .
- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لأبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٩٢م .
- طبقات ابن سعد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- طبقات الأولياء ، لابن الملقن ، القاهرة ، ١٩٩٤م.
- طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ، عالم الكتب، بيروت.
- طبقات الشعراء، لابن المعتز، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.
- طبقات المفسرين، للداوودي ، مصر، ١٩٧٢م.
- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، القاهرة،١٩٧٤م.
- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت .
- فضائل القرآن ، للنسائي، دار إحياء العلوم،بيروت - الدار البيضاء ١٤١٣هـ .
- فضائل القرآن وتلاوته، للرازي (ت٤٥٤هـ)، تحـ أ. د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية ، بيروت، ط١، ١٩٩٤م .
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت .
- فيض القدير ، للمناوي، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٥٦هـ.
- قواعد التحديث، للقاسمي، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩هـ .

- قيمة الزمن عند العلماء ، لأبي غدّة ، دار البشائر الإسلامية، بيروت،١٩٩٥م.
- لسان العرب، لابن منظور المصري ، دار صادر ، بيروت.
- مجمع الزوائد ، للهيثمي ، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ .
- مسند أبي عوانة الإسفرائيني ، دار المعرفة بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- مسند الشاميين ، للطبراني ،مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م .
- مصنف ابن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ .
- مصنف عبد الرزاق الصنعاني ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
- مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٢م .
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري، القاهرة، ١٩٦٧م .

***

الفهرس

الموضـــــــــــوع	ص
افتتاحية	٥
- المقدمـــة	٧
- المحور الأول :إشراقات في تعامل الأُمّة مع القرآن الكريم	**١٥**
أ- التمسّك بكتاب الله تعالى والتزامه قراءة وتعهّـداً	٢٨
ب- انبثاق المدارس لتعليم القرآن الكريم، وحُسْن تفهيمه	٣٤
ت- تنوع المناهج في فهم القرآن والتعامل معه	٣٦
ث- تهيئة الأجيال وتأهيلها للتعامل مع القرآن الكريم	٣٩
المحـور الثاني : أثر الفهم الصحيح لتعاليم القرآن الكريم على السلوك	**٤٥**
أ- الالتزام بما جاء عن النبي ﷺ ، واعتبار الكتاب والسنّة المرجع الرئيس في الحياة	٥٣
ب- تقديم النصيحة لأهل القرآن الكريم وعموم المسلمين .	٥٦
ت- التزام الاستقامة، وموافقة الظاهر للباطن، وحفظ الأدب مع الخلْق .	٦٦
ث- ملازمة الأُسس الصحيحة التي عليها قِوام العبادات والمعاملات.	٦٩
ج- الاستعانة بالصبر على طريق المعرفة وفهم القرآن الكريم .	٧٢
المحور الثالث : أثر تعاليم القرآن الكريم على سلوك الفرد والأُسرة والمجتمع	**٧٣**
أ- في اتهام النَّفس، وعدم الرّكون إليها، وإعمال الحذر منها .	٧٦
ب- معرفة علامات السَّعادة والشقاء، وما يُعد من أعظم الذنوب.	٧٧

الموضـــــــــوع	ص
ت- المحافظة على تذكير قرّاء القرآن بواجبهم، ومكانة السّابقين من أئمة المسلمين.	٨٣
ث- تحقق السلوك السوي بناءً على تعاليم كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.	٨٩
ج- الحرص على الدعاء ، وحُسن الظنّ بإجابته، والاستغفار للنفس والولد.	٩١
ح- تحقيق العزّ، ولاسيما لحملة القرآن، والشهادة بفيض نُبْلِهم.	١١٤
خ- المحافظة على العقل وأفضلية الإيمان ببركة القرآن الكريم.	١٢٣
د- ثبوت أجر المتمسّك بالحق إذا اتُبعت الأهواء وآثر الناسُ الدنيا .	١٢٩
ذ- تحريك النَّفْس والهمّة في أن نلقى الله تعالى بأحبّ الصُّحف المرفوعة إليه.	١٣١
ر- تحصيل بشارة مَنْ قرأ القرآن الكريم وحافظ على قراءته.	١٣٥
ز- استحقاق مَنْ يؤخذ عنه القرآن المدحَ والتشجيع، وكذلك المتصدّر بـــه.	١٣٨
س- تعلّم الأمة التعامل مع أشد الأعمال .	١٣٩
ش- ظهور البركة على مَنْ عاش في ظلال القرآن الكريم وتعاليمه في حياته.	١٤١
ص- شفاعة القرآن لقارئه، وعودة بركته على المشتغل به بعد مماته .	١٥٤
ض- إصلاح منظومة الأسرة حضارياً .	١٦٠
ظ - رغبة المجتمع المسلم وسعيه إلى الكسب الحلال، والزّهد بما سواه.	١٦٥

الموضـــــــــوع	ص
ط- تنمية ثقافة فهم القرآن بلغة القرآن؛ للتأثر بمناهجه التربوية والحضارية و السلوكية	١٧٨
ع) ظهور أثر القرآن في أبناء المجتمع من الأعيان، وتعزز مكانة أهل القرآن عندهم	١٩١
غ- مكانة أهل القرآن عند الملوك والأمراء والوزراء والدولة .	١٩٤
ف- تجدد الأمل بهذه الأُمَّـة ومقدّراتها وأجيالها .	٢١١
- « خاتمة و وصيّة »	٢١٩
- أهم المصادر والمراجع	٢٢٩
- فهرس الموضـــوعات	٢٣٧

* * *

www.iacad.gov.ae
04 6087777 الـرؤيـة ثقافة إسلامية وسطية